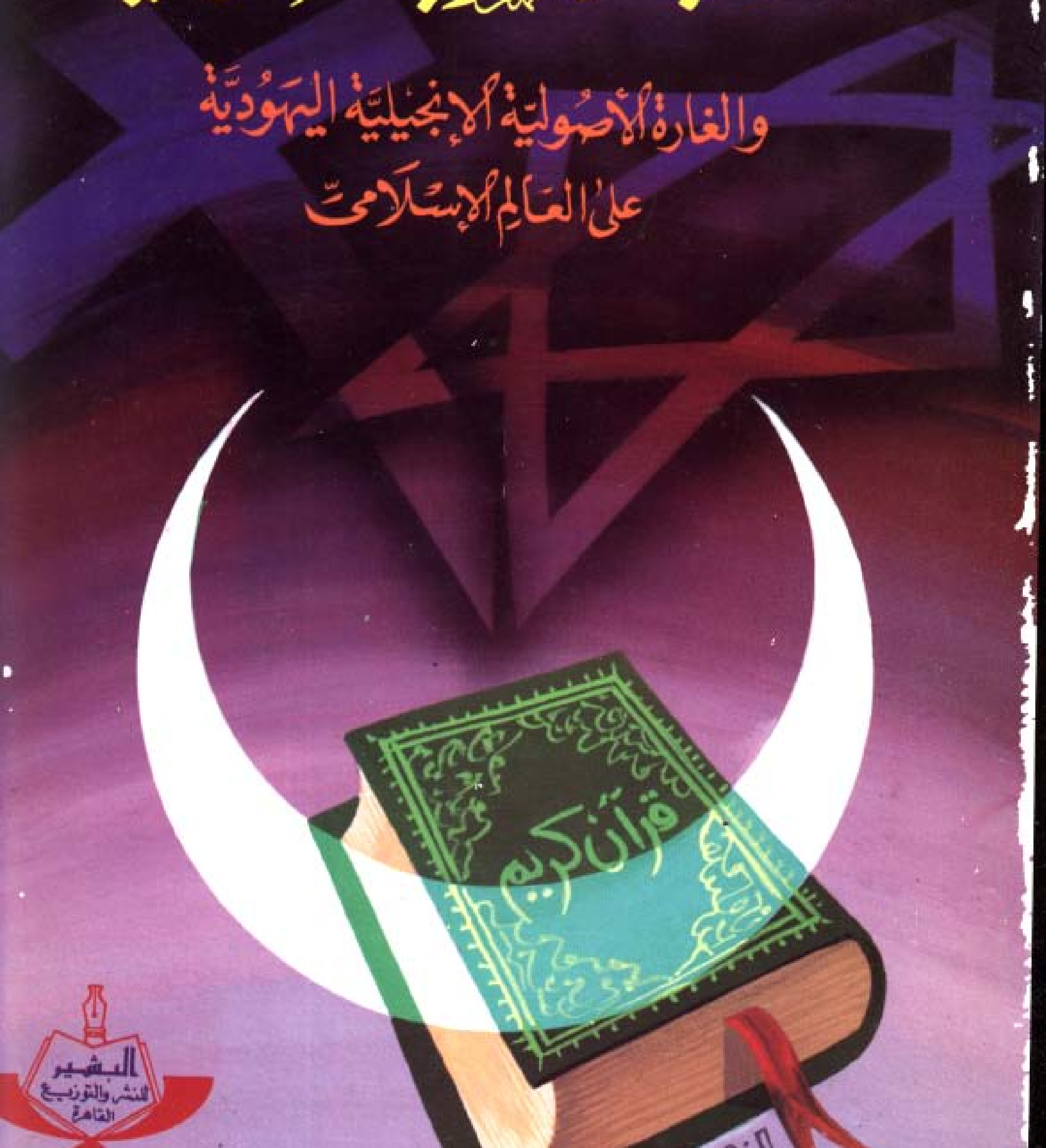
محمود النجيرى

أكذوبة الأصولية الإسلامية

والغارة الأصولية الإنجيلية اليهودية على العالم الإسلامي



البشير
للنشر والتوزيع
القاهرة

محمود النجيرى

أكذوبة الأصولية الإسلامية

وتحدِّي الأصوليات اليهودية والمسيحية

« الإسلام ليس عدواً ! »

دار البشير
القاهرة

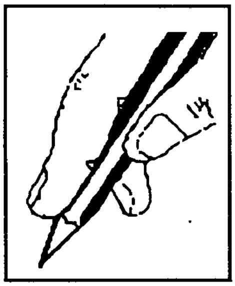
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾.

(الآية ٤١ من سورة إبراهيم)

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾.

(الآية ٢٨ من سورة نوح)



﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) ﴾

[سورة النساء – آية : ١٢٣]

مقدمة

المسألة الأصولية والمسألة الشرقية

أوغاد العالم ، وحُثالة البشرية .. لصوص ومجرمون ، وقُطّاع طرق ، ومختطفو طائرات، ومهربو مخدرات ، وتجار رقيق أبيض .

كانت هذه صورة العرب فى الإعلام الغربى فى السبعينات ، ومع نهاية الثمانينات وبداية التسعينات تغيرت هذه الصورة فى مصطلحاتها لا فى حقيقتها فأصبحت : الإرهابيين – المتعصبين – المتشددين – المتطرفين – السلفيين – الأصوليين ، وجاء هذا متواكباً مع تصاعد نمو الظاهرة الإسلامية التى رغب الغرب فى أنْ يُصورها بعبعاً يتحدى العالم ويهدد سلامه .

والغريب هو أنْ تتجاوب وسائل الإعلام عندنا مع هذه الصورة المشوهة ، وأنْ تستخدم المصطلحات الغربية نفسها وتزيد عليها ، بل ويتفنن المثقفون المتغربون فى إضافة أوصاف وتعبيرات أخرى مثل : الظلاميين ـ الرجعيين ـ المتأسلمين ـ المزورين للدين ـ المنغلقين ـ

الجامدين ـ العملاء ـ المنافقين ـ الكافرين . ونعجب إذا كان هؤلاء قد وقفوا بشدة قبلاً في وجه تشويه صورة العربى فى الإعلام الغربى ، فلماذا هم اليوم طرف فاعل وبوق صادح للتشويهات الغربية للإسلام والمسلمين ؟!

إن صانعى السياسة وموجهى الرأى العام فى الغرب كانوا متوافقين مع عدائهم للعرب والمسلمين ، وهم حين يثون فى مخيلة جماهيرهم صورة « الأصولى » المسلم (الذى يمسك بيده مدفعاً رشاشاً ، وباليد الأخرى قنبلة ، وبين أسنانه خنجراً) ، لا يبتعدون كثيراً أو قليلاً فى أغراضهم ومنطلقاتهم عن سابق تصويرهم للعربى الإرهابى ، فماذا تغير فى قومنا حين يوافقون الغرب فى حملته على ما دعوه « الأصولية الإسلامية » صراحة؟ ألا يعلمون أن المقصود هو الإسلام نفسه ؟ أم أن ذلك هو كبش الفداء الذى لابد من تقديمه على محرقة قرابين السياسة الدولية ؟!

لقد كانت المسألة الشرقية – فى القرن الماضى ، وبداية هذا القرن الميلادى – تعنى النزاع القائم بين دول أوربا ومعها روسيا ، والدولة العلية العثمانية ، وكان موضوع هذه المسألة هو البلاد الواقعة تحت سلطان الدولة العثمانية أى بلاد العالم الإسلامى ، وكما يرى المجاهد مصطفى كامل – فى كتابه « المسألة الشرقية » (١٨٩٨ : ٥) : « فإنَّ المسألة الشرقية فى نظر فريق من الشرقيين والغربيين هى مسألة النزاع المستمر بين النصرانية والإسلام ، أى مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الإسلام ودولة المسيحية » .

وإذا كانت هذه الدولة الأولى قد اختفت سنة ١٩٢٤م ، فإنَّ الدولة الأخيرة قد نجحت فى التحالف مع الفريق الآخر فى الشرق الذى يرى أنَّ حياة الغرب خير وأبقى ، والذى ارتبط وجوده ومصالحه مع أوضاع تقصِى الإسلام عن الحياة وتسجنه فى محاريب المساجد .

والحرب على « الأصولية الإسلامية » – التى تُعَدُّ اليوم الشارة الحمراء المخيفة – هى حلقة جديدة من المسألة الشرقية يحاول فيها الغرب أنْ يحشد القوى الدولية والأتباع ضد « الخطر » الكونى الجديد القديم ، وضد محاولات إحيائه ، وتجديده ، وهذا ما يجعلنا نطلق مصطلح « المسألة الأصولية » على محاولات الغرب الحاضرة للقضاء على الإسلام ؛ لربطها بالمسألة الشرقية ؛ فالمسألة الأصولية فى الحقيقة هى المسألة الشرقية ، ولكن فى ثوب جديد .

والغرب – ومَنْ لَفَّ طبقه – يخوفوننا من « الأصولية الإسلامية » ، ويريدون عقد حلف دوليّ لمواجهتها ، فماذا يقصدون بالأصولية الإسلامية ؟ وهل نقبل هذا المصطلح أم نرفضه ؟ وماذا تعنى كلمة أصولية فى الأدبيات الغربية ؟ ومن أين نشأت ؟ ومتى ؟ وكيف يصورون الإسلام « الأصولى » فى الإعلام الغربى ؟ ولماذا يتبعهم فريق من المثقفين والسياسيين العرب على ذلك ؟

هذه أسئلة أساسية يُجيب عنها هذا الكتاب ، وهو يُقدم أيضاً كشفاً للأصولية المسيحية الإنجيلية الأمريكية فى تحضيرها المسرح العالمى للحرب النووية بين الغرب و « إسرائيل » من جانب والعرب من جانب آخر ، وهى حرب يعتقدون وجوبها لمجىء المسيح الثانى ، كما يقدم الكتاب أضواءً على الأصولية اليهودية ومعتقداتها والتزاوج النفعى بين الأصوليتين اللتين تعتمدان على نبوءات توراتية واحدة بتفسيرات مختلفة عن نهاية الزمان ومجىء المسيح والدمار الذى سيعم الأرض فى ذلك الوقت !

وفى النهاية يُحذر الكتاب من الخطر الذى يُهدد الأمن والسلام فى العالم من جرَّاء عمل هاتين الأصوليتين اللتين تسوقان العالم إلى هاوية سحيقة اعتماداً على تأويلات مزيفة لنصوص محرفة .

والمرجو هو أنْ يُنبِّه هذا الكتاب إلى كثير من الأخطاء والأخطار التى تحيط بنا وتُهدد بمخاطرها ديننا وبلادنا وحاضرنا ومستقبلنا .

١٥ ذو القعدة ١٤١٤هـ

محمود النجيرى

١ - على خطى الأصولية صور حيَّة

« بالدَّم والنَّار تنهض إسرائيل »

في منتصف شهر رمضان الكريم ، كانت الجباه المسلمة تسجد ضارعة لله في صلاة فجر الجمعة بالحرم الإبراهيمى الشريف حين بدأ الرصاص ينهمر على ظهور المصلِّين .. إنَّها مذبحة جديدة للفلسطينيين ، قادها هذه المرة طبيب يدعى جولد شتاين .. أصولى يهودى قادم من الولايات المتحدة ويحمل الجنسية المزدوجة : الأمريكية - الإسرائيلية ، وهو ضابط احتياط فى الجيش الإسرائيلي ، وينتمى لمنظمة كاخ الأصولية ، واستمر إطلاق النار وقتاً طويلاً على الساجدين ، أُفرِغَتْ فيه خزانات الرصاص الإضافية ، وحاول كثير من المصلين النجاة فراراً من الأبواب فاستقبلهم جنود حراسة المسجد برصاصاتهم ، وانقشعت السحب عن المذبحة الأصولية ليبلغ عدد القتلى خمسين والجرحى عدة مئات.

وكان مقصد المذبحة واضحاً ، فوسط دعوات « السلام » لا بد أنْ يسعى الأصوليون اليهود للتخريب والإفشال « للعملية السلمية » ، بالقتل والمذابح ، لخلق أمر واقع من العداء المتجذر ، والبغض المتأصل ، والدموية المدوية ، لجعل السلام و « التنازلات » فى الأراضى مستحيلة أبداً .

والفتاوى الحاخامية جاهزة للقتل والذبح باسم الرب ، ومنذ بداية الهجرة اليهودية واستيطان فلسطين كان شعار منظمة أصولية من « جماعة البيلو » تدعى « بارجّيورا » سنة ١٩٠٧م هو : « بالدَّم والنَّار سقطت يهوذا ، وبالدَّم والنَّار تنهض ثانية » .

وهذه فتوى - من رجل الدين - الأصولى الحاخامى الهالك مائيركاهانا . عقب الهجوم الذى قام به الأصولى اليهودى المجرم « ألن مان جودمان » على المصلين بالمسجد الأقصى ، يقول :

« نؤازر « البطل » الذى حاول « تحرير » بيت المقدس من الغرباء ، ونطالب بإطلاق

سراحه الفورى من المعتقل، ونأمل أن يُعاود الكثيرون مثل هذا العمل الذى نفذه «البطل» اليهودى فى بيت المقدس حتى يصبح ذلك البيت تابعاً لنا » !

ولننتبه ! إنّه ليس كلام رجل عادى ، ولكنه فتوى رجل دين ، وعضو كنيست ، خطط للوصول إلى أعلى السلطة فى إسرائيل « فلسطين » ، وهو بنفوذه تمكن من إقامة كنيس يهودى داخل الحرم الإبراهيمى عرف باسم « معرات هامكفيلا » .

ولننتبه مرة أخرى ! إنّه لا يُعبر عن رؤية شاذة أو متطرفة هناك ، ولكنّه جدول من تيار تهدر به أمواج « الدولة الأصولية » ؛ ففى أثناء الغزو على لبنان الحزين ١٩٨٢م ، لم تكفّ الحاخامية العسكرية بالجيش عن الدعوة إلى الحرب المقدسة ، وهذا حاخام برتبة نقيب يقول مُلخصاً غرض الحرب : إنّ علينا ألا ننسى أجزاء التوراة التى تبرر هذه الحرب، فنحن نؤدى واجبنا الدينى بوجودنا هنا ، فالنص المكتوب يفرض علينا واجباً دينياً ، هو أنْ نغزو أرض العدو » .

وكما يبين جارودى [(١)] فإنّ الحاخامات لم يقتصروا على القول بأن أرض لبنان المحتلة هى أرض قبيلة « عاشون » الإسرائيلية ، بل ذهبوا إلى حد اعتبار المذابح مشروعة دينياً من أجل متطلبات القضية ، فتدمير مدينتى صور وصيدا ودك بيروت بالقنابل، ومجازر صابرا وشاتيلا ، لم تكن فقط امتداداً لمذابح دير ياسين التى ارتكبتها عصابات « السيد » بيجن عام ١٩٤٨م ومذابح قبية وكفر قاسم ، والمذابح التى قام بها قتلة الفرقة (١٠١) بقيادة شارون ، بل إنّها كانت باسم الرسالة التوراتية لإسرائيل جميعها .

ويستمر جارودى فى القول : إنّ حكومة « إسرائيل » الحالية تُكرر نفس العمل « المقدس » الذى قامت به إسرائيل القديمة من إبادة الكنعانيين ، ومع مَنْ سبقهم ممن احتلوا هذه الأرض ، « إنّ مدن هذه الشعوب الموروثة إليك من مولاك الرب ، هى الوحيدة التى لن تدع مخلوقاً حياً يعيش فيها ..بل ستجعلها محظورة على الحيثيين والعموريين والغرزّيين ، كما أمرك الرب مولاك » [تثنية ٢٠ / ١٦ – ١٨] .

أو كما جاء فى النص : « الآن إذن ، اضرب عدوك ، واحظر عليه كل ما يملك، ولا تترك له شيئاً ، اقتل الكل : الرجال والنساء والأطفال والرضع والأبقار والخراف والجمال والحمير » [يشوع ٦ / ٢١] .

(١) ملف إسرائيل : دراسة للصهيونية السياسية – ط١ دار الشروق – القاهرة، ١٤٠٣هـ – ص ٢١.

الأصولية الأمريكية فى الهيئة الدولية

القدس مدينة مقدسة تُعد « مجمع الأصوليات » إذا صح هذا التعبير، فيها الأماكن المقدسة للمسيحيين واليهود والمسلمين، لذا فهى لب الصراع الدينى ومفجّره، والتاريخ يشهد أنَّ حولها قامت الحروب الصليبية والصراعات المسلحة، وسالت فيها الدماء أنهاراً، فهى مطمح ملايين البشر من عقائد عدة، وكلٌّ منهم له مخططه المختلف لها عن غيره، فاليهود يعملون على تهويد القدس، حيث عليهم – فى مخططهم – أنْ يعيدوا بناء الهيكل المقدس الثالث مكان المسجد الأقصى.

والمسلمون لا يمكن أن يُفرطوا بحبة تراب من القدس : المدينة المقدسة التى فتحها عمرو بن العاص فى صدر الإسلام، وحررها صلاح الدين من الصليبيين سنة ١١٨٧م، وأقام جدرانها الخليفة العثمانى خليفة المسلمين سليمان القانونى فى القرن السادس عشر.

والولايات المتحدة لها مخططها الخاص للمدينة المقدسة، وهى تنطلق من خلفية توراتية فيها التأييد المطلق « لإسرائيل » والتبرير لإجرامها، ومنع إدانتها، مجرد إدانة من مجلس الأمن، والآن نسأل : هل أمريكا دولة أصولية ؟ إنَّ الخيوط التى نمسك بأطرافها للإجابة على هذا السؤال ليست بعيدة، فالإنجيليون البروتستانت الأمريكيون يصرون على أن القدس هى المدينة التى سيمارس المسيح حكم العالم منها بعد قدومه الثانى المنتظر؛ ولذلك تضغط الكنائس المسيحية الصهيونية فى الولايات المتحدة من أجل الاعتراف بالقدس عاصمة موحدة وأبدية « لإسرائيل »، وكان تجاوب مجلسى الشيوخ والنواب مع هذه الضغوط فى أبريل ١٩٩٠م.

والأصوليون المسيحيون هناك يعتقدون أنَّ أمريكا تعد عاصية فى عين الربّ ومذنبة إنْ هى قصّرتْ فى حق « إسرائيل »، أو تركت قراراً معادياً لها يمر فى مجلس الأمن، فالفيتو الأمريكى يجب أنْ يُسخّر لحماية الكيان الصهيونى حتى لا يغضب الربُّ على أمريكا !

ولم تأتِ قرارات مجلس الأمن بعيدة عن ذلك، فالولايات المتحدة هى التى قادت الأمم المتحدة إلى سابقة خطيرة، حيث تراجعت الهيئة الدولية عن قرارها، السابق باعتبار الصهيونية حركة عنصرية، وفى مذابح الفلسطينيين المتوالية وأحدثها مذبحة الحرم الإبراهيمى فى الخليل، مارست أمريكا ضغوطها لتعويق صدور قرار يدين « إسرائيل »،

مجرد قرار يدعو إلى حماية الفلسطينيين وتجميد بناء المستوطنات فى الأرض المحتلة بعد سنة ١٩٦٧م ، ويستمر رفض الولايات المتحدة مشروعات القرار ، مشروعاً بعد مشروع ، لمدة شهر ، لأنَّها تتحفظ على ذكر مدينة القدس كأرض محتلة عربية ، وترفض إدانة « إسرائيل » نفسها ، وتريد إدانة المذبحة عموماً ، ويتجلى الموقف فى تبليغ الرئيس الأمريكى قادة منظمة « إيباك » اليهودية الأمريكية أنَّ الولايات المتحدة تعتبر مدينة القدس الموحدة عاصمة « لإسرائيل » ، وكان ذلك رداً على تحذير من المنظمة اليهودية المذكورة من تمرير قرار من مجلس الأمن يتضمن ذكر القدس كجزء من الأراضى المحتلة ، وبهذا تعدُّ الولايات المتحدة قد تراجعت عن موقفها السابق ، حيث كانت تعترف بالقدس مدينة عربية محتلة .

* * *

بين أصوليتين

تُشجع الولايات المتحدة هجرة اليهود من جميع أنحاء العالم ، وخاصة الاتحاد السوفيتى السابق ، إلى فلسطين وتدفع لاستيعابهم وتشغيلهم ، وقد وصل مليون ونصف المليون مهاجر دفعوا دفعاً إلى فلسطين ، والأصوليون الأمريكيون المسيحيون يحثون اليهود فى كل مكان على الذهاب إلى فلسطين والمطالبة بكل الأراضى العربية الواقعة بين النيل فى الغرب والفرات فى الشرق ، ويعدون السلام لا جدوى منه ، ولن يكون ، وأنَّ من يبحث عنه مخدوع وغبى ، وهم وحدهم لديهم الحقيقة المطلقة ، والتاريخ القادم طبقاً لنبوءات كتابية عندهم .

واعتماداً على نصوص توراتية يعتقد هؤلاء الأصوليون أنَّه كما كان إقامة « إسرائيل » يُعَدُّ عملاً دينياً وتنفيذاً لإرادة إلهية بموجب تعاليم الكنيسة الصهيونية المسيحية ، فكذلك المحافظة على « إسرائيل » ومساعدتها ودعمها والدفاع عنها يؤلف عملاً دينياً أيضاً ، ويُعبر عن هذا الموقف وصف ممثل الحزب الجمهورى عن نيويورك « جاك كامب » أن إنشاء « إسرائيل » « تحقيق لنبوءة توراتية » ، وقال : « إنَّ دور الولايات المتحدة هو تأمين الفرص (فى إسرائيل) لتحقيق النبوءات التوراتية » [1] .

(١) جريس هالسل : النبوءة والسياسة - الإنجيليون العسكريون فى الطريق إلى الحرب النووية ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية - الجماهيرية الليبية - ط ٢ ، ١٤١٠هـ - ص ١٨٧ .

وفى السادسِ من فبرايرِ ١٩٨٣م صرح « فولويل » لصحيفة كوريوتايمس تلجرام فى تكساس ، أنه يفضل أن يصادر الإسرائيليون أجزاءً من العراق وسوريا وتركيا والمملكة العربية السعودية ومصر والسودان ، وكلٍّ لبنان والأردن والكويت ... لقد بارك الله أمريكا لأننا تعاونا مع الله فى حماية إسرائيل التى هى عزيزة عليه [١] .

ويظهر صدى ذلك فى تبرير الأصولية المسيحية غزو لبنان سنة ١٩٨٢ ، ويعتقد هؤلاء الأصوليون أنَّ « إسرائيل » كانت على حق فى غزو لبنان ؛ فإذا صادروا أراضىَ عربية فإنَّ لديهم الحق الإلهى فى أنْ يفعلوا ذلك ، وكان يجب أن يأخذوا أكثر [٢] .

ونرى صدى ذلك أيضاً فيما كتب إريل شارون فى صحيفة يديعوت أحرونوت بعدد ١٩٧٣/٧/٢٦ : « أصبحت إسرائيل اليوم قوة عسكرية كبرى .. إنَّ القوات العسكرية الأوربية مجتمعة أضعف من قواتنا العسكرية ، وتستطيع إسرائيل أن تستولى فى أسبوع على المنطقة الممتدة من الخرطوم إلى بغداد وإلى الجزائر » .

***

الأصولية الصربية وحرب الإبادة

يعانى المسلمون فى البوسنة والهرسك حملة صليبية يشنها الصرب ، وهى حربٌ دينية « مقدسة » على الإسلام ، يشارك الغرب فيها بالتأييد والتشجيع ، والصرب يمارسون بذلك الأصولية التى يتفرج عليها الغرب منذ ما يزيد على السنتين ، وتصريحات الصرب تأتى صريحة فى أنّهم لا يريدون الإبقاء على مسلم واحد فى أوربا، وهذا ما يوافق أمانى الغرب ورغباته الدفينة .

فالميليشيات الصربية التى حاربت فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وقامت بعمليات الذبح والتقتيل ، هى نفسها التى قامت حديثاً بالدور نفسه بوحشية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، من هتك حرمة النساء ، وبتر ذكورة الرجال ، وقلع أعين الشيوخ والمسنين ، ونهب البيوت وحرقها بسكانها، وقطع أيادى الأطفال ورؤوسهم واللعب بها بدلاً من كرة القدم، وحفر الصليب على جباه الرجال والنساء ، وزرع أجنة الكلاب فى أرحام النساء وهدم المساجد .

---

(١) جريس هالسل : المصدر السابق– ص ١٤٤ . (٢) جريس هالسل : المصدر السابق– ص ٩٣ .

ولا يستحى المسئولون الصربيون أن يعلنوا أن استراتيچيتهم فى البوسنة هى قتل ثلث السكان وتهجير ثلثهم ، وتنصير الثلث الأخير ، وأنَّ هدفهم النهائى هو القضاء على كُلّ ما ليس بصربى هناك .

* * *

الأصولية الهندوسية تهدم المساجد

يتعاظم نفوذ المتطرفين الهندوس ، حتى أنَّ الحكومة الهندية تغض الطرف أحياناً عن جرائمهم فى حق المسلمين ، بل تصدر أحياناً أخرى القرارات التى تحابى هؤلاء الأصوليين لضمان الحصول على أصواتهم فى الانتخابات ، ويستمر التيار المتعصب للهندوس فى اختراق وسائل الإعلام والتعليم والثقافة والفنون والجيش والشرطة ، وهكذا تنتشر الروح العلمانية ضد المسلمين وتظهر في المذابح المنظمة التى يقتل فيها آلاف المسلمين ، وتهدم قراهم ، وتدك مساجدهم ، ويستولى على أموالهم ، ومن العجيب أن الشرطة الهندية تشارك فى هذا الإرهاب المنظم .

ويدّعى هؤلاء الأصوليون من حزب « بهارتيا جاناتا » الهندوسى ، أن المسجد البابرى بمدينة « أيوديا » يقوم مكان معبد إلههم « راما » ، وأنه وُلد (أى إلههم) مكان المسجد المذكور ! على حين أن هذا المسجد يعود تاريخه إلى القرن السادس عشر الميلادى حين كان المسلمون يحكمون الهند ، حيث بناه السلطان المغولى المسلم « بابر » عام ١٥٢٨م .

وكما حدث فى المذابح السابقة دعا الزعماء الأصوليون العامة وهيجوهم ، فاحتشد منهم عشرات الآلاف من جميع أنحاء الهند لتدمير المسجد وإقامة المعبد الوثنى ، وقد أسفرت الاشتباكات التى كانت بين المسلمين والهندوس حينئذ عن قتل ألف شخص عام ١٤١٠هـ ، وقُتِلَ أيضاً أربعمائة شخص خلال عام ١٤١١هـ عندما تجددت الاشتباكات .

* * *

التمرد الأصولي المسيحي

هل يمكن أن نغفل عن الدور الأصولي فى أفريقيا وآسيا حيث حوّل الأصوليون المسيحيون دولاً بكاملها إلى النصرانية مع أنَّ أغلب سكانها كانوا مسلمين ؟ أو هل نغفل كيف مكّنت هذه الأصولية لحكومات نصرانية فى بلدان غالبية أهلها من المسلمين ؟

إنَّ هناك كثيراً من الهيئات والمنظمات الكنسية التى تعمل ليل نهار على تحويل المسلمين عن دينهم فى عمل تنصيرى دؤوب ، والمسلمون ليس لهم هيئات ومنظمات تؤدى عملاً تبشيرياً مقابلاً ، مما يجعل الإسلام يخسر كل يوم أرضاً وبشراً وثروة ونفوذاً ، وهذه حقيقة يغطيها الإعلام عمداً أو يعكسها ليتحدث عن الإسلام المنتصر الذى يغزو بلا جنود ، وهذا من تخدير المسلمين وخداعهم .

وتقف إمبراطورية الشر الأصولية التى يعمل لها المنصِّرون على الأبواب وتدق بعنف، وتتدخل فى الشئون الداخلية للدول ، وتوفر المال والسلاح والخبراء والاستشارات والسند الإعلامى للحركات النصرانية الخارجة على الشرعية ؛ لأنَّ عملها فى حقيقته هو جزء من دور الغرب الاستعمارى الهادف لقيام إمبراطورية نصرانية تسيطر على العالم .

هل يُعَدُّ هذا من الأصولية أم من الجهاد ؟

ولنضرب مثلاً بجنوب السودان ، حيث لا يتخفى المتمردون من إعلان نيتهم فى إقامة دولة مسيحية كبرى فى أفريقيا والانفصال عن السودان الأم ، على الرغم من أنَّهم لا يمثلون أكثر من ٧٪ من عدد السكان هناك ، ولكنه التعصب الأصولى واتباع الناعقين من أهل الغرب الذين يؤيدون التمرد الصليبى بالمال والسلاح والدعاية والسند المعنوى ، وهم يرفضون تطبيق الشريعة الإسلامية دين الأغلبية ، وحتى حين تقول حكومة السودان إنها ستطبق الشريعة على المسلمين وحدهم يرفض صليبيو العصر ذلك ، ويمارسون التهديد ويرفعون السلاح .

وفى نيجيريا المسلمة كذلك ، وفى مقاطعة « بيافرا » منها ، حين أعلن المتمردون النصارى العصيان ، وخرجوا على دولتهم ، سارع صليبيو الغرب إلى إمدادهم بالمال والسلاح من كل طريق لتأييد انشقاقهم على دولتهم .

* * *

النبوءة الأصولية لتدمير العالم

في التاسع من يونيو سنة ١٩٨٢م ، أي بعد ثلاثة أيام من بداية الاجتياح الإسرائيلي للبنان المقهور ، قام التلفزيوني الإنجيلي الأصولي « بات روبرتسون » بشرح الرعب الآتي المترتب على معركة هَرْمَجَدُّون القادمة ؛ فقد بدأ برنامجه بإعادة تقديم النبوءات التي أعلنها في يناير ١٩٨٢م قائلاً :

« إنِّي أؤكد لكم أنَّه مع نهاية عام ١٩٨٢ ستكون هناك قيامة على الأرض ، وأنَّ هذه القيامة ستكون في الاتحاد السوفيتي أساساً ، إنَّهم أولئك الذين سيخوضون المغامرات العسكرية وسوف يضربون »

وفي كتاب « آخر أعظم كرة أرضية » للكاتب الأمريكي الأصولي (هول لندسي) يرى أنَّ على الأمريكيين أنْ يدمروا الكرة الأرضية ، وأن يبيدوا أنفسهم وكل ما لديهم من أشجار وأزهار وأشعار وفنون وآداب وموسيقى ، بحيث لا يبقى شيء من الماضي وبحيث لا يكون هناك غد على الأرض .. وهذا الكتاب بيع منه ١٨ مليون نسخة وظلَّ الأكثر مبيعاً خلال عقد السبعينات .

ويعتقد هؤلاء الأصوليون أنَّه لكي يعود المسيح – عليه السلام – ثانية ، لابد أنْ تكون معركة أو بالأحرى محرقة نووية في مكان اسمه هَرْمَجَدُّون بين الأردن وفلسطين ، ويكون في ذلك دمار العالم قبل أنْ يسود المسيح على العالم .

وسيقود جيش إمبراطورية الشرِ ضد بني إسرائيل الاتحاد السوفيتي (يأجوج ومأجوج) وتحالف من العرب والمسلمين ، ويُعد الجيش بمئتي مليون جندي من الشرق بالإضافة إلى مئتي مليون أخرى من الغرب يقودها جميعاً أعداء المسيح ، وسوف يضرب المسيح الضربة الأولى بأسلحته الفتاكة فيبيد هذا الجيش ويُقتل ثلثا اليهود أي تسعة ملايين يهودي تقريباً ، ويصير الدم إلى ألجمة الخيل مسافة مئتي ميل من القدس .. ولا يعجب القارئ إذا وجد في وصفهم لهذه المحرقة النووية النيوتورونية خيلا وأعنة ! فالظاهر أنَّها حرب نووية على ظهور الجياد !

وتكون النهاية السعيدة للمسرحية الهرمجدونية هذه بإيمان الثلث الباقي من اليهود بالمسيح كمُخلص ، ورفع المسيح للمؤمنين به فوق السحاب ، ثم ينزل بهم ليعيشوا ألف

عام فى سعادة متصلة ، وهنا يُسدل الستار ، ولا يعجب القارئ مرة أخرى من هذا الدمار المرعب والخراب الكونى اللازم لقدوم المسيح الثانى ، وهو ما يوصف بدم بارد وعنصرية ، بل بفرحة ونشوة وتشفٍّ غريب ، لا يمكن لنا نحن المسلمين فهمه أو تبريره ، هل هذه هى إرادة الربّ ؟!

ولا شكّ أنّ انهيار المعسكر الشيوعى جعل المسرحية الهرمجدونية تفتقد لاعباً أساسياً ، ولكن أصحاب النبوءات والشعوذات لا يخجلون من عدم تحقيق نبوءاتهم السابقة ، وتغير المسرح السياسى الدولى بما يُخالف نظريتهم العجيبة ، بل إنّهم يدعون حكوماتهم لإنتاج مزيد من السلاح والقنابل النووية ، وإرسال المزيد منها إلى فلسطين حيث لا ينبغى أن يقف التسلح عند حد ، وحيث تعد دعوات الحد من التسليح ضد إرادة الربّ ! وضد نبوءاتهم للمستقبل ، ولا نفهم هل تخزين أمريكا للأسلحة مؤخراً فى فلسطين ورسو حاملة طائرات أمريكية فى ميناء حيفا هو جزء من النظام الدينى الأصولى ؟!

ومن الطريف أنّ الرئيس الأمريكى السابق ريجان كان يُؤمن بهذه النظرية الهرمجدونية ، فمعها ومع غيرها من التفسيرات اللفظية للنبوءات التوراتية – الإنجيلية تنسجم سياسته الداخلية والخارجية ! فعلى المستوى الداخلى لا يبدو هناك أى سبب للغضب أو الخوف حول مسألة الدّين الوطنى إذا كان العالم سيطوى كله قريباً ، فلماذا الاهتمام وإضاعة المال والوقت من أجلِ المحافظة على أشياء لمصلحة أجيال المستقبل ، طالما أنّ كل شىء سيذهب فى النهاية طعماً للنار ؟!

وبالتأكيد فإنّ توجهه بالنسبة للإنفاق العسكرى ، وبروده تجاه مقترحات نزع التسلح النووى ، وعدوانه على ليبيا عام ١٩٨٦ لاعتقاده بأنّها ستكون فى المعسكر الهرمجدونى المُعادى ، كُلُّ ذلك منسجم مع وجهة نظره التى يستمدها من سفر الرؤيا ، ومن هنا تتسارع خطى إنتاج وتكديس الأسلحة ، لأنّ هرمجدون التى تنبأ بها حزقيال لا يمكن أنْ تكون فى عالم منزوع السلاح ؛ فذلك يناقض مشيئة الله كما يَفْهم ريجان ودعاة الأصولية !!

٢ – لماذا الأصولية ؟؟

لا شك أنَّ هذه الصور المثيرة والمنتقاة ستُفجر لدينا الرغبة فى دراسة هذه الظاهرة التى أُطلقَ عليها « الأصولية » ، فما هى الأصولية بدايةً كمصطلح متداول كثيراً فى أيامنا هذه ؟ وما الفرق بينه وبين غيره من مصطلحات قريبة من مجاله مثل : السلفية – التطرف – الإرهاب ؟ ومَنْ هو الأصولى ؟ وهل هناك اختلاف بين الحركات الأصولية وحركات الإحياء الدينى ؟ وما أبعاد هذا الاختلاف ؟ مع التوضيح بنماذج .

ومصطلح « الأصولية » يبدو غامضاً جداً وغير محدد عند الكثيرين، وهذا أحدثَ كثيراً من اللبس فى فهمه واستعماله ، والذين يستخدمونه للآن لم يُقدِّموا لنا تفسيرهم له ، ولم يتجشموا بيان أبعاده، والذين عرضوا لما أسموه « الأصولية الإسلامية » خاصة فى بلادنا، تناولوها باعتبارها وباء العصر ، ومهدد النظام العالمى الجديد ، وجعلوها ضد الديمقراطية والإخاء البشرى والتنوع الفكرى والدينى ، وضد الفن والإبداع والتقدم والسلام وما حقق الإنسان من حضارة .. إلخ ، وهؤلاء لم يحددوا لنا كيف يمكن أنْ يقبلوا الظاهرة الإسلامية ، بل إنهم يتهربون من هذا التحديد ، لأن هدفهم ليس إبراز حقيقة ولكن إثارة ضجة حول الإسلام نفسه ؛ لأنه يتهدد وجودهم المعنوى ومصالحهم المحرمة .

لقد كان هذا التغبيش والتعمية مقصوداً من قوم خلطوا الحقَّ بالباطل لبعثرة الرؤية والقتل بالكلمات ليصعب التمييز بين أهل الإيمان والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الخير من جانب ، وأهل الباطل والخرافات والأساطير والدجل والشعوذة والعنف والإرهاب والجريمة من جانب آخر .

فترى هؤلاء يُطلقون على الصالح أصولياً ، وعلى المجاهد إرهابياً ، وعلى المؤمن رجعياً ، وعلى الناصح ظلامياً ، يُسمُّون الأشياء بغير أسمائها ويضعون الكلمات فى غير مواضعها، ويزيفون الحقائق ، فيصير فى أيديهم الحقُّ باطلاً ، والباطل حقّا .

وهم فى ذلك يُريدون لنا أن نفهم أنَّ :

– مقاومة الاحتلال فى فلسطين : إرهاب .

- مقاومة الاحتلال فى جنوب لبنان : تخريب .
- الدعوة للاستمساك بالإسلام : تطرف .
- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : تطفل وتدخل فى حرية الآخرين .
- الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله : لا تتفق مع روح العصر .
- الدعوة إلى الإباحية والمذاهب الفكرية الهدامة : حرية وتنويرية .

وهم من هذه الطريق أقرب إلى تذكيرنا بمنطق موشى ديان بعد أنْ قتل الأطفال والنساء والشيوخ العرب فى مذبحة دير ياسين المروعة ، حين قال : « لولا « نصر » دير ياسين لما كانت إسرائيل » ، وتذكيرنا بمنطق هؤلاء الذين قالوا بعد أنْ أُلغيتْ الانتخابات في الجزائر لمنع الإسلام من الوصول إلى سدة الحكم : « لقد ضحينا بالديمقراطية لننقذ الدولة » ، ونسى هؤلاء - لو أنّهم يعلمون - أنّ التضحية بالحرية هى تضحية بالدولة أيضاً .

ومن جانب آخر ، فمن المعلوم أنّ مصطلح الأصولية ظهر فى الإعلام الغربى أولاً ، ومنْ هناك انتشر ، وكان التركيز على الأصولية الإسلامية تبعاً لنشاط الحركة الإسلامية المتنامى عالمياً حتى صار مصطلح الأصولية الذى جرى تداوله كثيراً فى الوسائل الإعلامية الغربية والشرقية مرتبطاً فى الأذهان - عند الإطلاق - بما يسمونه الإسلام « الراديكالى » أى المتطرف .

ومع ذلك نجد أن الأصولية دُرستْ من قِبَل مفكرين وباحثين غربيين لأغراض سياسية ودبلوماسية وأكاديمية ، وهى قد صارت مجالاً لتخصص الكثير منهم ، وتطالعنا كلّ يوم دراسات وأبحاث ومقالات جديدة ، تطرح الظاهرة الإسلامية على بساط البحث ، ومع ذلك نتوقف نحن عن تناول هذه الظاهرة بما تستوجب من درس واجتهاد وتنظير ، وكأنّه كُتبَ علينا أنْ ندرك أنفسنا من خلال آراء الآخرين عنّا ، أو أنْ نرى أنفسنا فى عيونهم ، وهى - غالباً - ما تحمل رؤية خاصة ، ومنظوراً له خلفيته وأبعاده العميقة فى تلافيف المخ الغربى .

٢٠ الأصولية في مرآة الغرب

كان تفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك (يوم ٢٦ / ٢ / ١٩٩٣م) بمثابة مُفجِّر لعاصفة إعلامية عالمية تركز فيها الاشتباه والاتهام على المسلمين ، وكانت فرصة اهتبلتها وسائل الإعلام الغربية لتسلط أضواءها وتبرى أقلامها ، وتَشُنُّ حملة مركزة على « البعبع الدولى الجديد » ، ومن الغريب أنَّ افتراضات أخرى لم تطرح عند البحث عمَّن قاموا بالتفجير ، ولم توضع احتمالات كثيرة ممكنة – كالموساد مثلاً – تحت الاختبار ، ولم يخرج الأمر فى جملته عن سياق التحيز الغربى ضد كل ما هو عربى وإسلامى .

واستمر الدور الرهيب للإعلام الغـربى فى تخويف العالم من « الأصولية الإسلامية » و « الإرهاب الإسلامى » ، ولم تعرض الظاهرة باعتبارها حركة إحياء دينى ، أو حتى حركة موجهة ضد أفراد ، ولكن باعتبارها ظاهرة عدوانية مفزعة تتغذى بأحقاد تاريخية وآنية ، وتطمح إلى السيطرة على العالم بالقهر والتسلط ، وصولاً إلى تنميط الكون فى قوالب قياسية جامدة .

ولم يكن الغربى بعامة ، والأمريكى بخاصة ينقصه الخوف ، فهو فى الحقيقة لديه من عقد الخوف الدائم والوسواس المقلق اللازم ما يكفيه ، وما كان ذلك من الحكمة – وإنْ كان له أسبابه السياسية كما سنبين لاحقاً – وخصوصاً بعد المحاولات الكثيرة التى بُذلَتْ لعلاج هذه العقد والوساوس في النفسية الغربية ، وما ابتُدِعَ لذلك من شخصيات خيالية مثل رامبو الأمريكى الذى لا يقهر أمام الجيوش الجرارة متسلحاً بالتكنولوجيا الأمريكية التدميرية المتطورة ، وكذلك الرجل الآلى « ستيف أوستين » الذى لا يموت ، والمرأة الخارقة ، وأفلام رعاة البقر التى تصور قوة الأمريكى الذى لا يُخطئ إطلاقاً ولا يُقهر أبداً ، ومن جانب آخر حاولت الحكومات الغربية معالجة العقد والوساوس القهرية المذكورة بضرب الدول العربية وغير العربية فى العالم الثالث من حين لآخر لامتصاص طاقة الخوف والرعب لدى المواطن الأمريكى والغربى .

وتجلى الخُبث الإعلامى الغربى فى الربط بين «عنف الإسلاميين وتطرفهم وأصوليتهم» من جانب ، وبين أنظمة شمولية ديكتاتورية إرهابية تاريخية تحمل فى الذهنية الغربية صبغات القهر والتدمير وتمثل ذكريات الإرهاب الأسود كالفاشية والنازية ، ويتم هذا الربط عن طريق الصور التى تُبث والمقالات والكتب التى تنشر ليطّلع عليها ملايين البشر منذرة بالكارثة التى يمكن أن تحل بالعالم ، والدموية والتعصب والإكراه والاستبداد الأصولى القادم .

ويستثار المواطنون الغربيون حين يرون ذلك ، وحين يسمعون أنّ الدين يلعب دوراً واسعاً وكبيراً وخطيراً فى « الشرق الأوسط »[1] ، وأنّه يمثل عنصر الدفع السياسى والمحرك الاجتماعى لشعوب جاهلة متعصبة جامدة الفكر ومتحجرة عند حافة القرون الوسطى !

وأحيانا ما تُصور صحف الغرب الأصولية بأنها صراع بين الإسلام المتشدد والعلمانية الأوربية ، أما فى أكثر الأحيان فالصورة الغالبة هي أنّ هذا الصراع ليس فى حقيقته بين العالم الإسلامى والغرب العلمانى ، ولكن بين مَنْ هم على استعداد للقبول بوجهات النظر الأخرى فى مجتمع تعددى مفتوح ، وهؤلاء الذين ليس لديهم استعداد لتحمل الرأى الآخر أو قبوله ، والغرب صاحب الرسالة التحضيرية والتحررية للرجل الأبيض تجاه الشعوب المتخلفة ، مازال يرشح نفسه للوقوف خلف « العلمانيين » و « الليبراليين » فى العالم الإسلامى ، وهو بذلك قد وضع نفسه طرفاً فى الصراع الدائر بين الإسلام والعلمانية فى ديار الإسلام .

ولا يقف الدهاء الغربى الأسود عند هذا الجانب ، بل إنّه يهدف أيضاً إلى تخويف جماهير المسلمين وعوامهم ممّنْ يوصمون فى رسالته الإعلامية بالإرهابيين والأصوليين وتنقل هذه الرسالة حرفياً لتستهلك محلياً ، وإنْ عرفنا معنى الإرهاب عندهم ، واستمعنا طويلاً إلى الدندنة به ، فلم نسمع من قبل عن هذه « الأصولية » التى توضع فى سياق السّب وما يسوء ذكره ، لإقامة حواجز بين الجماهير وطليعتها الرائدة ، وقطع الطريق على تدفق المد الإسلامى عن طريق الدس والتدليس وبث سوء الظن بأهداف ونوايا « الخصوم

(١) « الشرق الأوسط » مصطلح إعلامى عنصرى غربى ، يبدو منه أنّ الغرب لم يعد يعترف بشىء اسمه « الوطن العربى » أو أنّه لا يراه ، وليس أبلغ فى ذلك من اسم برنامج يومى بإذاعة صوت أمريكا هو : « الشرق الأوسط والمغرب العربى وراء الأحداث » ، وكان يكفيهم - لو أرادوا - أن يقولوا : « الوطن العربى وراء الأحداث » .

الأصوليين » ، وهى كما نرى محاولة خبيثة لبذر العداوة بين القاعدة الجماهيرية الإسلامية والحركات الفاعلة فى العمل الإسلامى ، والهدف النهائى هو شغل أبناء الأمة بالصراع الداخلى والمواجهات المستديمة لاستنزاف قوة المسلمين وصرفهم عن عدوهم الخارجى المتربص .

ولم يكن من الطبيعى أنْ يترك اليهود الإسرائيليون هذه الأحداث تمر دون أنْ يستفيدوا ويغنموا ، لذا انبرى المسئولون هناك يحذرون من « الخطر الحقيقى » فى المنطقة ، فهو ـ كما يحلو لهم أنْ يلفتوا أنظار الحكام العرب إليه ـ لا يتمثل فى « إسرائيل » ، ولكن الخطر داخل بلادهم ، ويجب على ذلك أن يشكروا « إسرائيل » ، لا أنْ يدينوها ؛ لأنها نفت الأصوليين الفلسطينيين إلى جنوب لبنان ، ولأنها بأعمالها تدافع عن الجميع ضد عدو الجميع : أى الأصوليين !

وهذه الخدمة الدولية التى تطوعت بها « إسرائيل » تستحق شكر العالم ، لا هؤلاء العرب وحدهم ؛ لأنه ليس أعلم من « إسرائيل » بقدر هذه الخدمة ! أو كما عبَّر الرئيس الإسرائيلى حاييم هيرتزوج :

« إنَّ العالم يجهل الخطر الأكبر الذى يهدده ، وأعنى الأصولية الإسلامية . إنَّ هذه الأصولية تُهدد الأنظمة فى معظم دول الشرق الأوسط ، وإنَّ التطرف الأصولى الإسلامى أكثر خطورة من أسلحة التدمير الشامل ، إنَّه الصيغة التى تقود مباشرة إلى كارثة » .

يا سبحان الله ، وكأننا نستمع إلى علمانى عربى يُشنِّفُ أسماعنا بخطبة عصماء فى مضار الأصولية ! وعموماً فنحن نشكر للمدعو هيرتزوج غيرته وحرصه على إخوانه وبنى عمومته من يهود العرب .

ولكن أين الحقيقة ؟

دعنا نُورد ما قاله عميدكلية الصحافة بجامعة بوسطن بأمريكا «ديفيد أنابل» يقول[1] :

« لا شكَّ أنَّ بعض السياسيين الإسرائيليين والأمريكيين الموالين « لإسرائيل » يفضلون استخدام « الأصولية الإسلامية » كوسيلة لدعوة الأمريكيين لتأييد « إسرائيل » ، وهذه حيلة واضحة جداً ، ومن السهل على السياسيين وجماعات الضغط تحقيق أهداف خاصة فى ظل التعامل مع جمهور جاهل جداً » .

(١) مجلة منبر الشرق: المركز العربى الإسلامى للدراسات- ١٠ جمادى الأولى ١٤١٤هـ- ص ٨٣.

وفى مجال السياسة ، كلٌ شيء مرهون بالخداع والتمويه ، وكما يُستخدم تعبير « قميص عثمان » – رضى الله عنه – فى أدبياتنا ؛ فالغرب يرفع « عباءة الأصولية » ليُلبس على الناس أغراضه الحقيقية فى تشويه الإسلام وحربه ، واتهام كُلّ مسلم بأنَّه أصولى ، وبالتالى فهو مدان بلا جرم ، لأنَّه هو جرم الجرم نفسه ، وحامل وباء الأصولية المستطير ، وهذا التغرير الذى يتم تحت شعار « مكافحة الأصولية » تتنادى به قوى كثيرة فى الغرب وأذنابه فى الشرق بمقصد مدافعة الأصولية وملاحقة أهلها حتى تشكّل ما يمكن أن ندعوه حكومة عالمية ضد الإسلام تتستر بالخداع لتقوم بأعمال الملاحقة والمتابعة والتضييق والقبض والمحاكمة والحصار على الأفراد والجماعات والدول.

ويحلو للمسئولين الغربيين مع ذلك أنْ يُصرحوا بأنَّهم لا يحاربون الإسلام وليس بينهم وبينه قضية ، ولكنَّهم يُحاربون الأصولية والإرهاب ، وإنَّ الإسلام دين محترم عندهم ، وهذه الخدعة منقوضة من وجهين : فالغرب يُساند الأنظمة الديكتاتورية الشمولية التى تمارس العنف الرسمى والإرهاب المنظم ضد شعوبها ، وهو لا يكترث جدياً بقضية الدين، لأنَّه متحرر من سلطانه ، ولكنه يُعادى مَنْ يقف فى وجه مصالحه وأطماعه ، وهو أيضاً بكبريائه وعنصريته وعنجهيته يأبى أن يسمح لغيره بإظهار عزة أو امتلاك قوة واستقلال حقيقى ، فهو لا يقبل إلا الراكعين الساجدين له والمسبحين ، وهو يكره الإسلام كعدو تاريخى ، لذا يطلق الأصولية على مَنْ يرى فيه رغبة فى التحرر من سلطانه والخروج من إطار علاقات التبعية التقليدية للمنظومة الغربية من المسلمين .

فمن خلال هذه العنجهية والمصالح معاً يمكن تفسير سياسة الغرب عموماً : مصادمته مع كوريا الشمالية لأنها ترفض المظلة الأمريكية ، ومصادمته مع السودان لأنه بحكومته الإسلامية « الأصولية » يرفض التبعية لأمريكا ، ومصادمته لإيران لنفس السبب ، والاختلاف مع اليابان من أجل المصالح التجارية ، ومع الصين لاختلاف الأيديولوچية التى تجعل منها قوة تجارية مناوئة ، وحصار ليبيا لاستعصائها وتمردها ، وأخيراً – وليس آخراً – العراق لأنَّه تمرد فى لحظة ورفع رأسه وقال لا ، فى وقت كان يُخشى فيه انفراط عقد الراكعين « للإله » الأمريكى ، فى النظام العالمى الجديد .

وحتى يأخذ التشويه الذى أراده الغرب للإسلام مداه ، فإنّ كُلّ رصاصة ستُطلق لابد أن يُذاع أنَّ وراءها أصولياً ، وكل عبوة ناسفة أو قنبلة تنفجر فبفعل تنظيم أصولى ، وكل قتيل أو جريح يسقط دمه معلق بالأصولية ، ومع ذلك لا بد من اتباع أساليب دموية

رهيبة فى افتعال أحداث إجرامية ونسبتها إلى الخصم الأصولى المشبوه للتعجيل بتصفيته دون إثارة حفيظة المجتمع والرأى العام .

وهذا التناول السياسى المزدوج للظاهرة الإسلامية كان له انعكاسه فى اضطراب رؤية المفكرين والكُتّاب والمستشرقين فى الغرب أو تناقضها، ووقوف بعضهم بين اليقين والشك، ومعنا هنا عدد من هؤلاء الذين سنعرض اجتهاداتهم لنكتشف ما فيها من تناقض داخلى، وانتقال من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، ومن رؤية موضوعية عميقة أو نظرة سطحية متعجلة .

ونبدأ بسؤال : هل يُوجد خطر أصولى على الغرب ؟

يقول المستشرق الفرنسى مكسيم رودنسون رداً على هذا السؤال [(١)] :

« فى الوقت الحاضر ، هذه الحركات خطيرةٍ بالنسبة للمسلمين أنفسهم ، وربما وجب اجتماع شروط من الصعب جمعها لكى يصبح فى الإمكان الحديث عن خطرٍ أصولى على الغرب ، وربما إذا نشأ تحالف من دول أصولية عدة ، وحتى الآن لا يوجد غير إيران ، فإذا استولت الأصولية على دول أخرى كالجزائر مثلاً ، ونشأ تحالف ما موجّه ضد الغرب ، عندها يمكن الحديث عن تهديد ، ويبدو لى أنّ مِنْ الصعب قيام ذلك انطلاقاً من المعطيات الموجودة » .

وعن تعميم هذه الظاهرة لتصير دولية يقول رودنسون [(٢)] :

« المهاجرون (فى الغرب) ليسوا أصوليين ... وهناك مَنْ يُعمم هذه الظاهرة تعميماً مُستنْكَراً يدعو إلى الإدانة ، ففى كُلّ مرة يقع انفجار مُعين ينظر الناس بعين الشكّ إلى هذا الطرف بالذات ، ومن الواجب عدم إهمال الصعوبات التى تولدها قضايا خارجية شأن قضية سلمان رشدى ، أو عندما اُغتيل شهبور بختيار على أيدى أَشخاص جاءوا من إيران، ولاشكّ أنّ كُلّ ذلك يطرح صعوبات ويُعقد الأوضاع ، علماً بأنّ الأغبياء موجودون فى كل مكان ، وفى كل الأطراف » .

وينظر المستشرق الهولندى يوهانس يانسن للحركات الإسلامية بمنظار أسود ؛ فهو يرى أننا لو أعطينا الحركات « الإسلامية الأصولية » الحرية السياسية لَشغَلَها التقاتل بين

---

(١) مجلة الوسط : عاصفة التسعينات – العدد ٩٦ ، ٢٩ / ١١ / ١٩٩٣م – ص ١٥ .

(٢) المصدر السابق .

فصائلها واتجاهاتها، فهى - فيما يرى - لا تُكفر الآخرين فقط ، بل يكفر بعضها بعضاً، وتتنافس فيما بينها تنافساً حاداً جداً ، وموقف الحاكم العربى أو الإسلامى الآن صعب حقاً ، فهو إذا منح هذه الحركات المتطرفة ما تطالب به من حرية ، لا يعرف هل بوسعه التحكم فى عواقب هذه الخطوة وما يترتب عليها من مضاعفات ، إذا لم يمنحها تلك الحرية ، فهى ستحظى بتعاطف الجمهور »(١) .

وكان اهتمام المستشرق الهولندى رودلف بيترز بمستقبل الظاهرة الإسلامية ؛ فهو يتوقع أنَّ « الأصولية لا مستقبل لها ، فإذا وصل ممثلوها إلى السلطة ، كما هى الحال فى إيران ، فإنها ستجد نفسها بعد بضع سنوات مضطرة إلى التوقف عن العنف والتشدد ، والتحول إلى سياسات عقلانية ، والأصوليون يعرفون أنَّ الدولة التى يدعون إلى بنائها موجودة على الورق فقط ، وليس فى الإمكان تجسيدها فى الواقع من دون عنف شامل يتعارض مع مصلحة البشر » .

« ومع الأزمة الاقتصادية التى تضرب العالم كله ستجد التجربة الأصولية نفسها ملزمة بتحوير سياستها وإلاَّ واجهت عزلة دولية ومعضلات لا تملك حلولاً لها ، وخير مثال على ذلك هو تجربة أصوليتنا المسيحية التى لها حزبها السياسى الخاص الذى لا يحوز إلا ستة مقاعد فى البرلمان، وهو متورط الآن بسبب منعه النساء من الانتساب إلى الحزب « تطبيقاً لتعاليم الإنجيل » ، حسب ادِّعاء منظِّريه ، لكنّهم فى حاجة إلى هذه الأصوات فى الانتخابات المقبلة »(٢) .

أما المستشرق الفرنسى المعروف جاك بيرك فهو يُعطى رؤية موضوعية ومتوازنة للعوامل المتداخلة فى الظاهرة الإسلامية ، ويحاول أنْ يكتشف أوجه التميز والقصور معاً ، وهو يتخوف صراحة من أنْ يكون وراء الظاهرة الإسلامية استخدام سياسى للدين ، لا أنْ تكون تعبيراً عن نهضة دينية حقيقية ثقافية وروحية وعلمية، وأنَّ هذه النهضة إنْ وُجِدَتْ، فهى مفيدة جداً ، وربما ليس لمصلحة المسلمين وحدهم ، بل لمصلحة العالم بأسره ، أما استخدام الدين استخداماً سياسياً فيُمكن أنْ يعطى نتائج على المدى القريب والمتوسط ، لكنه لا يبنى شيئاً دائماً .

---

(١) مجلة الوسط - العدد ٩٩ ، ٢٠ / ١٢ / ١٩٩٣م - ص ٧٠ .

(٢) مجلة الوسط - العدد ٩٩ - ص ٦٩ .

والمطلوب من الإسلاميين – فيما يقوله بيرك – هو إحداث نهضة دينية تُودى إلى حركة شاملة (جامعة) فى المجتمع ، لأنهم حين ينطلقون من نهضة روحية فيمكن لهم بناء نهضة أخلاقية للمجتمع المسلم شيئاً فشيئاً ، وفى هذه الحال تتوافر الفرصة لبناء المجتمعات الإسلامية بناءً قابلاً لأن يدوم، ولتوضيح ذلك يعود بنا بيرك إلى مقطع رهيب– حسب تعبيره – لسيد قطب الذى قال شيئاً قريباً عندما تساءل عن معنى إقامة الشريعة من خلال تغيير بعض القوانين ، فى حين أنَّ القوانين هى تعبير عن المجتمعات، وليست المجتمعات نتائج قوانين معينة .

أما الإسلام نفسه فيرى بيرك أنّه يُظهر من خلال وجوده فى العالم طاقة وحيوية تدعو إلى الاحترام ، وأنّه دين حَىٌّ جداً ، وربما أكثر من الأديان الأخرى ، ومن هنا كانت الحاجة إلى نهضة إسلامية .

ويأسف بيرك لأنَّ الغرب اليوم يعتبر الإسلام عموماً ، والإسلام العربى خصوصاً مصدر تهديد مباشر موجه ضده ، ويقول (١) : « لقد قرأت أخيراً كلاماً عن تهديد موجه إلى أوربا من طرف سلسلة من البلدان الإسلامية ، والغرب يوجه احتياطه الاستراتيجى نحو الجنوب ، بعدما كان موجهاً لوقت طويل نحو الشرق ، هنا أقول إنَّ القوة الوحيدة التى يبدو أنّها تقاوم الهيمنة الجديدة ذات القطب الواحد ، أى الولايات المتحدة الأمريكية ، هى الإسلام وبعض الدول الغربية ، ولهذا يعتبر بعضهم أنَّ العرب والإسلام هم العدو الواجب قهره » .

ويتولى بيرك الرد على المسئولين السياسيين فى الغرب عامة ، وفى فرنسا خاصة بأنه من الجنون اعتبار أن العرب أعداؤهم ، ففى فرنسا وحدها يعيش ثلاثة ملايين مسلم بينهم مليون مواطن فرنسيٍ ، فالعرب ليسوا اليوم أقلية أجنبية فى فرنسا ، إنهم أقلية وطنية ، ويجب ملاحظة أنّه يوجد فى فرنسا مواطنون مسلمون أكثر من المواطنين البروتستانت أو اليهود ، فمن الخطأ إذن اعتبارهم مجرد مهاجرين ، إنهم أقلية فرنسية .

ويأخذ بيرك على هؤلاء المسئولين ما سمّاه فعلاً أحمق ، حين دعا الوزير الفرنسى (جاك لانغ) سلمان رشدى إلى باريس ، وهو الذى شتم نبى الإسلام ، أقول هذا على الرغم من أننى أعتبر إدانة الخمينى لسلمان رشدى تنتمى إلى عصر آخر ، ولكن على

---

(١) مجلة الوسط – العدد ٩٦ – ص ١٢ .

الرغم من ذلك ، فإنَّ الذين دعوا رشدى كانوا يَوَدُّون تسجيل موقف ، وهذه مبادرة حمقاء من وجهة نظر سياسية ، وتنم عن موقف غير مسئول »[(١)] .

وفى الختام يُبَشِّرنا بيرك باعتقاده بأن الإسلام سينبثق ذات يوم فى فرنسا كما كان هناك إسلام في الأندلس ، وكما يوجد إسلام فى مصر والمغرب .. إلخ ، فالإسلام يتجاوز اليوم بفعل الأمر الواقع ، دار الإسلام .. »[(٢)] .

ومن الواضح لنا هنا أنَّ المستشرقين الفرنسيين أقرب إلى الموضوعية من غيرهم وهم يُعالجون الظاهرة الإسلامية بعيداً عن متطلبات السياسة ، وسنرى بالإضافة إلى ما سبق ما يؤكد ذلك لدى المستشرق الفرنسى « شوفالييه » الذى يلفت الأنظار إلى ملاحظة ضرورية ، وهى « أنَّ الحركة الإسلامية والأصولية ليست بالضرورة حركة متطرفة ، وأنَّه يعرف مثقفين إسلاميين وأصوليين متمسكين بإيمانهم وقيمهم ، ولكنَّهم قادرون على الحوار ، ومستعدون للسجال مع الذين لا يوافقونهم الرأى ، سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين ، وهم ليسوا أبداً انفعاليين كما يظن بعضهم »[(٣)] .

وبعد هذا العرض الموجز لآراء عدد من المستشرقين ، ربما يُفْزِع الكثيرين ما فى آرائهم من تناقض بعيد واختلاف فى الرؤية والتصور ، مع أنَّ هؤلاء قوم تخصصوا فى دراسة اللغة العربية وآدابها ودرسوا الإسلام وعاشوا وقتاً فى العالم الإسلامى ، فهم بالضرورة ليسوا بعيدين عن الظاهرة الإسلامية المعاصرة ، وإذا كان قد طمأننا الأصوات الموضوعية منهم ، فما أشد تخوفنا مِنْ هؤلاء الذين ما يزالون يعالجون الأمور بروح صليبية عدائية استعدائية ، ويرسمون صورة سوداء مؤسية بعيدة عن روح الإسلام الذى حُرِموا من الاهتداء به أو الإحساس بحقائقه وطاقاته الروحية الكامنة !

وكما توقعنا فإنَّ الصورة المشوهة المغرضة السطحية المعروضة فى الإعلام كان لها تأثيرها القوى على بعض هؤلاء الأكاديميين المتخصصين فى الإسلام ولغته وأدبه ، فما بالنا بجمهور يهدهد الإعلام عواطفه وغرائزه الشريرة ؟! ، ثم هو غير قادر على إخضاع ما يتلقى لقواعد منهجية علمية لتِبْيان الخطأ من الصواب .

إنَّ الإسلام ما يزال يتعرض لمظلمة شنيعة فى الفكر الغربى ، وما يزال يُقدَّم فى جامعات الغرب مشوهاً وتشنُّ عليه الحملات ، ويُعْرَض عرضاً بعيداً عن الموضوعية والنزاهة

(١ - ٣) مجلة الوسط - العدد ٩٦ - ص ١٣ .

العلمية ، وفى كل يوم نرى دراسات تصوره بأنه دين البداوة والصحارى فلا يصلح لحياة مدنية فضلاً عن قيام حضارة انبثاقاً منه، ويرمى بأنه دين العنف والقسوة والتعطش للدماء، وأنه نشر وقام على السيف والإكراه ، وأنه سبب ما بالعرب والمسلمين من « بربرية » وتخلف بما يديه من روح جامدة متعصبة منغلقة ، وكبت حرية الإنسان وقتل لمواهبه ونفى للتنوع وإنكار للآخرين ، وإرهاب فى مواجهتهم ... إلخ .

والغرض الخبيث الذى نراه يدفع إلى ذلك هو الرغبة في جعل المسلمين أو بعضهم على الأقل ينظرون إلى دينهم أو إلى جزء منه باحتقار ، وأن يدفعوا دفعاً إلى إعلان التبرؤ ، ثم التحلل من الدين شيئاً فشيئاً تحت اسم التسامح والبعد عن التعصب ، وهذه سياسة لئيمة اتبعها المستعمرون دائماً لإرهاب المستعمرين فكرياً وصرفهم عن الاستمساك بخصوصياتهم الروحية والثقافية، فلا يكون أمامهم إلا التشبه بالسيد الأوربى أو الأمريكى.. ونسوق هنا نصاً للدكتور محمد حسين عن السياسة التى اتبعها الإنجليز إبان حكمهم لمصر ، فى هذا الجانب ، يقول (١) :

« عمل الإنجليز على إخماد جذوة العاطفة الدينية الإسلامية ، حين أيقنوا أنها مصدر خطر محقق ، وأنها المعين الذى لا ينضب ، الفيّاض ببغضهم والدعوة إلى قتالهم ، وظلوا يتهمون المصريين بالتعصب الدينى ، ويكررون هذه التهمة فى كل مناسبة وفى غير مناسبة حتى توهم المصريون أنّ التعلق بالدين عيب ذميم يجب أن يبرءوا منه ، وظلت صحفهم وكتّابهم يتحدثون عن التسامح وعن الإنسانية ... » .

وهذه المعالجة الغربية للإسلام تشهد انتقاداً – لحسن الحظ – من مستشرقين كثيرين كما رأينا ، ومن أكاديميين ومفكرين وكتّاب ، وسنرى ذلك على امتداد هذا الكتاب الذى نحرص فيه على صيغة حوارية بين أطراف متعارضة ومختلفة ، وما سنورده فى هذا الموضع – انتصاراً لمظلمة الإسلام – وهو شهادة لأحد كبار الأكاديميين فى الغرب وهو « اسبوسيتو » (٢) الذى يرى أنّ الإسلام وحركة التجديد الإسلامى يتم تبسيطهما بسهولة إلى قوالب بسيطة وفجة تصور الإسلام بأنّه ضد الغرب ، وأنّ هناك صراعاً يجرى بين الإسلام والتقدم ، أو ما يسمونه أحياناً الغضبة الإسلامية ، والتطرف ، والتشدد ، والإرهاب

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر – طبعة مكتبة الآداب ١٩٨٠ – الجزء الأول – ص ٩٥ .
(٢) مجلة منبر الشرق – العدد ١٠ – ص ٨٠ – ٨٢ .

من جانب والتقدم من جانب آخر ، ويعترض « اسبوسيتو » على هذه المعالجة التى تخفى - فى رأيه - التنوع والثراء الكامنين فى هذا الدين ، وتظهره وكأنَّ له وجهاً واحداً ، أو كأنَّه صُبَّ فى قالب جامد ، ويتم ذلك عن طريق تبنّى الأساليب الانتقائية المتحيزة التى لا تختار من الإسلام أو من حياة المسلمين إلا ما يتفق مع أفكار مسبقة ، كثير منها موروث ، ومِن ثَمَّ تكثر فى الغرب الصور النمطية عن الإسلام ، كما تكثر المحاولات التى توحد بينه وبين المظاهر فى بلد معين » .

وهذه التحليلات المنتقاة والمفترضة - كما يقول اسبوسيتو - تُضيف إلى جهلنا أكثر مما تضيف إلى توسيع مداركنا ، وتضيّق مفاهيمنا أكثر من توسيع قاعدة فهمنا للحقائق وتزيد بالتالى من تعميق المشكلة بدلاً من أنْ تفتح الطريق أمام حلول جديدة .

٤ – الإسلام فى معترك الأفكار الأصولية

بحث عن الجذور

كان المؤرخ الإنجليزى « توينبى » يقول [١] :

« إنَّ قضية الشرق هى قبل كل شيء قضية الغرب ، فعندما نذكر موجة التعصب الحالية فى بعض البلدان العربية الإسلامية ، يجدر ألاَّ يغيب عن ناظرنا مسئولية الغرب خلال فترة الاستعمار والانتداب كلها ، وكذلك فى يومنا هذا أيضاً عن طريق مشاريع حواضر البلدان الأصلية القديمة والأمم المتعددة ، فقد أصبحت وما تزال مراكز اتخاذ القرار والسلطة بمعظمها فى الخارج . إنَّ رد الفعل الدفاعى الأوَّل هو الانفصال عن الخارج والانطواء على النفس ، والسبب الثانى الأكثر وضوحاً خلال السنوات العشر الأخيرة هو إفلاس التقدم المزيف على الطريقة الغربية العاجزة ، ليس فقط عن إعطاء معنى وغاية للحياة ، وإنما عن إنقاص الفروق فى العالم ، وضمن كل بلد على حدة ، ومن هنا يمكننا استيعاب رد الفعل فى رفض هذا الأمل باكتشاف طريق إسلامى خاص لا يمتُّ بصلة إلى فوضى الرأسمالية الفارغة من كل روح ، ولا الشيوعية السوفيتية ، لقد فشلت حلول الغرب الفارغة ، مما جعل هذا الفشل دليلاً قاطعاً على كل أشكال التعصب ونموها ... » .

من هذا الاقتباس نرى كيف أراد « توينبى » أنْ يضع الظاهرة الإسلامية فى سياقها العام فى إطار العلاقات الجدلية بين الشرق والغرب ، فهو يرى أنَّ الصعود الإسلامى كان رد فعل لمسلك الغرب الاستعمارى سواء فى فترة الاستعمار العسكرى المباشر ، أو فى المرحلة الحالية غير المباشرة التى سيطر فيها نفوذ الإمبريالية على الثقافة والاقتصاد وبالتالى الإرادة السياسية ، كما أنَّ الإفلاس الثقافى والروحى للمشروع الغربى الذى تكشَّف بآخرة

---

(١) عن : رجاء جارودى : الإسلام دين المستقبل – ص ١٨٦ .

وانقشع معه غشاوة الانبهار عن الشعوب المستعبدة جعل هذه الشعوب تبحث عن طريقها الخاص بالرجوع إلى جذورها الكامنة التى خُدعت عنها لتعيد إحياءها والتعصب لها .

وفى الدائرة نفسها يطرح جارودى السؤال التالى [١] :

ما هو نصيب الغرب المستعمر من المسئولية فى بعض تراجعات الإسلام نحو التعصب ؟

ويشرع فى الإجابة على هذا السؤال بقوله :

« إنَّ دفاع الشعب المسلم عن إسلامه دفاعاً باسلاً شجاعاً ، تحت نير الاستعمار كان الطريقة الوحيدة الممكنة للمحافظة على هويته ؛ فكل أبعاد حياته الأخرى من الاقتصاد حتى السياسة ومن اللغة حتى الثقافة كانت مقولة حسب متطلبات المحتل ، وكان الإسلام يمتلك طهارة البعد الواحد للحياة الذى لا يمكن أنْ يُعاش تحت السيطرة الاستعمارية » .

وفى مكان آخر يحمل جارودى [٢] مسئولية صعود الأصوليات المتعصبة من كل الأنواع إلى الإحباطات والكبت ونفى الحاجات الفعلية ، وسحق الهوية الشخصية للأفراد، والهوية الثقافية للشعوب التى يمارسها الغرب فى حقِّ الشعوب فى العالم الثالث .

ويضع جارودى لما أسماه «الأصولية الإسلامية» عدة عوامل أدت إلى ظهورها، وهى:

١ – الانغلاق على الذات حماية لها من القمع والاضطهاد ، وطمس الهوية ، وتبديل الدين ، والسعى نحو الدمج والاستيعاب ، هذا ما كان فى مرحلة الاستعمار العسكرى المباشر ، مثلما كان من الاستعمار الفرنسى فى الجزائر سنة ١٨٣٠ .

٢ – انحلال وسقوط النموذج الغربى أخلاقياً حيث أدت التجربة الغربية إلى ضمور البعد المتعالى إلى الله فى الإنسان ، وحصر الإنسان وجعله ذا بعد واحد فقط : منتج ومستهلك ، تحركه المصلحة والنفع المباشر وحدهما ، فحرية السوق تتضمن تنافساً وحشياً رهيباً فى ظل حياة لم يعد لها معنى مطلق ، ولا غاية قصوى .

---

(١) جارودى : الإسلام دين المستقبل – ص ٧٠ .

(٢) مجلة مستقبل العالم الإسلامى – خريف ١٩٩٢م– مركز دراسات العالم الإسلامى – مالطا– ص ٢٧٧ .

٣ – الدعم النفطى المتواصل لها .

٤ – الحضور الدائم والمواجهة المستمرة مع واحدة من أعتى الأصوليات على مستوى العالم ، ألا وهى الأصولية الإسرائيلية القائمة على العنصرية والتعصب ، وهو حضور يمثل الغرب على هذا النحو القريب والمهين فى صميم العالم الإسلامى.

ويسير فى الخط نفسه كاتب فرنسى آخر هو « سيرج لاتوش »[1] فى بحثه عن محرك حركات الهوية هذه كما دعاها – وهو يعد « الأصولية الإسلامية » مأخوذة ككل مثالها الراهن الأكثر نموذجية ، والأكثر تعقيداً ، ذلك أنّ الصعود المذهل لهذا التيار لا ينبغى أنْ يخفى ظواهر أخرى من الطراز نفسه ، مثل التطرف البرهمانى فى الهند أو مختلف مطالب الهوية مثل صعود النزعة الإقليمية (حتى فى البلدان العجوز فى أوربا) ، وكافة هذه الحركات أحدثها إخفاق التحديث ، وتنتج عن تشويهات ناشئة عن هذا الإخفاق ، ذلك أنّ الجماهير العربية التى يؤثر فيها الإخوان المسلمون والحركات الشيعية فى الوقت الراهن كانت ناصرية أو بعثية منذ عشرين سنة ، أى أنّها عقدت آمالها آنذاك على التحديث ، وآمنت بتوليف ممكن بين التراث العربى والحداثة ، ويسمح تعصبها الراهن بتقدير مدى فداحة خيبة أملها ، على أنّ هذا التيار يحمل فى ثناياه – كما يعتقد لاتوش – العديد من الالتباسات ، فهو يتغذى على ميراث دينى وثقافى عظيم ، لم يكن بمستطاعه أنْ يظهر بدونه فى يوم من الأيام ، وهو يجد فى الحنين إلى ماضٍ تاريخى مجيد و « أسطورى » .. جزئياً .. قوة مقاومة وانتشار ، وهو يشكل محاولة « ملتبسة » للتوفيق بين التصنيع والتقنية من جانب ، والقرآن من جانب آخر ، وهذا التحويل – من رأيه – يمثل مشكلة لأنّه تحديث بلا حداثة .

وهكذا نرى لاتوش بدوره يجد أنّ الرجوع إلى الإسلام يحمل معنى انهزام القيم والأفكار الغربية ، ولكنه يدين محاولة الإحياء والعودة إلى الهوية هذه ، لأنّها تجمع الماضى والحاضر فى آن ، ولا تريد أنْ تتنازل عن شىء من هذا الماضى، أى منابع الدين، فى وقت تحرص فيه على اقتباس علوم العصر وتقنياته المتطورة ، وسنرى أنّ هذا الفهم الملتبس للعلاقة بين الدين والتحديث ، أو بين القرآن والتصنيع ، وبين السنّة والعصرية ، وبين الفقه والتقنية ، شائع فى أفكار الغربيين ؛ لأنّهم يظنون – خطأ – أن الإسلام كان

---

(١) تغريب العالم : بحث حول دلالة ومغزى وحدود تنميط العالم – ط ١ ، دار العالم الثالث– القاهرة، ١٤١٢هـ – ص ١٠٧ .

موجوداً فقط فى العصور الوسطى ، وأن العودة إليه تعنى الاختيار من متناقضات ، وهم يسوونه بالنصرانية الكهنوتية المحدودة التى حاربت العقل والفكر والعلم والحرية ، حتى لم يمكن الانتقال إلى النهضة و « التنوير » إلا بالتخلى عنها أو الخروج منها .

وسنرى كذلك أنهم يجمعون عند التعرض للظاهرة الإسلامية - فيما سبق وسيلحق من آراء - أنها لم تكن إلا نتيجة لفشل الآخرين ، وهذا الخطأ الشائع الآخر بين مفكرى الغرب لم يتولّ كبره إلا حاقد كاره للإسلام ، أو مخدوع لأنّه بذلك ينفى الحيوية الكامنة فى الظاهرة الإسلامية نفسها ، فهى فى اعتقادنا لم تكن مجرد رد فعل ، ولم يكن حضورها بعد أنْ انتهى الآخرون ، ولأنّه لم يعد هناك بديل ، إنّ هذا غمط ممّنْ لا يفهمون أو لا يريدون الفهم لحقيقة عودة الإسلام ، فما كان انهزام الأفكار الأخرى ، وتراجعها ، وفشل الأيديولوجيات الأساسية التى شهدها العالم المعاصر إلا نتيجة لمنازلة وصراع عنيف ممتد بينها وبين الإسلام ، كُتب فيها للإسلام الثبات والنصر ، فهو كان حاضراً دائماً يقاتل فى الميدان ولم يستدعَ من الماضى ، لأنّه يملك الحاضر كما يملك الماضى ، ولو قُدر له غير النصر فى هذا الصراع لما كان له اليوم هذا الظهور فى وقت، يتراجع فيه الآخرون إلى ما وراء الستار ويتوارون برغم كل المحاولات الهائلة والجبّارة التى تبْذَل للترميم والتجديد والإحياء .

ومن هنا نرى أنّ هذا التوصيف الشائع يقلب السبب إلى نتيجة ، والمغبون مِنْ هذا التوصيف هو الإسلام ؛ لأنه بذلك ينكر فعله وجهاده وصموده وكفاحه ، فهو كان مستهدفاً من قِبَل الأفكار جميعاً ، فلو استطاعتْ لَمَحَتْه من سجل الوجود ، أو لحرّفته فخرجت به عن حقيقته وفرغته من مضمونه ، أو لزيفته فجعلت أهله ينبذونه نبذ النواة .

وليت الأمر اقتصر على صراع الأفكار ، ولم تُشنّ الحرب العسكرية المباشرة على الإسلام لسحق كل قوة مادية يستند إليها هذا الدين ولتشطير مناطق نفوذه ، ولامتصاص الدماء من عروقه ، وسحب الهواء من رئتيه ليموت غير مأسوف عليه .

هل نُريد مزيداً من العرض لهذه النظرية السقيمة التى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، ولفظها المدح ومعناها القدح ؟ معنا - من ذلك - ما كتبه الكاتب الفرنسى « جيل كيبل » فى كتابه عن حركات الإحياء الدينى والأصولية فى الأديان الثلاثة : اليهودية والمسيحية والإسلام ، إذ يرى فى نجاحات الإسلاميين أصرح جزاء على الفشل السياسى والاقتصادى والاجتماعى للنُّخب الحاكمة منذ الاستقلال عند منتصف هذا القرن

الميلادى ، وأن تجريم هذه النُّخَب باسم النصوص الإسلامية المقدسة هو أولاً مقاضاة للطابع الخارجى المستورد من الغرب الذى يطبع الحداثة التى أرادت بناءها ، إنّه نقد جذرى لايستبقى شيئاً من النظام السياسى الحالى الشاذ بجوهره وذاتيته [١] .

ولدينا كذلك ما أدلى به مستشار « رابين » لشئون العالم العربى والحركات الإسلامية « إيمانويل سيفان » من ملاحظة أنّ « الحركات الأصولية » بنتْ نجاحها على فشل الأيديولوجيات الأخرى : الأيديولوجية الاشتراكية ، والأيديولوجية العربية ، والأيديولوجية الرأسمالية التى أفسدتها النظريات الاقتصادية النقدية ، وفى رأيه أنّ « الحركات الأصولية » جاءت بعد تجربة الحلم اليسارى ، وفشلت هذه التجربة ، ويعطى على ذلك مثلاً ما حدث فى قطاع غزة الذى هو اليوم معقل الحركات الإسلامية ، وكان منذ سنوات المختبر الأهم بعد بيروت للأفكار الاشتراكية اليسارية [٢] .

وكما رأينا الخلاف بين المستشرقين فى فهم الظاهرة الإسلامية ، فسنرى أيضاً كيف يتسع الخلاف ليشمل الأسباب التى أدت إلى ظهورها ، وقد اهتمت مجلة الوسط بعمل ملف يشمل استطلاع آراء عدد كبير منهم تحت عنوان : « عاصفة التسعينات - ثلاثون مستشرقاً يشرّحون الأصولية » [٣] ، وكانت الفرضية الأساسية التى انطلقت منها المجلة هى أنّ أبرز سمات « الأصولية الإسلامية » تُعد : « محاولة التخلص العنفى من الغرب ، وتعميق الطلاق مع النظام الدولى الجديد وقيمه » ، وأنّ هذه التوجيهات « أثارت المخاوف من أنْ تشهد نهايات القرن الحالى ظهور نوع من خط التماس بين الغرب والعالم الإسلامى » .

وللوقوف على رؤية المستشرقين « للأصولية الإسلامية » طرحت المجلة على نحو ثلاثين من أبرز المستشرقين من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا والولايات المتحدة وهولندا وألمانيا وروسيا وأسبانيا ، الأسئلة الثلاثة الآتية :

١ - كيف تُفَسر الظاهرة الأصولية ، وما يحدث فى العالم العربى اليوم ؟

---

(١) جيل كيبل : يوم الله - الحركات الأصولية المعاصرة فى الديانات الثلاث - ط ١ - دار قرطبة- قبرص ، ١٤١٢هـ - ص ٢٠٩ .

(٢) مجلة الوسط - العدد ٦١ ، ٢٩ / ٣ / ١٩٩٣ - ص ١٨ .

(٣) مجلة الوسط - العدد ٩٦ ، ٢٩ / ١١ / ١٩٩٣ . والعدد ٩٩ ، ٢٠ / ١٢ / ١٩٩٣ .

٢ – ما هو رأيك فى انعكاس هذه الظاهرة على العلاقة بالغرب ، وعلى المهاجرين العرب والمسلمين ؟

٣ – ما الذى يميز الحركات الأصولية بين بلد عربى وآخر ؟ وكيف ترون مستقبل تلك الحركات عموماً ؟

وقد أظهرت هذه الاستطلاعات عن التوجهات الآتية لدى معظم هؤلاء المستشرقين :

– الأصولية لا مستقبل لها على الساحة العالمية لأنها تفتقر إلى القدرة على الإبداع والابتكار ، ولم تطرح حلولاً مضمونة أو بدائل فعلية ، وليس بها ثمرة لمجتمعات مثقفة ومنعتقة ، كما أنّها لا تستند إلى أسس فكرية حقيقية .

– الأصولية ترفض الجانب الإيجابى للديمقراطية وحقوق الإنسان والليبرالية الاجتماعية على أساس أنها مستوردة ومستعارة من الغرب ، وهى تركز على الصراع بدلاً من التقارب ، كما تفتقر إلى التسامح ، والنتيجة هى « خلق أنظمة شمولية وفاشية سوداء » .

– الأصولية تطرف فى الهروب إلى الماضى تحت ضغط الحاضر الغامض والمستقبل المقلق ، لذا يتم الربط بينها وبين التخلف فى التعليم والتثقيف والتربية ، وكذلك بين الفقر والبطالة والعوز فى ظل غياب عدالة فى توزيع الثروة ، ومع انفجار سكانى يؤثر على توزيع السكان واحتياجاتهم وتفشى أنماط من الاستهلاك الصناعى الأمريكى أدت إلى انتشار الفساد ، مما دفع الإسلاميين والأصوليين إلى طرح أنفسهم بوصفهم المرجع الأخلاقى غير الملوث بالفساد .

– الأصولية رد فعل على العدوان والظلم الخارجيين والداخليين أيضاً ، وهى تظهر عند افتقاد الوسائل الديمقراطية التى تتيح الحريات الأساسية لكافة المواطنين لممارسة حقوقهم السياسية .

– كما تظهر الأصولية نتيجة التحديث السريع المتناقض مع المعتقدات والتراث ، وما أدى إليه الاحتكاك بين الشرق والغرب من طغيان أخلاقيات وقيم وماديات الغرب على حياة الشرق المسلم ، كما أنّ الاصطدام المتواصل بين الشرق والغرب أدى بنا إلى انقطاع الحوار الثقافى وانعدام الثقة بين الجانبين ، وهذا فجّر رغبة فى العودة إلى الأصول والينابيع .

وللحقيقة فليس كل المستشرقين يرى فى الظاهرة الإسلامية تطرفاً وأصولية وهروباً ورد فعل ومجرد رفض ، فقد مرّ بنا آراء جاك بيرك ومكسيم رودنسون وشوفالييه عن حيوية الإسلام وتفتحه وحاجة العالم إلى نهضته الروحية لا المسلمين وحدهم ، والواقع أن هؤلاء المستشرقين الفرنسيين كانوا أقرب إلى الحركة الإسلامية وأقدر على فهم الأسباب الكامنة فى صحوة قوى الإسلام ، وهى كما عبّر شوفالييه : متصلة بالتحولات العالمية التى طرحت سؤالاً على العرب والمسلمين هو : كيف يُمكن للإسلام - كدين أو كحضارة - أن يتحمل مسئولياته فى العالم الحديث ؟ وكيف يُمكن أن يتحول المسلمون إلى فريق خلاق فى العالم الحديث ، مع الاحتفاظ بشخصيتهم وهويتهم [١] ؟

وهذه الرؤية الجذرية تجعلنا نتسق مع واقع صعود الأصوليات فى العالم كله ، كما سنرى ، فلو صدقت الأسباب والتوصيفات السابقة على الظاهرة الإسلامية فبماذا نُفسر خروج الأصوليات الخطرة المسيحية واليهودية ؟ وهي الأخطر حقيقة والأشد فعالية ، والأعظم انتشاراً ونفوذاً وتأثيراً بما تتحكم فيه من دول تحركها طبقاً للرؤية الأصولية .

ومن المؤسى أنّ كثيراً من المثقفين فى بلاد الإسلام الذين يقفون من الصحوة الإسلامية موقفاً عدائياً أو غير متعاطف ، يلتفتون إلى عدد من العوامل الظاهرية والعامة دون أنْ ينفذوا إلى الجوهر والجذور العميقة لمعنى وقيمة الإسلام فى حياة الجماهير المسلمة ، فلم يقف الإحياء الإسلامى على البيئات الفقيرة أو غير المتعلمة أو البعيدة عن تيارات العصر وأفكاره ، فالحركة الإسلامية تشمل اليوم كل فئات المجتمع : مهندسين وأطباء وتجاريين ورجال أعمال وعمالاً وفلاحين وكتّاباً وفنانين وأدباء وصحافيين وحرفيين وطلاباً وعلماء ومتمولين ... إلخ . مما يجعل التركيز على عامل أو أكثر من هذه العوامل الظاهرية الجاهزة لتفسير كل ظاهرة يفقد مصدقيته ويجد على الجانب الآخر ما ينفيه فالدين ليس مجرد ظاهرة، ولكنه إيمان، والإيمان لا يخضع للمنطق الدنيوى ، ولا لقواعد البحث العلمى ، ولا لأساليب الاستقراء والاستنباط والاستبطان ، لأن للإيمان منطقه الخاص .

وسنورد أنموذجاً للتفسيرات التى تصلح لكل شيء إلا الظاهرة الدينية ، لأنها كما سنرى تفسيرات عامة بحيث لم تختص بظرف معين للظاهرة أو تهتم بمعنى القيمة الدينية

---

(١) مجلة الوسط - العدد ٩٦ - ص ١٥ .

فى حياة الإنسان المسلم ، هذه القيمة التى تعلو على الدنيا وما فيها ، وتتسامى عن المادة والحاجات الآنيّة ، وتجاهد للترقى الروحى والوجدانى ..

هل يصلح أن نرى وراءها العوامل الآتية مجردة هكذا [١] :

١ – العامل الاقتصادى والاجتماعى ، وجوهره تفاقم الأزمة الاقتصادية ومشكلة البطالة التى يعتقد الكثيرون أنها تدفع قطاعات من الشباب العاطل عن العمل إلى التطرف .

٢ – التفسخ الاجتماعى ، وهو مزيج من التأثيرات الاجتماعية للأزمة الاقتصادية والنتائج المترتبة على مواقف سلطة الدولة وشيوع الفساد ، وافتقاد قطاعات من المواطنين للشعور بالأمن والثقة بالمستقبل .

٣ – منهج الدولة فى مواجهة التطرف .

٤ – غياب مشروع قومى يُتيح تعبئة طاقات الشباب وتوجيهها نحو البناء لا الهدم .

٥ – مسألة الديمقراطية .

٦ – السياسة الإعلامية المصرية وأخطاؤها .

٧ – العوامل الإقليمية التى تشمل تأثير إيران وانعكاسات الوضع الجزائرى على مصر ، كما تشمل الدعم المادى الذى تقدمه دول أو حركات أصولية للمتطرفين فى مصر .

٨ – العوامل الدولية .

ومع هذا الفيض من العوامل التى يبدو ألاّ مزيد عليها ، والتى وردت فى التحضير لندوة عن أسباب التطرف فى مصر ، وهى تمثِّل – كما قلنا – رؤية مسطحة لأناس لا ينتمون للإسلام ، إلا أنَّ الأمانة تقتضينا ألاَ نُعمِّم بدورنا، إذ هناك مِنْ هؤلاء مَنْ أثبت قدرة على الفهم لجذور المشكل مثل لطفى الخولى الذى يُعطِى التحلِيل الآتى لأسباب صعود « الأصولية » [٢] :

---

(١) مجلة الوسط – العدد ٦٦ ، ٣/ ٥/ ١٩٩٣ – ص٢٣ .

(٢) مجلة الوسط – العدد ٦٣ ، ١٢ / ٤ / ١٩٩٣ – ص ٢٦ ، ٢٧ . وانظر : لطفى الخولى : « حرب الأصوليات ».

« مع قيام ما بات يُعْرَف - بعد انتصار حركات التحرر فى المنطقة - باسم النظم الوطنية التقدمية ، راحت هذه النظم تهمل - وأحياناً تستبعد عملياً - الإسلام كعنصر أساسى من المكونات الروحية والحضارية للأمة العربية ببلدانها المتعددة ، وحدثت صدامات مع جماعة الإخوان المسلمين ... » .

وهو يرى أنَّ الحركات الإسلامية كانت وقوفاً فى وجه الاحتلال الإسرائيلى أيضاً والاستغلال الغربى وما نسميه « قوى الاستكبار العالمى » التى تستنزف ثروات المسلمين وتقيد حقوقهم وحرياتهم ، كما أنَّ الصراع بين الإسلام وخصومه جعل الحريق يزداد التهاباً مع تفجر الثورة الإسلامية الخمينية فى إيران ، وحركة الجهاد ضد الاحتلال السوفياتى لأفغانستان ، وساعد على هذا الالتهاب استمرار انحياز الولايات المتحدة لـ « إسرائيل » ضد العرب ، فضلاً عن غياب الديمقراطية ، وفاعلية القوى السياسية المختلفة فى عدد من الدول ، والعصف بحقوق الإنسان ، وتفاقم الأزمات الاقتصادية والاجتماعية ، وشيوع الفقر ، وانكسار المشروع القومى التحررى التنموى بصياغاته المختلفة .

ويُركز لطفى الخولى على سبب آخر وهو التخلف ، لأنَّه بقدر ما يتقدم الغرب و « إسرائيل » تتخلف وتنحط أحوال العرب والمسلمين ، فإنَّ الحركات الإسلامية ذات النهج العنيف الطوباوى - فى تقديره - أعلنت - على رغم محدوديتها - الجهاد ضد كل ما تعتبره - وفقاً لتأويلاتها الخاصة - عدواً للإسلام فى الداخل والخارج .

والجديد فى هذا التحليل هو أنَّ صاحبه يُمثل تياراً فكرياً معروفاً ، وربما هو هنا يطرح فكراً مختلفاً للتيار الذى يمثله ، وله هو نفسه ، فالإسلام هنا لاعب أساسى فى الصراع الذى دار على أرض الإسلام والمنطقة العربية خصوصاً ، وله دوره الوطنى والجهادى والثورى والتحضيرى ، فى وقت كانت تبغى « النظم الوطنية التقدمية » إلغاءه كُلياً أو جزئياً .

٥ - الأصولية : كيف يجب أنْ تُفْهَم ؟

يقدم الإمام ابن قيم الجوزية الصورة اليهودية الآتية [(١)] :

« ما من جماعة منهم (أى اليهود) فى بلدة إلا إذا قَدِمَ عليهم رجل من أهل دينهم من بلاد بعيدة يُظهر لهم الخشونة فى دينه والمبالغة فى الاحتياط ، فإذا كان من فقهائهم شرع فى إنكار أشياء عليهم ليوهمهم قلة دينهم وعلمهم ، وكلّما شدد عليهم قالوا : « هذا هو العالم ! » ، فأعلمهم أعظمهم تشديداً عليهم ؛ فتراه أول ما ينزل عليهم لا من أطعمتهم وذبائحهم يأكل ، ويتأمل سكين الذبّاح ويشرع فى الإنكار عليه ببعض أمره ، ويقول : لا آكل إلا من ذبيحة يدى ... فلا يزال ينكر عليهم الحلال ، ويشدد عليهم الآصار والأغلال ، ويفتح لهم أبواب المكر والاحتيال ، وكلّما فعل هذا قالوا : هذا هو العالم الربّانىّ والحاخيم الفاضل ... » .

وهناك سمة أصولية أخرى تظهر بجلاء لدى اليهود خاصة ، وإنْ كانت عامة لدى كل جماعة أصولية ، وهى اعتبار الأمم دونهم وثنية ومدنسة ، على حين يعدون أنفسهم الأمة الوحيدة المقدسة ، واليهودى بخاصة بنظر نفسه إنساناً مقدساً، مهما اقترف من آثام؛ لأنه من شعب الله مهما ظلم وبغى !

وفى بداية إنشاء الكيان الصهيونى الغاصب فى فلسطين المحزونة ، جرى جدل حول مَنْ هو اليهودى ؟ وصدر قانون عنصرى ليهودية الدولة الأصولية التى ادعت العلمانية ، وهو يحدد اليهودى بمَنْ كانت أمه يهودية لا أبوه فقط ، أو مَنْ اعتنق اليهودية بشهادة حاخام إسرائيلى معتبر ، ومع ذلك فهناك جماعة أشد فى أصوليتها تُدعى « اللوبافيتش »

---

(١) هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى - مكتبة القرآن - ١٤١٠هـ - ص ٧٠ ، ومثلها فى (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، ٢ / ٣٣٣) . وابن القيم نقلها بدوره عن المسلم الذى كان حبراً يهودياً المعروف بابن السموءل فى كتابه « إفحام اليهود » .

رفضت هذا القانون ، ودعت لمقاومته لأنه يُتيح لغير اليهودى ممن يكون قد قام « بمهزلة اعتناق إيمان » ، أنْ يصبح « يهودياً كامل اليهودية » فى « إسرائيل » حسب تعبيرهم .

وفى رواية للكاتب الأمريكى « سنكلير لويس » الحائز على جائزة نوبل لعام ١٩٢٧م ، يصور إحدى شخصياته : « المرغانترى » أصولياً بلا أخلاق ، ونصّاباً وحانثاً فى يمينه ، وزانياً لا يرعوى ، وسكّيراً . وسريعاً ما تُصبح هذه الشخصية التمثيل الغالب لعالم الأصولية ، وصورة المحتال الأصولى التى شوهت التدين والمتدينين ، وصارت نموذجاً يحتذيه الأدباء والفنانون فى أمريكا – ومنها إلى أوربا والعالم – للأصولى المتعصب الجاهل المنافق الفاجر !

ومنذ ذلك التاريخ تظهر شخصية الأصولى المرسومة فى وسائل الإعلام الغربية غامضة ولها مظهر شاذ من الوجهة العصرية المألوفة فى شكل الزى والسلوك ، وتحيط بها الهالات الأسطورية الخرافية ، وفوق ذلك يصور الأصولى متجهماً دائماً بلا سبب مفهوم ، وكثير التقيد فى ألفاظه ونظراته أمام الناس ، وبلا عاطفة أو رحمة فى قلبه ، ولا مساحة تسامح ولو ضئيلة فى فكره ، فليس هناك إلا الأفكار السوداء ، ولا يوجد لديه إلا لونان : الأبيض والأسود ، فإما أنْ تكون معه على ما هو عليه ، أو يكون هو عليك .

والأصولى كذلك شخص بعيد عن الاستقامة فى أفكاره وسلوكه بمعنى أنه شاذ وغريب وملتوٍ وغير منتمٍ لمجتمعه ، وغير متوافق مع الحياة والناس ، يريد من الجميع أنْ يقهروا شهواتهم ويطمسوا عقولهم ويتّبعوه بلا مناقشة أو تردد أو فهم .

وليس للأصولى – فى تصويرهم – فكر منظم ، ولذا لا يمكن التوقع بسلوكه العدوانى ، كما أنه يحمل أفكاراً لا تنتمى لعالمنا المعاصر ، فهو يعيش فى الماضى ويريد إحياءه وإجبار الناس على العيش فيه ، أى أنه يريد العودة بالمجتمع إلى الخلف ، ولذا يوسم بالرجعية والفكر الظلامى ، ويعيش حياته ضد القانون والمجتمع والدولة .

ولتكرار عرض هذه الصورة تأكدت فى أذهان الغربيين ، حتى أنّه إذا ما سمع أحدهم لفظ أصولية تبادر إلى ذهنه معانى حركة أو جماعة شاذة حرفيّة التفسير للنصوص ، تلغى العقل ، وتتحرك ضد العلم والحرية الشخصية ، إضافة إلى أنّها انعزالية متعصبة وغير متسامحة تدّعى امتلاك الحقيقة المطلقة ، ولا تعترف بالتنوع الدينى والفكرى ، وتقاتل الخصوم بلا هوادة ، وتمارس الإرهاب الفكرى والدموى ، وتريد العودة إلى محاكم التفتيش لسحق الخصوم بعد محاسبتهم على ما فى نياتهم وما لم يفعلوا .

وهذه الصورة « الكاريكاتورية » تُغرينا بتتبع أصل هذا المصطلح ومفهومه المحدد ، وخصوصاً أنه قد فُهم بأبعاد مختلفة ، وشابَه الغموض والاضطراب فى الاستعمال الغربى ، ونقل ذلك إلى اللغة العربية دون تمحيص أو تبصُّر حتى صار سلاحاً للجرح أو الفتك .

والأصولية هى ترجمة للمصطلح الإنجليزى : Fundamentalism أو المصطلح الفرنسى : L'integrisme ، ويؤرخ لظهورها - كما يورد جيل كيبل [(١)] - بالعشرينات من هذا القرن ، وكان ظهورها على إثر نشر سلسلة من اثنى عشر مجلداً انطلاقاً من سنة ١٩١٠م فى الولايات المتحدة تحت عنوان « الأصول » ، وتضم السلسلة تسعين مقالة حررها عدد من اللاهوتيين البروتستانت المعارضين لكل تسوية أو حل وسط مع الحداثة المخيمة حينذاك ، غير أنَّ مصطلح سلفية (أصولية) دخل المصطلحات الأمريكية المستعملة بعد ذلك بوقت قليل ، وصار له دلالة مُختّلفاً عليها .

ويُستخدم كثيراً مصطلح الأصولية فى مقابل الحداثة والليبرالية والعلمانية والتنويرية التى تُنادى بها المؤسسة البروتستانتية غير الإنجيلية ، أما الإنجيلية الأصولية التى نشأ المصطلح لصيقاً بها فتتحد فى الآتى :

- الإيمان بعصمة الكتاب المقدس المطلقة ، وهى تعد نصَّ العهدين القديم والجديد بمثابة التعبير الحرفى عن الحقيقة الإلهية ، ولا سيما فى كُلِّ ما يشتمل عليه من مقتضيات معنوية أو خلقية أو أوامر سياسية واجتماعية .

- ألوهية المسيح ، وخلاص النفس نتيجة للعمل الفعَّال لحياة المسيح وموته وقيامته الجسدية ، وتصديق كل المعجزات الواردة فى الأناجيل .

- الإيمان بالخوارق والمعجزات العجائبية ، والتلقى المباشر عن الله لأتباعها .

- واجب الالتزام بتبشير نشط إزاء جميع أولئك الذين لم يعتنقوا هذا المعتقد .

وقد بدأت هذه الحركة الأصولية ضد العلم الدنيوى والتحرر الإنسانى من سلطان الكنيسة وكهنوتها ، حيث ترى العلم الحقيقى فى الكتاب المقدس فقط ، ورسوم الكنيسة وكهاناتها هى المرجع لتوجيه الحياة الأخلاقية والاجتماعية والروحية والسياسية ، وشهدت دعوتها ازدهاراً عقب شؤم وبؤس الحرب العالمية الثانية حيث عُدَّ الخراب الذى أصاب العالم فى ذلك الوقت مقدمة للمجىء الثانى للمسيح حسب المعتقد الأصولى .

---

(١) المصدر السابق - ص ١١٨ .

ولم تزل لفظة « أصولية » مشوبة ببعض الغموض ، كما تعبر المستشرقة الأسبانية « كارمن رويث » ، فهى أحياناً يُراد بها التمسك بمبادئ أخلاقية لا يجوز التخلى عنها، وأحياناً أخرى تأتى رديفة للراديكالية السياسية من حيث كونها نمطاً أو شكلاً لعلاقة بين مواطنين فى مجتمع واحد ، أو بين دولة وأخرى على الصعيد العالمى .

وتضيف « كارمن رويث » أنه من الطبيعى أن تجد المجتمعات الأصولية هويتها فى الأصولية وأن ترفض الوصاية العقائدية أو الأخلاقية من مجتمعات أو معتقدات أخرى ، وفى هذا السياق تكون الأصولية هى الفرع الدينى الطالع من جذع الأصالة بمفهومها الحضارى (عِودة للأصول) العام ، ولكن عندما يتحول الدفاع عن الذات إلى رفض أولئك الذين يُمارسون ذواتهم بصدق عبر طرق دينية أو عقائدية أو فلسفية أخرى ، تتخذ الأصولية طابع الراديكالية فى أبشع صورها (١) .

وهكذا نرى أنَّ هناك عدة مفاهيم للأصولية لا مفهوماً واحداً تبدأ من التديُّن عموماً واتِّباع نظام أخلاقى معين ، وتُستخدم أحياناً كسُبة يُرمَى بها مَنْ يشطط عن الاعتدال إلى التطرف فى الفكر ، وهى فى وقت آخر عودة للأصول الدينية كضابط لحياة الإنسان، أو تطلَق على مَنْ ينشط ويَستخدم القوة لفرض تفسيراته للدين ، وهذا التعدد للمفاهيم يمكننا معه أن نرى عدة أصوليات تُستخدم فى الأدبيات السائرة لا أصولية واحدة ، كقولهم : أصولية متطرفة تستخدم العنف ، وأصولية معتدلة تستخدم الحوار ، وأصولية انعزالية تكتفى بممارسات دينية .

وهنا قمة مأساة الأصولية التى صنعتها أهواء السياسة ولم يَستطع الفكاك منها أرباب العلم والفكر ، حتى لم نعد ندرِى هل الأصولية خير أم شر ؟! وهل هى خاصة بالدين أو عامة فى الأيديولوجيات والمعتقدات ؟! وهل هى خاصة باستخدام العنف أو تشمل النشاط السياسى والخطاب الدعوى ؟!

وأبلغ مثال لهذه المأساة الاختلاف فى عديد من المفكرين الدينيين : هل هم من التنويريين العقلانيين أم من السلفيين الأصوليين ؟ ومن هؤلاء : محمد عبده ، وجمال الدين الأفغانى ، ورفاعة الطهطاوى ، وعباس محمود العقاد ، ومحمد حسين هيكل ، وطنطاوى جوهرى ، وعبد العزيز جاويش ... إلخ ، ولو وجهنا سؤالاً واحداً لعدد من

(١) مجلة الوسط – العدد ٩٩ – ص ٦٥ .

الأشخاص عن بعض مشايخنا ومفكرينا المعاصرين مثل : محمد الغزالى ، ومتولى الشعراوى ، ويوسف القرضاوى ، وفهمى هويدى ... إلخ أمِنَ الأصوليين هم ؟ لاختلف الجواب وتضارب !

وكذلك على مستوى الجماعات ، لو سألنا : أتُعَدُّ الجماعات الآتية أصولية : الإخوان المسلمون ، الدعوة والتبليغ ، أنصار السنة المحمدية ، الجمعية الشرعية ، الطرق الصوفية .. إلخ ؟ لتناقضت الإجابات أيضاً !

ويُعَدُّ عرض رجاء جارودى فى كتابه « الأصوليات المعاصرة – أسبابها ومظاهرها » (١) على هذا الجانب من الالتباس والتداخل فى معالجة الموضوع ، ويبدأ الأمر من تعريفه للأصولية مرادفة « للتمامية » أحياناً ، أى اعتقاد جماعة ما بتمام نظامها الفكرى ، سواء أكان وضعياً أو دينياً أو أسطورياً ... إلخ ، وبالتالى الاعتقاد بعدم الحاجة لتطوير وتجديد هذا النظام – ولو من داخله ، ليتلاءم مع تطورات العصر ، والاعتقاد بتدنى ونقص النظم الفكرية لدى الآخرين .

فالسمات الأساسية لكل أصولية – كما يراها جارودى – هى الجمود ، ورفض التكيف ، ومعارضة كل تطور ، ثم الميل للعودة إلى الماضى وعدم النظر للمستقبل ، وأخيراً التعصب والانغلاق والتحجر المذهبى وعدم التسامح مع الأغيار .

ويطرح جارودى مدخلاً موضوعياً مختلفاً للظاهرة الأصولية ، ففى مقابل المنظور الغربى المتميز معرفيّاً وأيديولوجياً حيث وُضع مصطلح الأصولية ليوسَم به النظام الفكرى الخاص بالحركات الدينية فقط ، سواء أكانت المسيحية فى الغرب أو الإسلامية فى الشرق ، فإنّ جارودى يتجرأ على الخروج عن هذا المنظور ليكشف عن جذور الأصولية الروجماطيقية فى التجربة الحضارية الغربية الحديثة ونظمها الفكرية الوضعية : الأصولية العلموية ، والأصولية الستالينية ، والأصولية الفاتيكانية .

الأصولية العلموية

يرى جارودى أنّ الغرب الحديث قد ابتدع ديانة جديدة حين جعل من العلم معتقداً

(١) يوجد عرض للكتاب ومراجعه ، تولاها : فؤاد السعيد – مجلة مستقبل العالم الإسلامى – مصدر سابق – ص ٢٧١ – ٢٨٤ . وقد استفدنا منه هنا .

متحجراً (دوجما) منذ أعطى سان سيمون الأساس الأيديولوجى لسلطة الصناعة والصناعيين والمهندسين الذين اتّخذوا من التقدم المادى والعقل التقنى هدفاً أسمى للحياة دون أية غاية مطلقة بعيدة للوجود .

وهذه الأصولية العلموية تمثل العصر الوضعى الذى طبّق نظرياته العلمية على الطبيعة والبشر معاً ليعلن نهاية التاريخ المحتومة بهذا الدين الجديد الذى يُقدم درجة اليقين والحقيقة المطلقة .

ويرى جارودى أن العلموية صارت شكلاً من أشكال الشعوذة والأصولية الشمولية ، عندما اعتمدت على المصادرة القائلة بأن العلم – بناء على التصور الميكانيكى للعالم – يمكنه حل المسائل كلها ، وأنّ ما لا يُمكن للعالم أنْ يَقيسه ويتنبأ بمساره هو شىء غير موجود ، وقد أدت هذه الوضعية الحصرية إلى استبعاد أرفع أبعاد الحياة الإنسانية : الحب والإبداع الجمالى والإيمان .

الأصولية الستالينية

تُعدُّ الماركسية أحد أشكال العلموية الوضعية ، وهى فى النهاية نتائج لنفس الأرضية الثقافية الغربية الحديثة ، ونفس رؤيتها الدنيوية للعالم .

ويكشف جارودى ويحلل العملية التاريخية لتحول الماركسية للجمود فى المرحلة الستالينية بعد أن كان وجهها الإنسانى يُحدد مهمتها التاريخية فى « الاسترداد الكامل للإنسان » ، وتحقيق ذاته بالقضاء على الاغتراب والتشيؤ باعتبارها فلسفة نقدية تقوم على اعتبار أنّ كُلّ ما تقوله عن التاريخ وعن الطبيعة أو عن الله ، إنّما يقوله بشر ، وبالتالى فهو قابل للنقد والمناقشة ، وليس أصولية روجماطيقية مقدسة تعكس حقيقة الواقع عكساً يقينياً ثابتاً وشاملاً ، مما جعل الماركسيين الروجماطيقيين يفقدون القدرة على رؤية « الخطة الفاعلة للمعرفة » حيث المعرفة هى بناء « نماذج مفترضة » للواقع لا انعكاساً لحقيقة الواقع .

الأصولية الفاتيكانية

يُشير جارودى إلى أنّ المسيحية كما هى مطروحة فى الغرب اليوم – بعكس المسيحية الشرقية وفى أمريكا اللاتينية – تمثل السمات المميزة لكل أصولية : العودة إلى الماضى ،

والرغبة فى فرض قانونها عنوة ، فعلى الصعيد السياسى تدعو إلى العودة إلى المذهب المحافظ فى مواجهة الخيار الذى يعطى الأولوية لمَنْ هم أكثر فقراً وحرماناً ، وعلى الصعيد الثقافى تقدّم تصوراً غربياً محضاً للتعبير عن الإيمان المسيحى تفرضه على كافة الشعوب المنتمية للمناطق الثقافية - الحضارية غير الغربية .

ويؤكد جارودى على استمرار الأصولية الغربية فى إنتاج أشكال جديدة لها ، سواء تمثلت فى محاولة فرض نمط غربى فى الحياة على كافة الشعوب والثقافات أو فى أشكال التعصب الفكرى والعرقى والعنصرية المضادة لكل ما هو غير أوربى ، ويؤكد أنّ مواجهة هذه الأصوليات الغربية لا يجب أنْ تنزلق إلى أية تضليلات أو تنازلات .

والعلاج للتعصب والقتل والتنطع والهيمنة التى تطرحها الأصوليات - يراه ممكناً من خلال مقاربات أخرى لمعالجة شئون البشر .. إنها مقاربات الفكر الإنسانى الحر التى استلهمها الإسلام القرآنى والنبوى منذ خمسة عشر قرناً ، ومازال قادراً على تقديمها لإنسانية تسعى لتجسيد هويتها بلا أقنعة زائفة ، والوسيلة التى يطرحها هى الحوار الخلاّق والتفاعل بين الحضارات فى مقابل الأصوليات من كلّ نوع .

وإذا اعترضنا على شيء أورده جارودى فهو أولاً المنهج الذى خرج به إلى تعميم ظاهرة دينية مسيحية أساساً إلى مجال الفكر الإنسانى حتى يمكن لكل فلسفة أو مذهب عقلى أو نظام فكرى أنْ يوضع فى « خانة » الأصولية ، فتصير الأصولية « موصوفة » لكل شيء مما يزيدها التباساً وتسطيحاً فى وقت نُريد أن نضع لها معنى واضحاً ومحدداً ، وإذا كان ثمة فائدة حققها منهج جارودى هذا ، فهى الكشف عمّا تنزلق إليه الأفكار والمذاهب والتنظيمات من تعصب وتحجر وجمود وانغلاق وعدم تسامح وربما عنف وإرهاب وقتل بادعاء الحفاظ على الحقيقة ونشرها والتمكين لها .

ومن حقنا ألا نتفق مع « تمامية » جارودى ، لأن مِنْ شأن ذلك أنْ يؤدى بنا إلى جعل كلّ حركة وجماعة أصولية ، فما مِنْ جماعة أو طائفة إلاّ وتَعدُّ نفسها خير أمة أخرجت للناس ، سواء عنت ذلك وصرحتْ به أو موهت وأضمرت، وهذا مسلك طبيعى أن يعدّ أصحاب كلّ نظام فكرى أن ما هم عليه هو التمام والكمال ، وكذلك أتباع كل دين ونحلة ومذهب ، لأن هذه التمامية هى من آليات المحافظة على ذاتية النظام الفكرى والدينى، وداعية انتشاره والتمكين له فى كل جماعة، ومشكلة الأصولية لا تأتى من هذه النقطة - كما نعتقد - و لكنها تأتى من مدى تقبُّل الآخرين أو رفضهم، وإلى أى مدى

يسير هذا الرفض ، هل يسلك المسلك النظرى أم يلجأ للعنف والقوة لمحو الآخرين فكرياً ومادياً ، أو إكراههم على الارتداد والتحول عن معتقدهم ؟

ثم فى البداية والنهاية : ماذا يحمل هذا النظام الفكرى أو الحركى من حقيقة ؟ وهل يبنى معتقده ومبادئه على حقائق العقل والخلق ، ويحقق إنسانية الإنسان ، وينمى ما فيه من خير ، وينشر الحق والعدل والمساواة والسلام على الأرض لجميع البشر ؟ أم هو نظام عنصرى خرافى أسطورى فاشى نازى ديكتاتورى يلغى العقل والفطرة والوئام البشرى ؟

ولعلنا بعد هذا العرض نصل إلى المحددات الأساسية لكل أصولية أو نقترب من ذلك ، لنميز بين الحركات والجماعات والطوائف، فنعرف يقيناً : أصولية هى أم ليست كذلك؟ ونتمكن من أنْ نقبل أو نرفض تعبير « الأصولية الإسلامية » ، وهذا هدف أساسى فى هذا الكتاب .

إنّ كثيرين لم يفهموا أنّ الأصولية هى خروج أكيد عن روح الدين والتدين مع الزعم بالانتماء إليه والولاء له ، وهذا الخروج ناتج عن سوء تصور وخطأ فهم لحقيقة الدين ، كما هو نابع عن رعونة وطيش فكر واضطراب وتشويش فى الرؤية والنظر ، لذلك تؤدى الأصولية إلى أحكام خاطئة وسلوك شاذ وفعل منحرف .

ومن الخطأ البيّن ما شاع من أنّ الأصولية تعنى العودة إلى الأصول والينابيع الصافية واستعمالها على هذا الوجه كما يتبادر إلى الأذهان بداية ، وإنّما هى اتجاه عقلى ونظام إيمانى ، يخضع النصوص الدينية لرؤية مسبقة مزيفة ومحرفة ومحدودة ، وهذه الرؤية ترمى إلى تحقيق أهداف هى أبعد ما تكون عن الدين ، فهى ليست فى الحقيقة أصولية إلا بقدر ما تستغل النصوص الدينية أو الأصول التى يبنى عليها الدين لأهدافها الخاصة بها ، ومن المثير أنْ تستخدم الأصولية فى ذلك منهجين متعارضين ؛ فهى تأخذ بحرفية النصوص حين توافق أغراضها ، أما حين تخالف مراميها النصوص ، فإنها تلجأ إلى تفسيرات وتأويلات جديدة بعيدة عن العقل والمنطق وروح الدين ، بل ربما تكون أقرب إلى الجنون – كما سنرى لاحقاً .

وسوف نرى ما ستؤدى إليه هذه المنهجية الفاسدة فى التعامل مع النصوص لإثبات تميز عنصرى لبعض البشر ، وموالاة ومناصرة لعرْق مهما يكون من الظالمين أو المعتدين ، ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، وكأنّ الدين – الذى هو أمر الله – امتياز شخصى أو عِرقىٌ ، وليس لكل البشر ، فما بالنا بمن اعتقدوا أنّهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنّ

الكون لم يُخلق إلا من أجلهم ، وأنَّ الله (سبحانه) تابع شخصى لهم – وحاشاه ، وأنَّ ما دونهم من البشر هم درجة ثانية وخدم لهم ، بل كلاب وحِمير وخنازير ... إلخ .

ويلجأ هؤلاء الأصوليون إلى الدفاع عن عقائدهم هذه وأعمالهم المتسقة معها بنصوص باطلة وحجج خاطئة ، ولا يتورعون عن الأكاذيب والافتراءات والخرافات حين لا يستطيعون تقديم حجج صحيحة وبيانات صادقة ، لأنَّ ذلك فى ظنهم لا بأس به ما دام « يرضِى الربَّ ويلتقى مع إرادته » !

ويصحب هذا الفساد المنهجى العريض تعصب للرأى والمذهب مع إغماض العين عن الآراء والمذاهب الأخرى الصحيحة أو المعتبرة (أو ربّما الأصح) ، والثقة العمياء بالمعتقدات الخاصة دون تَحرٍّ لوجه الحقّ وإنْ كان الحقُّ واضحاً للعيان ، والإعراض عن النصح الهادف والموعظة الحسنة إنْ كانت من الخصوم .

ويستمر هذا الفساد ليُشوه الدين فيزيد فيه أو ينتقص منه ، ويحلل ويحرِّم ويشرِّع بغير مستند ، وفى ذلك قمة مأساة تناقض الأصولية واضطرابها ، حيث يفترض فيها حرفية « الالتزام » وجذريته بالنصوص الدينية ، ولكنها لا تتورع عن ابتداع نظام مثل « الكهنوتية الكنسية » و « الرهبانية » ضد الإنسان والحياة والحرية ، وكذلك تحظر الزواج بأكثر من واحدة وتحرِّم الطلاق ، وتنسخ من الشريعة الدينية ما تُريد ، وتضع آلهة تُعبد مع الله سبحانه .

٦ – الأصولية الإسلامية المصطلح الزائف

فى إطار الإسلام ، مَنْ يُعْنَوْنَ بالأصوليين ؟

يُبين ذلك المستشرق الفرنسى « مكسيم رودنسون » بقوله [(١)] :

« كانت هناك مجموعات فى العالم الإسلامى تقول دائماً : إنَّ حل مشكلات العصر يتم عن طريق الإسلام ، وهؤلاء لا يُسمَّون اليوم أصوليين ، وهم عنوا ومازالوا يُطالبون بالعودة إلى صدر الإسلام ، وكانوا يؤكدون أنَّ سبب المشاكل يكمن فى الابتعاد عن الحلول التى طرحها رسول الله ص وطبّقها خلال حياته ، إذن يجب العودة إلى هذه الحلول ، وكان هناك على الدوام فى كل العصور مَنْ يُطالب بالعودة إلى هذه الحقبة » .

ومن الطريف أنَّ رودلف بيترز – المستشرق الهولندى يستخدم الأصولية بأثر رجعى ثم ينتقل إلى الحركة الإسلامية الناشطة اليوم فيرميها بالجمود ، يقول [(٢)] :

« كنا شهدنا فى مرحلة مبكرة أصولية أخرى « تحررية » دافعت عن الإسلام وردَّتْ على كثير من المقولات التى تنظر إلى الإسلام بوصفه ديناً غير متسامح ، ودعا ممثلو هذا الاتجاه إلى الحوار مع الغرب ، وإنْ لم يكن مباشرة ، كما فعل محمد عبده ، وجمال الدين الأفغانى ، ورشيد رضا ، وقاسم أمين ، أما اليوم فالحركة الأصولية حركة صمّاء ، ولا تقيم للحوار مع الغرب أية أهمية ، وهذا ما يقوى ويكرس الصورة المشوهة عن الإسلام ، على أساس أنَّ الإسلام هو الأصولية ، والأصولية هى الإسلام ، وأنَّهما الخطر الأول على الغرب والعالم الحر ، والأصولية من جانبها تتوجه إلى مواطنين لهم فكرة سلبية عن الغرب تقوم بتعميقها ، وإذا أضفنا ما يقوم به الإسرائيليون من تضخيم للخطر الأصولى على أساس أنَّه البديل من الخطر السوفياتى ، فالنتيجة واضحة » .

ويرى المستشرق الهولندى « يان بروخمان » – الذى عمل فى السلك الدبلوماسى

(١) مجلة الوسط – العدد ٩٦ – ص ١٤ .

(٢) مجلة الوسط – العدد ٩٩ – ص ٦٨ .

بالعالم العربى [١] – أنّ كلّ المسلمين – من الناحية النظرية – أصوليون ، كما أنّ الإسلام هو دين ودولة ، أما من الناحية العملية فليس الأمر كذلك ، وإذا كان يرى الدولة الإسلامية أصولية نظرياً ، فهى عملياً مدنية وليست ثيوقراطية ، فهو كما يُفْهَم من كلامه لا يتصور الدولة الإسلامية إلا خاضعة لسلطان كهنوتى يُشْبه نظام الكنيسة فى العصور الوسطى .

وبالإضافة إلى ما نقلناه عن جارودى سابقاً عن ظهور « الأصوليات الإسلامية » ، نذكر هنا ما يراه من سمات لها ، أولها : الانغلاق على الذات ، ونتيجة لذلك لا ينطلق بعض الأصوليين الجزائريين لإحياء إسلام يُجيب على أسئلة العصرِ وقضاياه ، بل يعيشون وكأنّهم فى عصر صدر الإسلام ، والواقع أنّ هذا الجمود الذى لا يعبر عن الروح الأصيلة للإسلام هو عبارة عن « عودة إلى الشكليات » ، ومِنْ هنا كان عجز بعض الأصوليين الإسلاميين عن تكوين مشروع مجتمعى ، وتكوين « فقه القرن العشرين » .

ويرى جارودى أنّ السِّمة المشتركة لتلك « الأصوليات الإسلامية » الجامدة البعيدة عن الروح الحقيقية للإسلام تتجلى فى الخلط بين الحرية المسئولة للإنسان ، وضرورة النظام العام للعالم الذى شاءه الله ، فتصل إلى جبرية تُبــرر الطاعة غير المشروطة للملك ولو كان فاسداً وضالاً .

أما السِّمة الثانية فهى الخلط بين الشريعة : قانون الله الأخلاقى الثابت المقدس ، والفقه والأحكام التى يضعها البشر من المسلمين التى هى متغيرة ونسبية وغير مقدسة .. إنّه الخلط المتعمد بين الكلام الإلهى والكلام البشرى لإضفاء القدسية على الأخير .

وقد أدى هذا الخلط – حسب نظرة جارودى – إلى إغلاق باب الاجتهاد ، مما أكد النزعة الأصولية الجامدة ، وأبعد المسلمين عن تأسيس فكر إسلامى منفتح على العصر ، ومتحاور مع كل ثقافة ، وصالح بالتالى لكل زمان ومكان، وقادر على مواجهة المشكلات المتجددة بحيوية .

ونحن نعتقد أنّ التعجل هو الذى أوقع جارودى فى الخطأ ، وهو الكاتب المحترف الذى ما كان ينبغى له أن ينساق وراء الخطأ الشائع ويستخدم التعبيرات المسيئة والمشوهة للإسلام ولصحوته الراهنة، ونعجب من تكراره لشبهات وادعاءات المستشرقين عن الفكر الإسلامى،

(١) مجلة مستقبل العالم الإسلامى – ص ٢٧٧ .

وهو يُعيد نسبتها إلى « بعض » الأصوليين ، ونسأل : بم استحق البعض الآخر لفظ الأصولية ، إذا كان الأمر يخص فريقاً دون غيره ؟

إنّا نرفض السير وراء مصطلحات غربية وكنسية مُحمّلة بإيحاءات معينة وتعميمها على ظاهرات إسلامية ، لأنّ لها مفهومها المختلف دائماً عما عندنا ، وفى رأينا أنّ الخطأ الذى يقع فيه كثير من الكتّاب والمفكرين يأتى من قلة الاحتكاك بالواقع والاكتفاء بالنقل والترديد لما يشيع فى الأدبيات ، لأنّ هذا النهج يجعل الخطاب موجهاً لواقع غير موجـود أو مناقض لما هو موجود .

فالإسلام ليس روحانية فقط كما يدعونا جارودى لأنْ نَفْهَم ، والصحوة الإسلامية ليست شكلية حين تؤكد على شعائر ومظاهر دينية ، ولكنها روحانية تحكم المادة وتفرض قيمها ونمطها على معاملات الحياة اليومية ، وإذا كان فى العالم الإسلامى اليوم بعض مظاهر الانعزال فهى نتيجة لفعل الغرب العدوانى ، ولمحاولات الحفاظ على الخصوصية الثقافية الإسلامية المهددة ، وهذه حال لن تدوم ، فالإسلام له النهاية .

وما كان لجارودى أنْ يخرج عن المنهجية العلمية فيخلط بين الصحوة الإسلامية الراهنة ، وأوضاع تاريخية ماضية قامت الصحوة أساساً لتداركها ومعالجتها ، ودليلنا على ذلك أنّ ما اتُّهم به الصحوة من « جبرية » و « أصولية » هو عين ما اتُّهم به المستشرقون المسلمين عامة فى كتاباتهم ، وما ظنه من أنّ الصحوة الإسلامية أغلقت باب الاجتهاد تجعلنا نتأكد من أنه ينطلق من خلفية الاستشراق هنا ، فالصحوة الإسلامية المتهمة بالأصولية تسعى - كما هو معلوم - لفتح - وليس غلق - باب الاجتهاد ، كما أنّ المحرك الرئيسى فيها هو مقاومة الطغيان والظلم - لا الخضوع له - داخلياً وخارجياً ، وهذا ما عرّضها لاستعداء العالم ، وهى تسعى مع ذلك لطرح فكر متفتح على العصر بعيداً عن الأصولية أو الصوفية الفلسفية التى يدعونا إليها جارودى .

والإسلام عموماً ليس مسئولاً عن مشاكل العالم وأخطائه لأنّه لم يُوجِدْها ولم يتسبب فيها ، فليس من العدل أنْ نطلب من الإسلام قائمة علاجية لأوضاع لَم تنبع من نظامه الفكرى والقانونى والإدارى والأخلاقى ، أو أنْ يضع إجابة عن كل سؤال تطرحه النظم الجاهلية ، ليس ذلك من العدل لأنّ الإسلام لا يُعَدُّ مسئولاً عن أخطاء الآخرين ، فإذا ما أخذ الإسلام مكانه ، فهذا هو الحل نفسه ، لأنّ الأمراض والأعراض والأخطاء تتدارك

بذلك ، فالإسلام نظام أخلاقى إصلاحى اجتماعى سياسى ، يُعدِّل القيم والموازين لدى الإنسان فتستقيم معاملاته وأحكامه ورؤاه ، وتُقام موازين الحقّ والعدل والطهارة فى المجتمع .

إنّهم يُريدون من الإسلام أنْ يُجيب على أسئلة العصر وقضاياه ويُعالج مشكلاته ، وهو مازال خارج دائرة العصر معزولاً عن دوره الكامل فى الحياة ، ويريدون زرع الإسلام فى رحم العصر أو إعطاءه قيمة وظيفية مسكنة للآلام وشافية للجروح وملطفة للالتهابات ، على حين نرى الإسلام يريد أن يكون مهيمناً على الحياة ومسيِّراً للعصر ، ومقنناً لحركة التاريخ ، ومشرِّعاً للمجتمع ، ومفعِّلاً للإنسان ، لا أن يكون على الهامش يستدعى عند وقوع أخطاء أو حدوث مشكلات أو ظهور أمراض ، فالحل هو الإسلام نفسه ، وليس ما يظنه البعض أنّه الإسلام ، فالإسلام يؤخذ دائماً من مصادره الأساسية ، وليس من أفواه الرجال .

ومثلما كان جارودى متعجلاً كان مراد هوفمان متساهلاً فى التعامل مع مصطلح الأصولية ، فهو يراها [1] عودة للأصول ، وعامة فى الأديان والأيديولوجيات ، ومع ذلك فهى ليست رجعية ولكنّها محاولة لإزاحة الرواسب والتراكمات التى ليست من الدين أو العقيدة فى شىء ، ولكن ألصقها الإنسان مع الزمان والمكان بالدين أو الأيديولوجيا ، وهدف العودة للأصول هو التعرف على المشاكل المعاصرة والتعامل معها برؤية حديثة من خلال الأصول نفسها ، فهو يمتدح الأصولية بعكس جارودى ، وتلك فى رأيه – لا سواها – هى الأصولية ، أو ما يجدر أن نُطلق عليه مصطلح «الأصولية » ، أى أنّ الأصولية لا تعنى تعصير الدين لكى يتفق ومتطلبات العصر الحديث ، كما نعرف لدى متحررى اليهود (الليبراليين) ، وكما نعرف لدى الكاثوليك السلفيين ، ولدى المسيحيين المطالبين باتّخاذ آراء ليفيفر [2] ، وإنما تعنى إحياء الدين بالرجوع إلى مصادره الأولى .

(١) مراد هوفمان : الإسلام كبديل ، بافاريا للنشر ومجلة النور الكويتية ، ألمانيا الاتحادية– ١٤١٣هـ– ط ١ – ص ١٠٦ . ومراد هوفمان : ألمانى مسلم – دكتوراه من جامعة هارفارد – سفير ألمانيا فى المغرب ، وقد عقد فصلاً فى كتابه المذكور بعنوان « الأصولية أو السلفية » .

(٢) أحد رجال الكنيسة ، وهو يتزعم الأصولية الكاثوليكية بفرنسا .

وهذا التحديد الذى يُقدمه للأصولية كما يراها ، يَعدُّه قادراً على أنْ يقودنا بسبيل الوصول إلى « أصولية عاقلة » تستند إلى الوحى أساساً لها ، متفهمة مغزاه والغاية منه بهدف التكيف معه فى العصر الحديث ، أو فى سبيل صحوة أصولية فى مجال الأدب الملتزم الذى يدور بالدرجة الأولى حول العودة إلى الكلمة وحدها، آخذاً إياها مأخذ الجد.

وما كان أغنى الدكتور هوفمان عن أنْ يمد يده ليتسول مصطلحات أجنبية نصرانية للظاهرة الإسلامية ، ولعلّه أراد أن يُفرق بين ما يفهمه الغربيون من الأصولية وما يمكن أن نفهمه نحن ، وشتان بينهما ، لذا هو يريد أن يحدد المصطلح تحديداً خاصاً على غير ما يستعملونه ، ونحن لا نرى لكل هذا الجهد مبرراً ، وخصوصاً أنه يقول بوضوح أن المصطلح بالألمانية Fundomentalismus « ليس له مطابق فى العربية ؛ لأنه مصطلح منحوت من أصل غربى لكى يُطلَق على ظاهرة غربية معينة ، وبمعنى أدق فإن هذا المصطلح « الأصولية » ، استعمل أدبياً أول الأمر لتمييز الأمريكيين البروتستانت فى القرن التاسع عشر الذين أكدوا على عصمة الإنجيل خاصة فى قصة الخلق ، حيث رفضوا النظرية الفجة التى تطورت عن نظرية « داروين » فى النشوء والارتقاء » .

وهوفمان مشغول بالدفاع عن الإسلام ، لذا لا يفوته التذكير بأنّ هذا المفهوم الأخير للأصولية ينسحب كذلك على القائلين من اليهود بالعصمة الحرفية المطلقة لتوراتهم ، ومنهم الحاخام « مناحم شنيرزون » فى نيويورك وقومه من يهود بيت المقدس التابعين لحركة لبافيتش الدينية ، وبهذا ينتهى إلى أنّ الأصولية لم توجد فى الإسلام وحده ، وإنما وجدت الأصولية دائماً ، والتعريف الذى يوافق عليه ويقدمه للأصولية - إسلامياً - هو(١) :

« الأصولية عبارة عن موقف فكرى ورؤية عالمية - بالمعنى البعيد أيضاً كحركة - ترى الالتزام بالإسلام كما كان فى أول عهده ، وكما عرفه السلف الصالح من الصحابة منطلقاً ومثالاً يحتذى فى صياغة المعايير والقيم وقواعد السلوك والمعاملات فى عملية بناء الحاضر » .

واستكمالاً لهذا الخط الذى سار عليه هوفمان يتراءى له أنْ يُميز بين تيارين مختلفين داخل ما دعاه « سلفية وأصولية إسلامية » ، تيار حرْفى ظاهرى ، والآخر تأويلى عقلانى،

---

(١) الإسلام كبديل - ص ١٠٧ .

فالأول يُريد الاقتصار على النص الحَرفى للمصادر ، ويرفض منهج التيار الآخر الذى يرى العودة إلى المصادر الأولى للعقيدة دون التقيد بمنهجية محدودة .

والتيار الأول يمثله لديه الإمام أحمد بن حنبل ، وهكذا يستخدم مصطلحاً معاصراً بأثر رجعى كما فعل غيره ، ويقدم بعض مَن ساروا فى هذا الاتجاه من أئمة اتباعاً للإمام أحمد بن حنبل، منهم الشيخ ولى الله الدهلوى (ت ١٧٦٣م)، ومحمد بن عبد الوهاب (ت ١٧٨٧م) ، والسنوسى والحركة السنوسية فى الثلاثينات ، والإخوان المسلمون فى مصر ، والجماعة الإسلامية فى الباكستان .

ويهتم هوفمان بالدفاع عن هذا التيار الذى اتُّهم « مثقفوه الأصوليون » آنذاك بما يُتهمون به اليوم أيضاً اتهاماً ظالماً بأنّهم سذج ومتأخرون وأغبياء ، وذلك لاستمساكهم بالظاهر الحرْفى للنصوص ، علماً بأنَّ وسائلهم فى الدرس والتحليل والاستنتاج ومعالجة النصوص تتفق وأفضل نتائج فلسفة اللغة التحليلية للمعاصرين فى أوطانهم .

أما الحركة الثانية أى حركة « الأصوليين العقلانيين » ، فقد بدأت مسيرتها مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ممثلة فى السلفية (أى التى نادت باتّخاذ السلف الصالح مثلاً يُحتذى فى السلوك والاعتقاد) وقد أسهم فى تطويرها شيوخ وأئمة أعلام ، مثل الإمام محمد عبده فى مصر ، ورشيد رضا فى سوريا ، والجزائرى ابن باديس ، والبشير الإبراهيمى ، والأوربى المسلم محمد أسد ، ولم يزل البعض يبرر تلك الحركة بأنها كانت رد فعل ثائراً على الجمود والانحطاط اللذين تردى فيهما العالم الإسلامى آنذاك ، والتبعية المستشرية بازدياد مستفحل للغرب .

وينسب هوفمان نفسه إلى هذا التيار الأخير فيما يبدو ، وهو يأسف لأنَّ هذا التيار الثورى الجرىء لم يأخذ مداه منذ بدأ حيث اعترضته معوقات، وهو يدعونا إلى الحذر من أن نحسب أنَّ أخذ هذا التيار لمصادر الإسلام أخذاً جديداً ، معناه تغيير فى شريعة القرآن بما يُلائم روح العصر ، بل العكس عنده هو المقصود أى الإفادة والتعلم من القرآن مرة أخرى فى المرونة الميسرة فى معالجة مشاكل العصر ، وليس انطلاقاً من روح النص القرآنى فحسب ، بل التزاماً حرفياً بكلماته كلمة كلمة .

ويمكن لنا الاعتراض على طرح هوفمان فى عدة نقاط :

- تعميم الأصولية فى الأديان والأيديولوجيات ، واستخدامه بالتالى مصطلح « الأصولية الإسلامية » وإنْ حاول أن يضع له تحديداً جديداً .

- استخدام الأصولية مرادفة للسلفية .

- تقسيمه الأصولية السلفية - كما دعاها - إلى تيارين : حرفى وتأويلى .

وقد سبق أنْ عرضنا نقداً لنقل المصطلح وتعميمه من الظاهرة الدينية إلى الظواهر الفكرية عامة ، كما اعترضنا على مَنْ يفْهم أنَّ الأصولية تعنى العودة إلى الأصول فى الاستخدام المعاصر ، وإنْ تبدّى ذلك من الاشتقاق اللفظى ، ومهما يكن المصطلح إنجليزياً أو فرنسياً أو ألمانياً ، وسواء أكان نابعاً من الكنيسة الإنجيليكانية أو الكاثوليكية لا يُعبر - كما أقر هوفمان نفسه - عن معنى مقابلٍ فى اللغة العربية والدين الإسلامى ، فهو ليس له حقيقة ترجمة إلى اللغة العربية ؛ لأنَّ المفهوم خاص جداً ، ومرتبط برسوم وعقائد وأفكار غير قابلة للنقل والانتشار أو الترجمة والاقتباس ، وهذا ليس فقراً فى اللغة العربية ، ولكنه احترام للمفاهيم أنْ تتبدل أو تُحرف ، فالأصولية فى المصطلح الدينى الغربى تعنى غير ما يمكن أن يفهمه أى عربى من هذه الكلمة ، وهى ببساطة لها حدودها وإيماءاتها فى المفهوم الغربى ، وتثير فى الذهنية الغربية معانى خاصة ، ولو حاولنا الاجتهاد فى وضع مقابلٍ لها لكان لزاماً علينا أن نشتقه من عدد كبير من الكلمات مثل : غلو - جمود - حرْفية - تنطع - شكلية - رياء - انحراف عن مقاصد الدين ... إلخ .

ومهما يكن من أمر فلن يُمكن التغافل عن حقيقة هامة ، وهى الاختلاف الأساسى بين المسيحية والإسلام ، فالمسيحية دين الثنائية بين الدُّنيا والدين ، أو بين الدين والسياسة، أى أنَّه يقول بالحقيقتين ، فالمسيح لديهم ليست مملكته من هذا العالم ، وليس له حكم أرضى ، أما الإسلام فالدين للدُّنيا ، والتعبير والعمل السياسى جزء من الدين ، ومن هنا يعدُّ الخطاب السياسى المسيحيِ خروجاً عن روح المسيحية النقية يدخل أصحابه فى دائرة الأصولية ، أما الإسلام فلا يَعدُّ التعبير السياسى الإسلامى أصولية لأنه ليس انحرافاً عن أساسياته الراسخة ، وعلى كل ذلك سنرفض مصطلح « الأصولية الإسلامية » ، المنقول من أديان مختلفة فى طبيعتها .

وليس أدل على الأخطاء التى يقع فيها مَنْ يتعاملون مع هذا المصطلح من الاختلافات الشاسعة التى تظهر من المقارنة بينهم ، فبينما نرى جارودى يراها انغلاقاً وجموداً وتعصباً ورجعية ، يرى مراد هوفمان أنَّ فى ذلكِ ظلماً للأصوليين الذين يتبعون مناهج علمية تحليلية وتفسيرية ، وبينما يُحاربها الأول ، يُدافع عنها الآخر !

والذى يجعلنا نزداد إصـراراً على رفض هذا المصطلح – بالإضـافـة إلى الخلط الذى نراه – هو أنه يُقْرَن بمصطلح آخـر نعتز به ، وهو السلفية الإسلامية ، وهى يمكن أن تُشوه بذلك ، كما أنَّه يُعرِّض مصطلحاتنا الخاصة للنسخ والمحق ، فكلمة أصولى لها عندنا دلالات مختلفة ، وهذه الكلمة تدور فى أدبياتنا التراثية على عدة محاور هى :

– علم أصول الدين : ويدرس العقائد الأساسية والتوحيد، ولدينا كليات أصول الدين.

– علم أصول الفقه : ويُدرِّس القواعد المنهجية فى التعامل مع النصوص واستنباط الأحكام ، وهو علم إسلامى صرف ، يدلل مع علم الحديث على ما وصل إليه العقل المسلم من رقى منهجى علمى ، ومنه قسَّم العلماء الأحكام إلى أصول وفروع .

– عالم أصولى : أى دارس لأصول الدين ، كقولهم عالم أصولى فقيه محدث نحوى مفسر ... إلخ .

– الأصلان : الكتاب والسنة ، فالقرآن هو الأصل الأول ، والسنة هى الأصل الثانى .

– كتب كثيرة فى تراثنا فى الأصول ، سواء أصول الدين أو أصول الفقه ، مثل كتاب الإمام ابن تيمية : معارج الوصول ، إلى أنَّ أصول الدين وفروعه قد بيَّنها الرسول ﷺ ، وكتاب : الأربعين فى أصول الدين للإمام فخر الدين الرازى ، وكتاب الإيضاح لقوانين الاصطلاح : فى الجدل الأصولى الفقهى لأبى محمد يوسف بن عبد الرحمن بن الجوزى .

وعلى الرغم من إنكارنا لوجود « أصولية إسلامية » ، إلا أنَّ هذا لا يُنكر وجود بعض سمات أصولية – على ما فهمنا معنى الأصولية – فى أدبياتنا وتراثنا ، إلا أنَّها فى النهاية لا تُعَدُّ ظاهرة كاملة ومحددة ومستقلة ، ولكنها بعض سمات تمثل نشازاً فى نسيج فكرنا ومنهج ديننا ، من ذلك بعض ما ورد فى المذهب الظاهرى ، وهو مذهب فقهى ، وما ورد من فقه الحيل ، إلا أنه من الندرة والافتراضات الخيالية بحيث لم يأخذ عمقاً فى الحياة الإسلامية ، وأمثلة ذلك :

– روى البخارى عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يبولنَّ أحدكم فى الماء الدائم الذى لا يجرى ، ثم يغتسل فيه » ، والحديث واضح فى النهى عن البول فى الماء الراكد ثم الاغتسال فيه ، وسواء بال الإنسان فى الماء مباشرة أو فى إناء ثم صبَّه فيه فالأمر سواء ،

وتمسَّك الإمام داود الظاهرى بأنَّ الماء لا يَنجس إذا كان التبول فى إناء ثم صُبَّ فى الماء، ولا يكون منهياً عنه ، لأنَّه يتمسَّك بمنطوق الحديث بحرفية كاملة ، ومن جانب آخر يتفق الجمهور على أن الغائط يُلحق بالبول بالأَولى ، على حين لا يُلحق الإمام أحمد ابن حنبل بالبول غيره ، بل يختص الحكم بالبول وحده ، وهو بذلك يتمسك أيضاً بظاهر النص (١) .

– ولا شكَّ أن السؤال عن دم البعوض مع عدم التورع عن قتل النفس التى حرَّم الله سمة أصولية ، وفى ذلك حديث رواه الإمام مسلم عن سالم بن عبد الله بن عمر أنه قال : يا أهل العراق ما أسألكم (٢) عن الصغيرة وأركبَكم للكبيرة ، سمعت أبى عبد الله ابن عمر يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ الفتنة تجىء من ههنا (وأومأ بيده نحو المشرق) من حيث يطلع قرن الشيطان ، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض ، وإنَّما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ ، فقال الله – عز وجل – له : ﴿ **وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً** ﴾ (طه : ٤٠) .

– ومن ذلك التَّبايُع بالعينة الذى نهى عنه النبى ﷺ وهو تحايل على أكل الربا مثل أن تبيع رجلاً سيارتك بعشرة آلاف جنيه تكون عليه ثم تشتريها منه مباشرة بأقل من ذلك بثمانية آلاف مثلاً تدفعها له حالاً ، ومعنى ذلك حقيقة أنَّك قد دفعت له ثمانية آلاف جنيه لكى تحصلها منه آجلاً عشرة آلاف جنيه ، ولكن عن طريق هذا الاحتيال ، وقد ألَّف علماؤنا كثيراً فى بيان هذه الحيل المحرمة ، ومن ذلك ما كتبه الإمام ابن القيم فى كتابه : « إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان » و « إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين » .

– ذكر الإمام أبو الفرج ابن الجوزى فى كتابه « تلبيس إبليس » بعضاً من هذه السمات ، فمن ذلك ما كان من بعض الصوفية أنَّه إذا لبس ثوباً خَرقَ بعضه ورقَّعهُ ، وربما أفسد الثوب الرفيع القدر ، وتمزيق الثياب عند الوجد ، وإدخالَ الغناء والموسيقى والرقص فى الذِّكر ، ويرد عليهم ابن الجوزى ردّاً يَصلح مع كلِّ أصولى ، يقول : (٣)

(١) تُراجَع هذه المسألة فى « سبل السلام بشرح بلوغ المرام » للإمام محمد بن إسماعيل الصنعانى – مكتبة عاطف – القاهرة – جـ ١ ص ٢٤ – ٢٦ .

(٢) يعنى : ما أكثر سؤالكم .

(٣) تلبيس إبليس – دار عمر بن الخطاب – الإسكندرية ، ١٣٦٨هـ – ص ٢٠٤ .

« لا خير فى حالة تُنافى الشرع ، أفتراهم عبيد نفوسهم أم أُمروا أن يعملوا بآرائهم ؛ فإنْ كانوا عرفوا أنَّهم يخالفون الشرع بفعلهم هذا ثم فعلوه إنه لعناد ، وإنْ كانوا لا يعرفون فلعمرى إنَّه لجهل شديد » .

وكان النبى ﷺ حريصاً على تنقية الدين من كل وضع مما يُمكن أنْ نُسميه الآن أصولية ، ولم يألُ جهداً فى قطع دابر الطرق الفاسدة فى الابتداع والإحداث فى الدين والتنطع والتشدد والتحريف حتى صار طريق الإسلام قائماً على قواعد علمية منهجية صارمة من البداية ، ومن الأحاديث التى توضح لنا ذلك :

– روى مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه أنَّ النبى ﷺ قال : « هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون » .

– روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : بينما النبى ﷺ يخطب إذ هو برجل قائم فسأل عنه ، فقالوا : أبو إسرائيل ، نذر أنْ يقوم فى الشمس ولا يقعد ، ولا يستظل ، ولا يتكلم ، ولا يصوم ، فقال النبى ﷺ : « مروه فليتكلم ، وليستظل ، وليقعد ، وليتم صومه » .

– روى الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى يسألون عن عبادة النبى ، فلما أُخبروا كأنَّهم تقالُّوها (أى رأوها قليلة) وقالوا : أين نحن من النبى وقد غُفر له ما تَقدَّم من ذنبه وما تأخر ؟! قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبداً ، وقال آخر : وأنا أصوم الدهر فلا أفطر ، وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إنِّى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فَمَنْ رغب عن سنتى فليس منى » .

– وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « لا صام مَنْ صام الدهر : ثلاثاً » .

كما أنَّ القرآن الكريم كان له أثره على العقل المسلم الذى صيغ على الفكر الموضوعى الحر والخضوع لسلطان الوحى وحده ، والتحرر من الأساطير والخرافات والشعوذة والدجل باسم الدين ، كما أنَّ الله سبحانه لا يرضى إلا الدين الكامل ، ويحكم على مَنْ يأخذ بعضاً ويدع بعضاً بالكفر بالكلِّ ، فلا يصح الإيمان ببعض الحق دون بعض .. ببعض صفات الله دون بعض ، ببعض رسله دون بعض ، ببعض كتبه دون بعض، ببعض شرعه دون بعض .

لذا يحرص دعاة الإسلام على الدعوة إلى الاستمساك فى بلاد المسلمين بكل أوامر وتعاليم الدين ، لأنّه إما أنْ نأخذ الإسلام كله أو نتركه كله ، وكذلك يحرص الدعاة على إحياء ما مات من شعائر وسنن وحدود إسلامية ، ومحاربة كل أنواع البدع والخروج على حدود الدين ، وهم يرون مع ذلك أنّ الشكل وحده لا يكفى بل لابد من الجوهر ، ومن الواجب أنْ تعود روح الإسلام لتصبغ حياة المسلمين فى كل جوانبها .

ومَنْ لا يفهم أو لا يُريدُ أنْ يفهم هذه الحقيقة هو الذى يلوك مصطلح « الأصولية الإسلامية » بين شدقيه فى بلادنا ، وهؤلاء من مشارب شتى ، فمنهم من يخاف على شهواته ، ومنهم المتغربون غير المنتمين للإسلام ، ومنهم مَن يخشى الغرب الذى يعارض انبعاث الإسلام ، ومنهم العلمانيون والشيوعيون ، وأصحاب الإسلام « المستنير » أى المطور تبعاً لأهواء العصر ، وهؤلاء جميعاً لا يتورعون عن إعلان الحرب على الإسلام تحت زعم محاربة الإرهاب والتطرف والرجعية والسلفية والأصولية والظلامية ... إلخ .

والآن نُريد أنْ نُبين لماذا يتم الخلط بين الأصولية والسلفية ، حتى أنهما يُستعملان اليوم كثيراً بمعنى واحد ؟ إن السلفية – وكما هى الأصولية – استخدمتْ أحياناً كسبّةٍ مهينة ، وفى أحيان أخرى كعودة محمودة للينابيع ، وهذا الاختلاف والاتفاق يأتى مِنْ تعارض المناظير الفكرية ، فالعلمانيون عندنا مثلاً يشمئزون من السلفية والسلفيين ، ويحذرون من الأصولية والأصوليين ، على حين كثير من الإسلاميين والمتعاطفين مع قضية الدين يرون السلفية والأصولية – على ما فهموها – عودةً لنقاء الدين بعيداً عن البدع والأهواء والانحرافات ، وهم يعتقدون أنّ الدين لا يمكن أن يخضع للتطور والتغير مع العصر .

وكثيراً ما يتم الربط بين السلفية والأصولية فى الغرب نفسه ، وقد وُصفت الحركات الأصولية الأمريكية بأنها سلفية أصولية إنجيليكانية ، ومن ذلك كتاب جورج مارسدن : « السلفية الأصولية والثقافة الأمريكية » ، وكتاب جيمس بار : « السلفية الأصولية » . لكنا لا نؤيد هذا الربط بين الأصولية والسلفية ؛ فالسلفية – التى نفخر بالانتماء إليها – هى منهج علمى ، بعكس الأصولية التى لا منهج لها أو تستخدم مناهج متعارضة كما قدمنا .

ولأمر ما كانت كلُّ الدعوات التى جدّدت هذا الدين وأحيت سننه هى دعوات سلفية قديماً وحديثاً ، وكانت الدعوة السلفية دوماً هى معقل الإسلام وحصنه الحصين ، لأنها

أشد على أهل الباطل من تحريك الجبال ، وخرط القتاد ، وليس الأمر سراً ، فهى دعوة علمية ، والعلم نور كاشف وحجة دامغة .

ويقوم المنهج السلفى على نبذ التقليد الأعمى فى الدين ، والسعى إلى معرفة الدليل الشرعى الصحيح، وفهمه والعمل به على منهج الصحابة الكرام والتابعين والأئمة من الأمة؛ فالإيمان يرسخ بالعلم والفهم، واليقين يثبت بالمدارسة، ولابد من تزكية النفس كما كانت حياة النبى الكريم والصحابة الكرام ، فلن يصلح أمر هذه الأمة إلا ما أصلح أوّلها .

والدعوة السلفية حركة خصبة وواسعة انتسب إليها الكثيرون ، وتعددت روافدها ، ولكن بعض هؤلاء لا يُعدُّ حقيقـة سلفياً ، ومِنْ هؤلاء محمد عبده ومدرسته العقلانية ، وهم بالتأكيد ليسوا أصوليين كذلك على عكس ما ادعى هوفمان ورودلف بيترز ، ويبدو أنَّ الخطأ يأتى من اختلاف قدر الدين فى حياة كل من الشرق والغرب ، حيث يُعَدُّ مَنْ يذهب فى الغرب إلى الكنيسة يوم الأحد ، ويعترف للأب ، أو حتى مَنْ يرفع قبعته ويرسم الصليب عند مروره بكنيسة متديناً ، على حين نجد التديُّن فى الشرق عبارة عن قيود وحدود صارمة . فالشيخ محمد عبده لم تكن مجهوداته لإحياء الإسلام فى إطار سلفى ، ولكن كانت فى إطار عقلانى متعسف ، أى على النقيض تماماً من السلفية التى تسلم للدليل الشرعى بفهم السلف الصالح ، فهو أراد مسايرة روح العصر فوقع فى أخطاء قاتلة مثل تفسيره للطير الأبابيل فى سورة الفيل بالذباب أو البعوض ! وتفسيره للحجارة من سجيل بأنَّها ميكروبات الجدرى أو الحصبة ! وهو من جانب آخر – وكما هو معروف – كان صديقاً للورد كرومر ممثل الاحتلال الإنجليزى فى مصر ، فهو لم يكن ثورياً تحررياً إلا فى جرأته على الدين ، رحمه الله .

وقد سار تلميذه الشيخ رشيد رضا على منهجه ، من ذلك تفسيره فى المنار الملائكة بأنَّها القوى والأفكار الموجودة فى النفوس ، وأنَّ المراد بسجود الملائكة لآدم هو تسخير هذه القوى للإنسان فى هذه الحياة ، وأنَّ قصة آدم بما فيها من محاورة الملائكة ، وتعليمه الأسماء ، وسجود الملائكة له من باب التمثيل ولم تقع حقيقة !!

وكما أنه مِن الخطأ أنْ نَعُـدَّ الشيخ محمد عبـده أصولياً بالمعنى المعاصـر ، فكـذلك لا يمكن أنْ نَعُدَّ الإمام أحمد بن حنبل أصولياً بالمعنى الغربى ، وإنْ كان أصولياً بالمعنى المعروف فى أدبياتنا الإسلامية ، ومنهجه ليس حرْفياً ظاهرياً ، ولكنه منهج سلفى يعتمد على النص بداية ، وفهم السلف وعمله المبنى على النص أى الدليل الشرعى ، وهو منهج

ليس بعيداً عن استلهام روح النصوص وإنْ كان حريصاً على ظاهرها ومتقيداً بألفاظها .

والخطأ الواضح الآخر الذى وقع فيه هوفمان وكيپل - فيما نعتقد - هو اعتبارهما أنَّ « السلفية العقلانية » اليوم فى صفوف علماء الطبيعة المسلمين والمهندسين والمثقفين التقنيين أكثر منها فى صفوف الفقهاء ، وأنَّه فى أغلب البلاد الإسلامية قد سُجِّلَتْ ظاهرة قيام طلاب الجامعات والمعاهد الهندسية والفنية بالمطالبة بالعودة إلى الإسلام السلفى العقلانى ، ولم يكن طلاب الجامعات والمعاهد الدينية وغيرهما من العلوم النظرية والعلوم الإنسانية ، هم المطالبين بهذه النهضة ... (١) .

ووجه الاعتراض هو على « السلفية العقلانية » ، إذ أنها تحتوى على تناقض داخلى بين طرفيها ، إذ السلفية فى عُرفنا شىء ، والعقلانية على النقيض منها تماماً ، كما أننا نعترض على ما ذهب إليه الكاتبان المذكوران أعلاه ، فالحركة السائدة الآن ليست عقلانية مطلقاً ، ولكنها سلفية ، وكلِّ الحركات الإسلامية النشطة اليوم فى العالم الإسلامى تقريباً تتبع المنهج السلفى ، وإنْ كان ذلك يتم برؤى مختلفة شيئاً ما .

وعلى أية حالٍ ، فإنّا لن ندع حدود منهجنا الذى رسمناه لنبحث عن «أصولية حقة» أو عما يجدر أن يطلق عليه أصولية - كما يفعل هوفمان - فى مقابل الأصولية الدَّعية أو الباطلة أو الشائعة الاستعمالِ ؛ لأنَّ ما يعنينا أساساً هو أنْ نصوب منهجنا نحن فى التعاطى مع الأصولية ، لا أنْ نُحاول تصويب منهج أهل الغرب ، فنحن بيدنا أنْ نحاول السير فى الطريق الصحيح ، أما غيرنا فلا نملك له من الله شيئاً .

ويجب أنْ نُلاحظ أن هناك فارقاً أساسياً لا يُدركه الغربيون حين يُطلقون على النشطين الإسلاميين كلمة الأصوليين ، إذ أنَّ الأصوليين الغربيين فى أفكارهم الشاذة المنحرفة لا يُعبرون إلا عن أنفسهم فقط ، وسائر المجتمع معارض لهم فى اتجاهاتهم الضارة ، فهم فئة تسبح ضد تيار الحياة فى بلادهم لذا يلجأون للعنف والتسلط لصبِّ جام غضبهم على مخالفيهم ، ويعودون للمرجعية الدينية كما هى فى فهمهم المنغلق الجامد ليضفوا على آرائهم صفة القدسية التى لا نقاش معها ولا تراجع عنها .

أما النشطون الإسلاميون فهم فى حقيقة أمرهم الطليعة والرواد للأمة الإسلامية ، وهناك تلاحم كبير بينهم وبين الشعوب لأنَّهم يُعبرون عن أمانى وتطلعات هذه الشعوب ،

(١) الإسلام كبديل - ص ١١٣ .

ويلقون منها التأييد فى الانتخاب والعمل الخيرى ، كما هى الحقيقة فى أقطار العالم الإسلامى ، فالنشطون الإسلاميون لم يأتوا ببدعة من لدنهم ، ولكنهم يبذلون جهودهم لإحياء روح الإسلام وحقيقته ، وهذا ما تريده جماهير المسلمين .

ومن حُسْن الحظ أنَّ هناك كثيرين من الشرق والغرب يُشاركوننا هذا النهج ، ومنهم عميدة الاستشراق الألمانى « أنا مارى شمل » فى تقديمها لكتاب « الإسلام كبديل » (ص ١٧) تقول : « هذا التعبير – أىَ الأصولية – لا يَمتُّ إلى الإسلام بصلة ؛ فهذه الكلمة تُطلق فى اللاهوت على اتجاه معين فى أمريكا ! ويُريد الإعلام الغربى بهذه الكلمة « المتطرفين » المسلمين .

فالصحوة الإسلامية لا يمكن وصفها بأنَّها أصولية ، وهذا ما عبَّر عنه « هيوروبرتس » المتخصص فى تاريخ الجزائر – يقول (١) :

« إنَّ إطلاق مصطلح Fundomentalism على الحركة الإسلامية المطالبة بالعودة الكاملة إلى الإسلام (الراديكالية) – لهو بمثابة وصِمة لها من خلال المفاهيم اللاعلمية الشاذة التى تناسب النصرانية الأصولية ، مع أنَّه لا يُوجد فى الدعوة الجادة إلى تطبيق القرآن ما يمكن أن نعتبره – بالضرورة – غير علمى أو شاذاً » .

وخير من عبَّر عن الفارق بين الحركة الإسلامية والأصولية المسيحية المستشرق الفرنسى رومينيك شوفالييه ، حين يقول (٢) :

« لا بد من تحديد معنى المصطلح ، الأصِولية فى فرنسا تحمل معنى التطرف الذى ميَّز الحركة الأصولية فى الدين المسيحى ، ويستخدم هذا المصطلح فى الجدل السياسى الفرنسى ... » .

لا بد إذن من الإشارة إلى الاختلاف بين معنى الحركة الأصولية كما يُقدَّم إلى الفرنسيين فى الصحافة ووسائل الإعلام ، وهو تقديم يحمل بعض مواطنينا على اعتبار هذه الحركة مشابهة للحركة الأصولية الكاثوليكية بزعامة السيد لوفيفر ، « الحركة الأصولية الإسلامية مختلفة تماماً ، ولا مجال للمقارنة بين الحركتين ، وإذا كان لا بد من مقارنة ما ، فإنَّ هذه المقارنة تصلح مع حركات التحرر الدينية التى ظهرت فى أمريكا

(١) عن مجلة لواء الإسلام : الأصولية مصطلح غربى – العدد ٨ ، ربيع الآخر ١٤١٠هـ – ص ٤٨ .
(٢) مجلة الوسط – العدد ٩٦ – ص ١٥ .

اللاتينية ، إنها حركة إصلاحية أخلاقية ، وتستند إلى علاقات اجتماعية وسياسية وهى حركات تؤثر فى عدد كبير من الناس فى أمريكا اللاتينية » . وسيأتى زيادة بيان لهذه الحركات الأخيرة .

أما عميد الاستشراق الفرنسى العلاّمة جاك بيرك ، فهو واضح فى رفضه لمصطلح الأصولية الإسلامية ، يقول [١] :

« أنا أرفض تعبير الأصولية، لأنّه آتٍ من النزاعات داخل الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، وقد تكون « الإسلاموية » هى الكلمةَ الأفضل لوصف الحالة التى نعنيها .. أى أولئك الذين يصرون على اعتبار الإسلام فلسفة عملية فى المجتمعات المقصودة ، فهناك المسلمون (العامة) ، وهناك الإسلاميون الذين يشددون على قدرة الإسلام على إيجاد حلول مناسبة لمشاكل الحياة اليومية ، وقدرته على بناء دولةٍ ومؤسسات ، وهؤلاء لا يقفون عند الطبيعة الدينية للإسلام فقط ، هذه هى أطروحة مَنْ نسميهم الإسلاميين ، و « العرب » يسمونهم « أصوليين » !

ويربط بيرك بين الحركة الإسلامية الحالية وحركات أخرى شهدها العالم الإسلامى آنفاً ، وهى حركات تسعى إلى تقريبه مِنْ منابعه ! ففى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظهرت حركات إسلامية ، وبعد عصر السلطان عبد الحميد جاء الإخوان المسلمون ، ولدينا الآن أبو الأعلى المودودى ، والخمينى وأتباعه ، وهؤلاء جميعاً لديهم خطابات تجعلهم مختلفين بعضهم عن بعض ، لكنهم يلتقون فى الدعوة إلى الرجوع إلى الأصول وبخاصة القرآن ، ويدعون إلى إعادة تأصيل القرآن باعتباره قادراً على تقديم الحلول للمشاكل التى يطرحها العالم المعاصر ، ويطرحون ذلك فى مواجهة المجتمعات التى وضعت نفسها منذ مائة سنة فى مدرسة الغرب ولم تحقق النجاحات المطلوبة .

وسبب هذا الفشل يُرجعه بيرك إلى أن الانتساب إلى مدرسة الغرب لم يُعطِ نتائج جيدة، ولأنّ تقليد الآخر ليس أمراً حسناً فى نفسه ، إذ أنه يجب البحث عن الحَلول فى إطار ذاتى ، حتى عندما نستوحى من الآخر ، يجب أنْ يكون هذا عن طريق تأمل طرق الآخر ، ولكن بشرط أنْ تأتى الحلول من الذات وليس تطبيق حلول الآخر على الذات ، وعندما أنشأ ابن سينا وابن رشد فلسفة إسلامية استوحيا من أرسطو ، وكانا فى خطه

(١) مجلة الوسط – العدد ٩٦ – ص ١٢ .

لكنهما كانا خلاّقين ، ولم يكونا مجرد مُقلّدين ، وهذا هو الفرق الذى أعنيه ، هل جاءت المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة بحلول جديدة لمشاكلها فى المجال الاقتصادى ومجال الفكر السياسى والفكر الاجتماعى ، أعتقد لا ، ويمكن أنْ يؤخذ على هذه المجتمعات تقليدها ليبرالية الغرب وسقوطها فى الفساد ، ومن جهة ثانية قلّدت الاشتراكية ووقعت فى البيروقراطية والطغيان ، وفى مواجهة ذلك يمكن فَهْم أنَّ المجتمعات أرادت العودة إلى نفسها وبالتالى العودة فى الظرف الحالى إلى ما هو أقرب إليها ، أى إلى الدين، فنحن إذن أمام حركة دينية تطالب بالدين .

ويتكفل بيرك بالرد على مَنْ يدّعون أنَّ الصعود الإسلامى ظلامى بقوله : « فى فرنسا يتحدثون عن الصعود الظلامى فى الجزائر ، وأعتقد بأنَّ الذين يقولون ذلك يشتمون أنفسهم عندما يتحدثون عن وضع المرأة فى شمال أفريقيا ، ويجب أن يتذكروا أنهم لم يحرروا امرأة واحدة طوال ١٣٠ سنة من الاستعمار » .

أما جون اسبوسيتو فيقدم فى دراسة للكونجرس المفهوم الأمريكى للأصولية ، يقول(١) :

« تُشير الأصولية الإسلامية فى معناها الواسع إلى تجديد الإسلام فى كلٍّ من الحياة العامة والشخصية للمسلمين ، ممثلة فى زيادة ممارسة الشعائر الدينية والإكثار من المطبوعات الدينية والبرامج الإعلامية التى تدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وإنشاء البنوك الإسلامية ، وتطوير التنظيمات الإسلامية ، وحركات النشطين » .

وينتقد جيل كيبل منهج نقل المصطلحات الغربية وانتشارها وتعميمها فى العالم ، مما يُعدُّ جزءاً من المركزية الغربية العنصرية ، وهو يرى لذلك أنَّ طرحه سيكون غريباً على قرائه هناك ، لأنَّ العادة جرت على أن تُستخلَص الأفكار وتُصاغ المفاهيم المستخدمة لإدراك ما يحدث فى الخارج انطلاقاً من دراسة الأديان الغربية ، فحين ينظر إلى أحداث العالم الإسلامى » من باريس أو نيويورك ، فإنما تُرَدُّ إلى ما يُسمى « الأصولية الإسلامية » التى هى ترجمة لمصطلح Integrisme الفرنسي ، بدون الأخذ بعين الاعتبار تكوُّن المصطلحين الفرنسى والإنجليزى ، وهما مقولتان ولدتا فى العالمين الكاثوليكى والبروتستنتى على

(١) د. أحمد إبراهيم خضر : الإسلام والكونجرس الأمريكى – دار الحكمة – القاهرة ، ١٤١٣هـ – ص١٢ . وقد رفض الدكتور حسن الترابى مصطلح « الأصولية الإسلامية » فى كلمته أمام الكونجرس الأمريكى واستخدم بدلاً منه « الحركات الإسلامية » .

التوالى « وأن استخدامهما على سبيل الاستعارة أو المجاز لا يعنى أن لهما قيمة كونية مسكونية شاملة ، بل إنى على العكس من ذلك أعتقد أنّهما تبسيطيّان يختزلان الظاهرة ويحرّفانها ، وأنهما يعوّقان معرفتنا بتلك الظاهرة فى مجملها ، ثم إنَّ عجزنا الإجمالى عن تفسير أو تأويل الحركات الإسلامية اليوم إنما يعود إلى حد بعيد إلى استخدامنا لهذه النظارات النظرية القديمة التى نضعها على أعيننا لأننا لا نجد فى عجالة أمرنا خيراً منها ، لكن كل ما تقوم به هو زيادة التشوش فى إدراكنا ، لقد حان الحين للبدء بقبول التحدى الذى تطرحه الحركات الدينية المعاصرة على طرق تفكيرنا التقليدية ، غير أن هذا ليس ممكناً إلا إذا أخذناها بإجمالها كلاً وجميعاً » .

وهو يطرح بدلاً من ذلك الانطلاقِ من العالم الإسلامى ، لأنه كما يراه سيتُيح لنا أن نراقب من زاوية غير مألوفة ظاهراتٍ تشكل جزءاً من وسطنا الثقافى ، وكان يفترض لها أن « تكلمنا » و « تتحدث إلينا » من تلقائها ، وأن تتيسر لأفهامنا بغير عناء [(١)] .

أما الكاتب الأمريكى توماس ليبمان فيرى أنَّ الأصولية تُستخدم بمعنى الالتزام بالتعاليم الأخلاقية للقرآن الكريم ، وهى لذلك تحوز الإعجاب المتناهى عبر دول العالم الإسلامى ، وأنَّ انتصار الآراء السلفية فى دولة ما لا تحتاج بالضرورة إلى أنْ تكون معادية وضارة بالمصالح الأمريكية ، وأنّه فى مجتمع الإسلام العالمى الغنى فى التنوع ، من القسوة والمبالغة فى التبسيط أنْ نتحدث عنِ الأصولية والسلفية والتطرف كظاهرة ، حيث إنَّ السلفية أو الأصولية لدى إنسان ما تُعَدُّ لدى الآخر تعصباً ، وتطرف إحدىِ الدول يعتبر سياسة مستمرة لدى دولة أخرى ، فالمملكة العربية السعودية مثلاً لها نظام ينظر إليه على أنّه متطرف إذا ما أوجدناه فى تونس أو تركيا .

وبوجه عام - كما يضيف ليبمان - فإن الجماعاتِ والأفراد الذين وصفتهم الصحافة بأنّهم أصوليون ، والذين وصفت أنشطتهم الأخيرة أنها تُشكل انبعاثاً أو بعثاً عاماً للإسلام، يشتركون فى مبادئ وأهداف موضوعية معينة ، فهم يريدون للشريعة أن تكون أساساً لمجموعة القوانين المدنية والجنائية ، وهو ما يعنى عادة قوانين جنائية صارمة بدلاً من الأنظمة الأوربية فى البلدان الإسلامية ، وحظراً للخمور والربا والميسر والدعارة ، والفصل بين الجنسين فى المدارس والورش وأماكن العمل والتدريب الدينى فى المدارس ، وفى المعنى الأشمل يريدون مساندة شعبية كاملة لأسلوب حياة قائم على تراثهم الدينى

(١) چيل كيبل - مصدر سابق - ص ١١ .

الإسلامى ، والتطهر من المادية والسلوك اللاأخلاقى الذى يرون أنه إحدى نتائج النفوذ الفاسد للغرب على المسلمين ، واستعادة قطعة أرض من بلاد الإسلام التاريخية استأصلتها القوى الغربية ، والحياد بدلاً من الولاء للقوى العظمى التى قد تبدو وكأنها « متطرفة » لأولئك الذين تتهدد مصالحهم من جرّاء مثل هذا البرنامج لمثل هذه الجماعات ، وفى سياق المجتمعات التى تسعى إلى إعادة التركيز على استقلالها السياسى والثقافى ، فإنّ مثل هذه الجماعات تكون لها غالباً مطالب طبيعية ، وإذا أخذنا بوجهة نظر ومنظور الشعوب الفقيرة المحرومة من حقوق التعبير السياسى والانتخاب ، أو الذين يحاولون حماية تقاليدهم وعاداتهم من صدمة التغيير ، فإن الحركات والأفكار التى تظهر وكأنها متطرفة وغير معقولة لدى أبناء الغرب هى بالفعل منطقية ومقبولة معاً (١) .

وهكذا نجد أنّ أسباب ما يكون فى المجتمع الإسلامى من عنف أو شدة فى التعبير عن المطالب المشروعة هو فى أكثره يرجع إلى بذور الشر التى زرعها الغرب بأساليبه الإمبريالية المباشرة أو غير المباشرة ، فالاستعمار لم يزل له عملاؤه ، وهم لا يتركون للإسلام الفرصة ليعود إلى حياة الناس ويحكمها سلمياً ، مع أنّ هذا أعمق أمانى كل مسلم صادق ، وهو مطلب جماهيرى عريض ؛ لأنّه الفارق بين أمرين جوهريين : كفر وإيمان ، وبالرغم من أنّ الجماهير قد عبّرتِ عن خيارها هذا من خلال الانتخابات الحرة حين أُتيح لها ذلك ، إلا أنّ اختيار الشعب يُرفَض حين يكون هو الإسلام ، وكأنّ التغيير لا يمكن أنْ يكون إلا بالثورة العنيفة أو الانقلابات القاسية ، ولليوم لم نر فى ديار الإسلام الدولة الإسلامية تقوم إلا بهذه الأساليب العنيفة ، ولا عجب أن السيل الجارف إذا وقفت بعض الأحجار فى طريقه فلابد له أن يجرفها ليطهر مجراه ، وليس من العدل بعد ذلك أن نتهم السيل بالقسوة والعنف وعدم التسامح والإرهاب ، لأنّ الحجارة أشد قسوة !

وهنا نحن نرى أن مَنْ يدّعى أنّ هناك « أصولية إسلامية » هو فى الحقيقة يسوى بين الإسلام الدين الحقّ ، وغيره من الأديان ، فإذا كان القرآن يفرض علينا أخذ الدين جملة ، وألا نؤمن ببعضه ونكفر ببعض ، فإن كل دعوة إلى الاستمساك بأهداب الدين وتشريعاته وأحكامه هى دعوة إلى الحق ، وهى جهاد فى سبيل الله ، وليست تطرفاً أو أصولية ، لأنّها دعوة إلى الله ، ورجوع إلى أوامره وابتغاء لمرضاته .. فإذا سوينا كل ذلك

---

(١) توماس ليبمان : جماعات الإسلام السياسى – يافا للدراسات – القاهرة ، ١٤٠٩هـ – ص ٢٣–٢٩ ، ٥١ .

بمَنْ يدعو إلى دين باطل أو وثنية، ويريد أن يفرض الحقيقة كما يراها على البشر جميعاً، فلنا أن نسأل : هل الحقيقة فى كتاب الله أم فى أفواه المتشنجين والوثنيين والمتعلمنين ؟

إن الإسلام يعطى لكل إنسان الحقّ فى أن يقتنع ويُقنِع ، وهذا هو ما يُحْرَمُ منه المسلمون أنفسهم الآن فى داخل بلادهم ، فماذا ننتظر من المسلم فى مواجهته باطلاً يبغى سلبه حقه فى الاقتناع والإقناع : فى القول والعمل ، وفى الدعوة والتبليغ ، وفى أنْ يكون حيث يحب الله ؟ أم هل نطلب منه أن يستسلم استسلام الأدعياء والمرجفين ، فيأخذ بعض الدين ويترك ما لا يرضاه هؤلاء ؟

ولا يمكن أن يستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فليس فى الإسلام مؤسسة دينية أو سيطرة كهنوتية، وهو لا يسمح بتفسير لاهوتى لا يمكن تجاوزه، ومن هنا لا يمكن للبعض ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة والتمامية فى المنهج من خلال فهم خاص للنصوص الشرعية ، وفرض ذلك على الآخرين ، لأنّ باب الاجتهاد مفتوح لأهل العلم جميعاً ، ولكلّ امرئ أنْ يتعرف على الله مباشرة بأوامره وكلامه ورسالاته ، وليس لأحد أنْ يفرض على غيره فهمه أو رؤيته لمراد الله مادام للجميع حقّ متساوٍ فى الاجتهاد والنظر، أما توحيد الآراء ومنهاج العمل فيكون بالمشورة الجماعية التى لا تستثنى بعض الآراء أو ترفع أناساً وتخفض آخرين ، والتى تراعى أحوال الزمان والمكان .

والإسلام لا يقول كما تقول الكنيسة الكاثوليكية مثلاً إنّه لا خلاص خارج الكنيسة، وأنه لا أنبياء إلا الذين تعترف الكنيسة بنبوتهم ، وهؤلاء لا يعترفون بالقرآن ولا بمحمد رسول الله ﷺ ، أما المسلمون فيعترفون بالإنجيل والتوراة وموسى وعيسى وجميع النبيين والكتب المنزلة كما يعترفون بأهل الكتاب ، ويتعايشون معهم ، ويتحاورون بالتى هى أحسن ، وشعارهم قوله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ (سبأ : ٢٤ ، ٢٥)

إنهما مصطلحان أساسيان – لا واحد – لا يُخصّاننا : أولهما « الأصولية الإسلامية » والآخر : « الحرب المقدسة » ، لأنّ هذين المصطلحين لا يعرفهما الإسلام ، ولا يُقرُّهما، وهما يحملان تناقضاً داخلياً : فالإسلام لا يمكن أن يصير أصولية ، كما أن الحرب يستحيل أن تتقدس ، وهى قد تكون ضرورة دفاعية أو جهادية ، مِما يجعلنا نرفض هذا التعبير لغوياً واصطلاحياً ، فتاريخنا ولغتنا لم يمر بهما هذا الغريب ، اللهمّ إلا لدى اصطدامنا بالحروب الصليبية التى كانت بحقّ حروباً « مقدسة » لدى أصحابها .

٧ - المتعلمانيون والمتقديميون والحرب على الأصولية

هناك أمران يحسن المقارنة بينهما ، وهما حال الانفلات من الدين لدى كلٍّ من الغربيّ والشرقيّ ، فالغربيُّ حين ينفلت من الدين يعلم ويعى ويقر ويعترف بحقيقة تركه الدين ، ولا يحاول تبرير ذلك ، ولا يدّعى أنّ ما يفعله ليس فيه خروج على الدين .

والشرقيّ على العكس من ذلك ، حين يخرج على الدين يحاول تبرير ذلك ، وهو لا يعترف بأنّ ما يفعل هو خروج على الدين بل هو يحاول أن يثبت أن ما يفعل موافق للدين أو لا يدخل فى مجال المحظور .

والمرء فى الغرب يكفيه الإقرار بوجود الله ، والإيمان بالعقيدة المسيحية ليصير بذلك متديناً ، أما فى الشرق المسلم ، فالدين بناء ضخم متين ، له أسس وأركان وبنيان وتحسينات ، والمرء لا يعد هنا متديناً إلا إذا استمسك بالأسس وأقام الأركان وأتمّ البنيان ؛ وربما اجتهد فى التحسينات أو لم يفعل ، فإذا ترك مأموراً به أو فعل أمراً منهياً عنه ، كان نقصاً فى دينه ، وما أكثر الأوامر والنواهى فى ديننا !

ويفهم الغربيون خطأ أنّ الشرائع السماوية أُسسَتْ لمفهوم ونظام الدولة الثيوقراطية ، أى الدينية التى يتحكم فيها رجال الدين فى أمور الناس ، بدءاً من النبى إلى حوارييه ، وتُحدد ، فتاوى وتعاليم رجال الدين وجه الحياة ، وكان ذلك من الكنيسة سبباً فى تأخر العالَم المسيحى فى العصور الوسطى ، حيث سيطرت الكنيسة على السياسة والعبادة والاقتصاد والعلم والعقل ، فأنشأت محاكم التفتيش وعاقبت على ما فى الصدور ، وحجرت على العقول ، وابتزت الأموال ، وشنت الحروب الدينية ، وحرّمتْ وأحلّت بلا مستند شرعى .

وحكم الملوك أوربا إلى وقت قريب ، متكئين على رجال الدين ومتخذين من شرعية الحق الإلهى لمُلكهم صكاً لتملك العباد والبلاد ، حتى استقر فى إيمان الناس أنّ للملوك

حقاً إلهياً لا يحل لمتدين أن ينازعهم إياه ، حتى كانت الثورة على هذا النظام ، والتحول من الدولة الكنسية الدينية إلى الدولة الحديثة العلمانية .

وأراد الغربيون أنْ يكون الدين على هامش الحياة – مجرد جزء من الهوية الثقافية – فصارت المسيحية على أيديهم ديناً ميتاً ينتمى للتراث ، ولا يستطيع أن يبرح أبواب الكنائس والمعابد .

ومن الخطأ أنْ نُسقط مواقف وأحداثاً ومبادئ على الإسلام تختص بدين آخر ، ومن الخطأ المنهجى أنْ نُعَمِّمَ الأحكام والاستنتاجات حينٍ لا تكون الظروف « المعملية » واحدة ، وحين تختلف المواد والأدوات ، فالإسلام لا يخاصم العلم ، فهما صنوان ، فلا إسلام بلا علم ، وليس فى الإسلام طبقة رجال الدين الكهنوتية ، كما أنَّ الدولة فى الإسلام مدنية وليست دينية ، والإسلام هو دين الفكر الحر ، والاجتهاد والشورى والجماعة وطاعة أولى الأمر فى المعروف فقط ، ولكل مسلم أن يحاول فهم القرآن – بعكس الكنيسة التى احتكرت تفسير الأناجيل ، والرقابة فى الإسلام على المسلم ذاتية ، والقوانين الإسلامية هى اجتهادات المؤمنين فى فَهْم مراد الله من النصوص ، ويمكن قبول فَهْم الآخرين للنصوص أو الاختلاف معهم فى حدود المنهج العلمى الذى هو ثمرة من ثمرات الفكر الإسلامى المرتبط بالكتاب والسنّة .

وفى الإسلام لا يمكن الفصل بين ما هو دينى وما هو دنيوى ، فالإسلام هو الحياة نفسها ، والدين والسياسة (بمعنى الحكم) لا يفترقان بل يجب أن يكونا صنْوان طبقاً للمفهوم الصحيح للإسلام ، فإذا حاول بعضهم التحلل من بعض تعاليم الإسلام وإنكارها عُدَّ ذلك منه كفراً بها ، وخروجاً على الدين ، فما بالنا بمن يحارب الدين باسم الدين ؟!

ولقد كان من المؤسى أن تنشأ نابتة فى بلادنا تَشكلت عقولها وصيغت أفكارها على زاد الغرب الفكرى ، فاتّبعت نظرياته « التحررية التقدمية » الكونية ، التى حاولت أن ترسِّخ فى أذهان البشر أنَّ التقدُّم قرين العلمانية ، وأنَّ كل محاولة لتنظيم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية على أساس الدين ، إنَّما هى حركة رجعية هدامة ترهص بالتخلف ، ولم تزل هذه الشقشقات اللفظية المبهورة – للأسف – فى ألسنة فئة من المتغربين الذين يدَّعون أنَّهم « علمانيون » ، وكذبوا ، فما هم بعلمانيين ، ولكنهم « متعلمانيون » لأنَّ العلمانية يجب ألا تكون إلحاداً كما فهموها ، أو حرباً على الأديان كما أرادوها ، ولكنها تُعايش الأديان معاً ، وآخرون ادَّعوا أنَّهم « ثوريون تقدُّميون » ،

وكذبوا هم أيضاً ، فما هم بثوريين ولا بتقدميين ، ولكنهم « متثوريون متقديميون » ، لأنَّ الثورية والتقدمية ليست انخلاعاً من الدين والتراث والماضى ، ولكنها رفض للظلم والجهل والكفر .

إنَّهم يُريدون أنْ يَصنعوا لنا نُظماً فى بلاد المسلمين « تقدمية » و « علمانية » ترى أنَّ اعتماد النصوص المقدسة حَرْفياً كمصدر للمعرفة والحقيقة المطلقة رجعية ، وأنَّ استلهام تأويل قطعى للنصوص الدينية للتوصل إلى تغيير المجتمع تخلفاً ، ويَعدُّون أسس مصائبنا هو العقليــة الغيبيــة أى التى تؤمن بالغيــب ، وهم لذلك إذا بحثــوا فى التراث لم يستهوهم إلا الآراء المنحرفة ، وإذا تأملوا فى التاريخ لم يعجبهم إلا الجماعات الجانحة والمواقف الشاذة ، وإذا نظروا فى القرآن لم يلتفتوا إلا إلى المتشابهات دون المحكمات .

وهؤلاء - كما رأينا - فريقان رئيسان : الشيوعيون « المتقديميون » أصحاب الثورة الحمراء ، والفكر الثورى الدموى العنيف ، وهم ألدُّ أعداء الإسلاميين لأنَّهم يرون فيهم القوة العتيدة التى أزاحتهم عن الساحة وأفقدتهم « مصداقيتهم » الثورية ، ورمت بهم فى ذاكرة الماضى ، والإسلاميون من وجه آخر يقومون بما لا يستطيعه الشيوعيون وإنْ أرادوه بوجه ما ، من تغيير جذرى فوقى ، وصعود إلى سدة السلطة مع « حضور » فاعل داخل نسيج المجتمع المتأزم .

والفريق الآخر الذى يُعادى الإسلاميين هم المتعلمانيون ، لأنَّ انتصار الإسلاميين وحضورهم وضع حركتهم « التنويرية » ونهجها العقلانى المتحرر من الدين فى محنة وشك ، ومنع تيارهم من الفاعلية والانتشار فى طبقات المجتمع .

ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر أنَّ الفريقين جميعاً - متعلمانيين ومتقديميين - لم تزل لهما السيطرة الفعلية على وسائل الإعلام ومؤسسات الثقافة ، وهم قد تطوعوا عن طيب خاطر لحرب الدين ، وسخَّروا ظهورهم لقوى السلطة التى رأت فيهم جنداً مؤقتين فى عملية تزاوج مصالح كبرى لمواجهة العدو المشترك .

ولعلنا من هنا نفهم مَنْ هم أول مَنْ أطلق على دعاة الإسلام مصطلح الأصولية فى بلادنا ، وهم إنما عَنَوْا سبَّ الإسلام نفسه ، والإساءة إليه ، وإنْ تظاهروا بغير ذلك ، وهم بعيدون عن حسن النية إن لم يكونوا من أهل الجهل ، وفى الحقيقة لا نرى متشدقاً اليوم بالأصولية الإسلامية إلا وهو من أعداء الإسلام وشانئيه ، لا يخفى تاريخه الأسود فى حرب الإسلام وتشويه صورة الدعاة المخلصين والمجاهدين الصادقين .

وهؤلاء القوم الدعاة على أبواب جهنم، حين أرادوا أن يشوشوا على الناس، ويغبشوا عليهم الرؤية ويخدعوهم عن الحقيقة، ويخيفوهم من الإسلام، ويبثوا سوء الظن بدعاة الدين، والعاملين لإحيائه، أطلقوا الأصولية على كلِّ من تعاطف مع الفكرة الإسلامية أو عمل للإسلام فواق ناقة، ويصورون القضية وكأننا على أبواب حرب ضاربة، يهيئون هم لها الأجواء، وينشرون الفتنة، ويحذرون من المشانق التي سينصبها « الأصوليون »، ومن القتل والسجن للخصوم، ومن تقييد الحريات الشخصية، وفرض رسوم الدين بالقوة، والمحصلة عندهم أنَّ هناك خطراً هو وصول « الأصولية » أي الإسلام إلى السلطة، وفي الحقيقة فالخطر موجود ؛ لأنَّهم سوف يخسرون امتيازاتهم ومكاسبهم القائمة على الباطل، والمتحالفة معه.

ومن الطريف أن هؤلاء القوم لديهم قدرة غير منكورة على رفع علَم الانتماء الديني عندما يتيح لهم تحصيل مصلحة ما، حتى إذا ما قبضوا على الزمام لم ينل الإسلام منهم إلا المطاردة والمحق، لأنَّ ما في قلوبهم له ليس أقل ولا أكثر من الاحتقار والمقت، وقد حدث هذا تماماً مع حركات التحرير والاستقلال السياسي من الاستعمار الأوربي في الخمسينات والستينات من هذا القرن، وقد أثبت هؤلاء القوم مهارة نادرة في ركوب الموجة، وسرقة الدفة من التيارات الإسلامية التي حققت هذا التحرير والاستقلال بدمائها وأرواحها.

ولعله من الأفضل هنا أنْ نستشهد بما قاله الكاتب الأمريكي : چاك بولين في هذا الشأن من أنه :

« لو أتحنا للإسلام أن ينصرف إلى المزايدة الدعائية العدائية ضد الاستعمار فإنَّه حتماً سينقلب إلى قوة هائلة، وقد شغل هذا الاحتمال عقول العسكريين المصريين الذين وصلوا إلى الحكم بعد ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢م، ومركزهم كان دقيقاً حيث كان عليهم أن يصفُّوا الخلافات المصرية البريطانية، أي إيجاد حل لمشكلة السودان، وقاعدة القناة التي يرابط فيها الجيش البريطاني، ومما زاد في صعوبة المهمة الملقاة على عواتقهم موقف الحكومة الوفدية في السنة السابقة أي سنة ١٩٥١م، إذ أنَّها ألغت المعاهدة المصرية الإنجليزية الموقعة ١٩٣٦، وشجَّعت القتال المسلح ضد المستعمر الدخيل ... ».

« ولهذه الأسباب رأينا أعضاء مجلس الثورة في الأيام الأولى التي تلت تسلمهم المسئوليات يعلنون تمسكهم بالإسلام وتعاليمه، وكانت الصحف تنقل بالتفصيل كيف

أن المجلس يقطع اجتماعاته ليؤدى أعضاؤه صلاة العشاء ، وهذه الصحف نفسها كانت تنشر فى صدر صفحاتها يومياً صوراً تظهر قادة الثورة وهم يؤدون فروض الصلاة ، وصباح كل سبت كانت أمهات الصحف تحرص على أن تسرد تفاصيل صلاة الجمعة التى أدى فروضها حكام مصر الجدد فى مساجد القاهرة ... ومنذ سنة ١٩٥٥م لم نعد نرى مثل هذه التفصيلات إلا فى المناسبات الكبرى وخلال السنتين الأخيرتين (١٩٥٦ - ١٩٥٧م) لم تنشر الصحافة المصرية أكثر من عشرين صورة تمثل الرئيس عبد الناصر وهو يؤدى الصلاة ، على حين كانت تنشر له مثل هذا العدد فى الأسبوع الواحد » .

« لقد حدث هذا التحول الجذرى لأنَّ الإخوان المسلمين ، خلال هذه المدة ، كانوا قد حوكموا فشنق بعضهم وسجن ونفى الآلاف من البعض الآخر ، وما أنْ قضى على نشاط مَنْ يستطيعون استغلال الدين حتى فقد الدين - بالنسبة للحكام المصريين - كثيراً من قوته كسلاح على الجبهة الداخلية ... »[(١)] .

ومن جانب آخر نرى النظم التى تترنح وتكاد تنهار تلجأ إلى أساليب خبيثة من الخداع الأسود فتصنع لشعوبها أعداء تخوفهم إياهم ، ليكون لها دور فى مواجهة هؤلاء الأعداء الموهومين بعد أن فقدت مبررات وجودها ، وظهر فشلها الذريع فى كلِّ المجالات ، أو هى تتبع أساليب دموية رهيبة فى افتعال أحداث إجرامية ونسبتها إلى خصومها ، كى تتمكن من القضاء عليهم سريعاً دون أن تثير حفيظة المجتمع أو تشعل الرأى العام ضدها ، ومن ذلك ما قام به « السافاك » (جهـاز المخابـرات الإيرانى أيام الشاه) الذى أحـرق سينما « ركس » فى ميدان عبدان يوم ٢٠ / ٨ / ١٩٧٨ ، وبلغ عدد الضحايا ٤٣٠ قتيلاً ، وكان مقصد هذه الجريمة هو إلصاقها بالحركة الإسلامية حتى تتهيأ الفرصة لتصفيتها ، وذلك يذكِّر بما قام به هتلر فى قصر « الرايشتاغ » الألمانى ، حيث أضرم فيه حريقاً هائلاً ، ثم اتّهم خصومه بإضرامه ، وقام بتصفيتهم فوراً .

لذا نرى الصراع يدور فى بعض بلاد الإسلام بين فريقين هما : الإسلاميون ، وبعض أهل الحكم ، ويأخذ هذا الصراع صوراً مختلفة ، ويتهم الفريق الأخير الفريق الأول بأنَّه يستغل الدين لتحقيق أغراض سياسية ، وأنه يركز على الشكل دون الجوهر ، وعلى القشور من الدين ، وأنَّ دولة الإسلام قائمة ، ومساجده عامرة ، ويرى الفريق الأول أن الفريق

---

(١) جاك بولين : مع القومية العربية - المكتب التجارى - بيروت ، ١٩٥٩م - ص ٧٧ ، ٧٨ .

الآخر هو الذى يستخدم الدين للأهداف السياسية والمصالح الدنيوية ، ولتثبيت دعائم الملك دون إخلاص أو أمانة ، وإلا فلماذا يرفض هؤلاء تحكيم الشريعة، ونشر قيمها وأخلاقياتها؟

وَيدّعى الفريق الأخير أنّ الفريق الأول « الأصولى المتشدد » لا يتمتع أصحابه بالحس السياسى والنظرة الواقعية والإدراك السليم والفهم العقلانى الصحيح لموازين القوى ، وأنهم لا يجيدون لغة السياسة والمناورة والمرحلية ، ولكنهم انفعاليون وعاطفيون وساذجون ، والدليل على ذلك أنهم يبغون مواجهة « إسرائيل » دون أن يضعوا فى حساباتهم قوتها الفائقة ومؤازرة الغرب لها ، وما يمكن أن ينجم من دمار وخراب وسفك دماء ...

ويرمى الفريق الأوّل الفريق الأخير بالانهزامية واليأس والاستسلام للأعداء ، والتراجع عن الثوابت والتخلّى عن المبادئ ، فهم لا يريدون أنْ يتهاونوا عن بعض الحقوق ، ولا ينتوون أنْ يتراجعوا عن قرارات ومواقف سابقة مهما كلّف ذلك ، ويحرصون على استقلال حقيقى كامل ينتهى معه تقليد التبعية الراسخ للغرب منذ عقود ، وإنْ أدّى ذلك إلى مواجهات مع الغرب الرافض .

وربما كان الاتهام الأساسى الذى يُوجّه للإسلاميين ويُرْمَوْنَ لأجله بالأصولية هو ما يُدّعى أنه تمسك بالقشور ، وتشبُّث بالفروع ، وجهاد من أجل مظاهر شكلية لا تضر ولا تنفع ، ونحن نريد أن توضع حدود واضحة فى هذا الأمر ، حدود تفصل بين المسلم وغيره ، وبين ما هو من الدين وما هو من الغلو والتشدد والتطرف والأصولية ، ونسأل هنا: هل المناداة بتطبيق الشريعة الإسلامية من التطرف ؟ وهل العمل لإقامة الدولة الإسلامية سراً وجهراً من التطرف ؟ وهل التمسك بأهداب الدين وما يرونه قشوراً هو من التطرف ؟ وهل تكفير مَنْ يحارب دين الله تطرف ؟

لقد انتشرت مقولات لاكتها الألسن عن كثير من شعائر الإسلام بالاستهزاء وشُنّع على مَنْ يلبس القميص إلى أنصاف الساقين (الجلابية) ويطيل اللحية ، ويستعمل السواك .. وينسى المستهزئون أن هذه المظاهر هى هيئة النبى ص الشريفة ، وأنّه ورد فيها أحاديث صحيحة تحثُّ عليها .. إنهم فى الحقيقة يكرهون رؤية مظاهر الإسلام تعود إلى الحياة لأنّها تعبير عن أنّ الإسلام دين حى ، وهم أرادوا له أن يكون ديناً ميتاً تغلَق عليه المساجد والخزانات ، ولا يخرج من معزله هذا إلا فى المناسبات كالمريض لبعض الوقت ثم يعود إلى محبسه !

وكان أولى بهؤلاء أنْ يفهموا أنَّ النبى الكريم ﷺ لم يمنعه قيادة الدولة الإسلامية ، وإقامة أصول الدين ، وبعث السرايا ، وفتح البلدان عن أنْ يعرض لأدق المسائل فى الحياة الإنسانية ليبين مرضاة الله فيها ، كما أنَّ عمر بن الخطاب – رضى الله عنه ، لم تمنعه الحروب المتواصلة ضد الامبراطوريتين العظميين فى وقته – الفرس والروم – من أن يراقب تنظيف شوارع المدينة .

ونسأل : ماذا يريد هؤلاء ، وقد قسّموا الدين إلى قشورٍ ولباب ، ومهم وغير مهم ؟ أديناً جديداً يُشرّعون ؟ إنّهم بنياتهم الفاسدة وعملهم الآثم يدخلون كل يوم فى « القشور وغير المهم » أصلاً آخر من أصول الإسلام حتى لم يبق لنا فيه إلا كلمة نقولها وركعات وبعض الأشكال والرسوم في المناسبات ، ونرى مع ذلك كل يومٍ تبديلاً وتحريفاً للدين ، فَمَنِ دافع عن قناعته ، صكَّ فى وجهه بالتطرف والأصولية ، ومن يستخف بشعائر الدين يُدْعَى بأنه تنويرى !

ومن المؤكد أنَّ هذا التناول التمييعى يمكن أنْ يتحول بالشريعة إلى ألعوبة فى يد هذا الفريق من المتنورين ، ومن الراجح أنْ يكون لهم أثرهم فى التهوين من شأن الشعائر فى نفوس الناس ، وأن يدفعوهم إلى الاجتراء على المحارم .

ومن الأمثلة فى هذا الجانب : ادعاء هذا الفريق بأنَّ الإسلام ليس فيه نظام للحكم مفروض ، وألاَّ سياسة فى الدين ، وأنَّ الحجاب ليس من الإسلام ، فما بالك بالنقاب الذى ادّعى بعضهم بأنه محرَّم !! وكذلك تحليل الربا بالشبهات ، وتحليل القمار والخمر والزنا لترويج السياحة ، وتحليل كشف المرأة عن بعض جسدها للرياضة والسباحة ، وتحليل العرى والرقص والغناء الماجن تحت اسم الفن الجميل ، وتحليل الأدب المُفحش (اللاأدب) بأنه تحضُّر وثقافة ... إلخ .

إنّهم يريدون ما يدعونه بالإسلام المستنير أى العقلانى المطور والمعصّر ، وهو ما دعاه بعضهم « بالإسلام الأمريكى الذى يصفه الدكتور عبد الرشيد صقر بأنّه إسلام مفرغ من قوته الذاتية حيث يصير رمزاً لا روح فيه ، فلا يهيج نفوس المستضعفين ، ولا يحرك كوامن الطاقات ، ولا يدفع إلى استرداد مقدسات واسترجاع حضارة .. إسلام مستأنس مع الكفر العالمى ، والوثنية السياسية ، والمذاهب الفكرية ، والتيارات الإلحادية ، إسلام يخطب علماؤه عن الحيض والنفاس والاستنجاء والوضوء ويخشون المعتقلات المعدّة دائماً إذا هم أوجدوا الحلول للمشكلات وطرحوا البدائل للأوضاع العفنة .. إسلام معزول عن

التفاعل مع الأفراد والتجاوب مع الشعوب ، والحرض على معايشة الموتى فى القبور ، والسلبية مع طواغيت الحكام وجبابرة الأرض ، إسلام يستورد من غيره هذه الأقاويل : « مَنْ ضربك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر » ، إسلام يؤمّن على الأوامر الملكية الجائرة ، والقرارات الجمهورية الطائشة والسرقات القارونية اللانهائية .. إسلام يصفق لمَنْ امتطى الفرس ، واغتال الحريات ووأد الحقوق ، ودفن الكرامة وخنق العزة ، إسلام يرى المنكر متفشياً ، والمعروف منزوياً ، فيغمض عينيه حتى لا يرى .. إسلام يُقدِّم فتاوى للحكام يحلّ بها حراماً ويحرِّم حلالاً ، ويحسِّن القبيح ، ويقبِّح الحسن ، إسلام مخدر للضعفاء ، ومعضِّد للسفهاء[(١)] .

ومن الطريف أنْ يقع هؤلاء فى تناقضات متتالية ، فهم حين يتهمون الإسلاميين بالأصولية والظلامية والتكفيرية ، يَدْعونَ إلى محو هؤلاء الإسلاميين وتصفيتهم لأنّهم بنظرهم ليسوا بمسلمين ، فيكفرونهم وينفون حريتهم ووجودهم بذلك ، ثم هم يدّعون ألاّ تناقض بين العلمانية والتدين ، ويحاربون الدين فى كل يوم ، ويقولون إن الواقع يثبت أن المجتمع لم يجعل من الدين فى يوم من الأيام الفيصل فى تحديد الهوية الاجتماعية ، وأنّ الشريعة لم تكن فى يوم من الأيام القانون المدنى ، على حين يقولون فى وقت آخر إنّ الدولة الإسلامية قائمة والشريعة نافذة (بنسبة ٧٠٪ أو ٩٠٪) !!

ولا ندرى هل يمكن أنْ تكون الدولة إسلامية بالنسبة المئوية ، أم أنّ الدين قد اتُّخذَ وسيلة ومظهراً من مظاهر النفاق السياسى لإكمال نقص ، وستر عورة ؟! فمن حيث هى دولة مهتزة فاقدة للمصداقية تتخذ الدين مطية ، وهنا يتحول الدين إلى سياسة مشوهة لأنّه لم يكن اعتناقاً بشروط الإخلاص الإيمانية ، والدليل أمامنا ، فهذا النظام لا يحقق واقعياً الأساس الإنسانى للدين، ولا يمارس حياة إسلامية فى إطار سياسى صحيح وناضج.

إنّ الدولة المسماة إسلامية اليوم هى فى مجملها عزل للدين ، وتحجيم له ، وليست على الإطلاق تحقيقاً سياسياً للإسلام على مستوى النظرية والتطبيق ، فالإسلام يمارس كنحلَة لا كدولة ، كجزء لا ككل ، كتابع لا كموجِّه ، وذلك كما يظهر أثر من التطبيق الغربى لمفهوم الدين وعلاقته بالدولة .

فالدولة الإسلامية لا تتخذ الدين لإكمال نقص ، أو لتحسين ظاهر ، أو لستر عيب ،

---

(١) جريدة الشعب ، ١٨ / ٢ / ١٩٩٠ .

ولكنها تتبع قانون الإيمان الخالص ؛ فالدين ليس إطاراً خارجياً ، ولكنه جوهر حى ، وهو لا يأتى بعد اتخاذ القرارات أو فى أثنائها ، ولكنه يلهم القرارات ويتخلل الحسابات والمواقف ويوجهها ، إنَّه الرؤية والفلسفة العملية والروح السارية ، والنور المشع للجِرْم السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى .

ومما يؤسف له أن الإسلام فى الحلبة السياسية صار عنواناً يفتقد المضمون ، مما حطَّ من شأن الدين فى نظر الكثيرين ، وجعل الإسلام دين التوحيد أشكالاً وألواناً ، وكأنَّ هناك عدة أديان تسمى بالاسم نفسه ، وهذا أعطى أعداء الدين سلاحاً ليشهروه فى وجه الحركات الإحيائية الدينية ، والسؤال الذى يطرح هنا هو : « أى إسلام تريدون » ؟!

والمشكلة فى جانب منها - كما ذكرنا - هى تَبَنِّى المفهوم الغربى للدين وتطبيقاته ، والأمر مختلف كما سنرى ، لأنَّ للمجتمع الغربى خصوصياته وتاريخه وخبراته ، كما أن للمجتمع الإسلامى خصوصياته وتاريخه وخبراته ، فالغرب قد مرَّ بأزمة حين أراد بناء الدولة الحديثة ، وكان أمامه المشكلات الناجمة عن الاختلافات الآتية :

- الاختلاف بين اليهود والمسيحيين .
- الاختلاف بين المسيحيين كطوائف .
- تسلط الكنيسة على الحياة السياسية .

فاليهود كانوا بطبيعتهم وتكوينهم يرفضون الخضوع للقانون المسيحى ، والطوائف المسيحية بينها خلافات واسعة جداً هيجت الحروب وأثارت العداوات ، وسفكت الدماء ، والكنيسة أرادت أن تُخضِعَ الحياة لجبروتها ، وأنْ تجمِّدها عند منظورها الكهنوتى ، وكان من الطبيعى محاولة معالجة هذه المشكلات ، وجاء العلاج كالآتى :

- القضاء على تسلط الكنيسة .
- حل المسألة اليهودية ، وأخذ ذلك عدة صور هى :

* إبادة النازية لعدة ملايين من اليهود حرقاً .
* إقامة دولة لليهود فى فلسطين وتشجيعهم على الهجرة إليها للتخلص منهم .
* تبنى العلمانية التى لا تُميز على أساس دينى .
* التحالف بين اليهود والغرب لإخضاع العرب ، حيث تعهَّد الغرب بحماية وتقوية « إسرائيل » لاستخدامها كحربة فى ظهر العرب والمسلمين .

* تزاوج المصالح بين الصهيونية المسيحية والصهيونية اليهودية ، كما سنرى فى موضع آخر من هذا الكتاب .

- إهمال الدين فى الحياة الاجتماعية والسياسية .

ومن هنا كان لا بد لهم من العلمانية حيث الدين أدى إلى التفكيك بدلاً من التوحيد ، وغدت العلمانية انعتاقاً وتحرراً للإنسان، فأُنشئت الدولة الديمقراطية العلمانية، وهى اليوم يُنْظَر إليها كأرقى تنظيم سياسى بلغه الإنسان ، حيث توفرت الحرية السياسية ، وأُلغيت الفروق والامتيازات الخاصة ، وحرر الإنسان من سلطان الدين ليكون له الخيار الشخصى ، والوازع الفردى .

وتنظر الديمقراطية العلمانية للإنسان على مستويين :

- مستوى عام : حيث للمواطن حقوق سياسية وعليه الخضوع لسيادة القانون فى الدولة .

- مستوى خاص : حيث للإنسان خصوصياته ، ومعتقداته ، ورؤاه الخاصة ، ويمكن له أن يؤمن بدين ما ، أو لا يؤمن بدين على الإطلاق ، وله أن يصير كل يوم إلى شأن ، فيصبح بأمر ما مؤمناً ، ويمسى به كافراً .

وهذا الإطار التحررى للديمقراطية والعلمانية هو الذى خدع كثيرين فى الشرق للإيمان به ، وإنْ كان لذلك الإطار حسناته غير المنكورة إلا أنه تمخَّض فى النهاية عن خدعة كبرى حيث لم يُفلِحْ فى جلب الخير والسعادة الكاملة للإنسان ، ونرى ذلك على مختلف الأصعدة :

- مفهوم الإنسان العام الذى بشّرت به العلمانية لم يتحقق تماماً وفى كل وقت ، بل ما يزال الغرب يميز بين البشر على أساس الدين ، وما يزال يحاول نشر خاصته الدينية على العالم .

- ومفهوم الإنسان العام لم يتحقق أيضاً ، لأنَّ الديمقراطية مازالت غير قادرة تماماً على تجاوز قدرة ونفوذ أصحاب الثروات والامتيازات الخاصة لتوجيه السياسة طبقاً لمصالحهم .

- ومن وجه آخر ما زال تعبير الأقليات موجوداً سواء أكانت أقلية عرقية أو سياسية ، فقد ترِك التمييز على أساس دينى ، واتُّبع التمييز على أساس عرقى جنسى فى الداخل ، أما فى الخارج فالتمييز القومى المتعصب يعود بنا إلى الجاهلية المبغضة .

أما الإسلام فهو يُعطى الإنسان أكثر مما أعطته الديمقراطية العلمانية بكثير ، فهو يُقدم للإنسان إطاراً فكرياً ومنهجاً عملياً معاً : فالإطار الفكرى الذى ترك للحرية الفردية فى الغرب صار ضيقاً بحدود المادة والحياة الدنيا ، وصار الهدف الأساسى هو تحقيق أكبر قدر من اللذة والمنفعة المادية ، أما المنظور الفكري الإسلامى فهو عبودية الإنسان لله ، فالإنسان مخلوق لمقصد أنْ يعرف الله ويُوحده ، والإسلام من هنا تحرير للإنسان من الخوف ومن الخضوع والعبودية لغير الله ، أما السيادة القانونية فهى لله بدلاً من أن تكون فى يد بشرية قاصرة ذات أهواء ومصالح محدودة ، ومتغيرة ، وبعبارة أخرى ، فإنَّ اتِّباع أحكام الله خير من أنْ يسوق بعض البشر بعضاً بقانون أرضىّ .

والدولة الإسلامية تتسع - كما اتَّسعت دائماً - لكل الأفكار والنِّحَل والطوائف ، فللجميع حقُّ المواطنة والعمل والتملك والتعبير بشرط عدم الخروج عن نظام الدولة وقانونها الأساسى الذى يحرِّم المجاهرة بالإلحاد والفسوق والعصيان .

والإسلام دين وثقافة يُوحد المجتمع بصيغة إيمانية تُؤدى إلى التعاطف والتماسك والتكافل ، وتقضى على أسباب الشقاق والخلاف إلى حد بعيد ، لأنَّه فكر راقٍ ، وعمل صالح ، وأخلاق حميدة ، وسيرة حسنة ، فهو نعمة عظمى من الله تعالى للبشر جميعاً ، لا يُميز بينهم على أُسس عرقية أو قومية ، وهو يجعل مَنْ أتباعه قلوباً مفتوحة لكل البشر بالتسامح والرغبة فى الهداية والخير ، فقلب المؤمن يسع العالم ، ولا يضيق بغير المؤمنين .

وهذا الفهم هو ما نفتقده لأننا ظننا أنَّ الأخذ ببعض أشكال من الدين هو الدين ، وهو فى الحقيقة نفى للدين الكامل ، والدولة الإسلامية ليست هى الأرض التى يكثر بها المآذن وتؤدى الصلوات والزكوات والصيام والحج والعمرة .. ولكنها الدولة التى تسخِّر كلَّ الإمكانات لخدمة الدين ، ونشر الفضيلة ، وإقامة العدل والتمكين للحق ، ومجاهدة الباطل ، حيث الحياة لله ، والممات له أيضاً .

٨ – ثورة إسلامية أم خطر أصولى ؟

عقب الثورة الشيوعية الروسية ، كتب « تروجانوسكى » بداية من عام ١٩١٩م عدة مؤلفات محاولاً تقييم هذه الثورة ، ومتسائلاً : متى وأين تأتى الثورة العالمية الثالثة ؟ وهو يشير بذلك إلى الثورتين : الفرنسية ١٧٨٩م ، والشيوعية ١٩١٧م ، وإلى أن كلاً منهما قد فشلت فى ناحية معينة ، وأن العالم فى حاجة إلى ثورة قادمة تستطيع أنْ تُصحح من مسارات الحركة الإنسانية ، ويجيب تروجانوسكى ، بأن تلك الثورة لن تأتى إلا من العالم الإسلامى .

وكان مستشار الخارجية البريطانية ، المستشرق المعروف جب – يُحذر من الانفجار المفاجئ للقوى الإسلامية بقوله (١) :

« إن الحركات الإسلامية تتطور بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة .. فهى تنفجر انفجاراً مفاجئاً قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعوهم إلى الاسترابة فى أمرها ، فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة .. لا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين » .

وعن هذه القوى الإسلامية الجبَّارة التى تفتقد القيادة يقول لويس برنارد – الأستاذ بجامعة برنستون ، وكان رئيساً لقسم الدراسات الإسلامية بجامعة لندن (٢) :

« الإسلام قوة جبَّارة جداً ، ولكن ما زال بحاجة إلى التوجيه السياسى . فإذا كان الإسلام لم يلعب دوره فى المجال الدولى ، فما ذلك إلا لفقدان القيادة التى تستطيع القيام بذلك ، ولكن ظهور هذه القيادة محتمل جداً . إنَّ وصول الإسلام إلى مركز القوة أمر له خطورته ، فهل سيتسامح الإسلام مع غير المسلمين ؟ هل سيتسامح مع اليهود فى « إسرائيل » ؟ أو النصارى فى لبنان ؟ أو مع أوربا ذات الخلفية الصليبية ؟ إنَّ الإسلام

(١) عن : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر .

(٢) مجلة الأمة – العدد ٢٠ ، شعبان ١٤٠٢ هـ – ص ٢٠

دين قـوة ، والمسلمون يحتكـرون تفسير الصواب والخطأ ، ولا يسمعون لغيـرهم ، فإذا لم ينتبه إلى خطر الإسلام فإنَّ أمّتَي السبت والأحد سيعانون نتائج وخيمة » .

وطبقاً لجاك بولين فإنَّ الخوف من الإسلام كان ملازماً للغرب حتى أنَّه خشى من ازدهار القومية العربية فى الستينات من هذا القرن أنْ تكون صدى لدوافع إسلامية ، وهو يقول (١) :

« كان البوليشفيك عقب الثورة الشيوعية بعبعاً بالنسبة لكثير من الأوربيين ، ومنذ الحرب العالمية الثانية تمدن ولم يعد يصور ذلك الرجل الذى يحمل « سكيناً بين أسنانه » وأصبحت هذه الصورة ملازمة للقومية العربية ، والجميع - اليوم - يراقبون هذه الظاهرة فى الحقل الدولى ويحسبونها جديدة ، وهم يتساءلون عن ماهيتها وأهدافها ، إنَّ البعض لا يرون فيـها سوى لون من ألوان التعصب الإسلامى ، ومعنى ذلك أنَّ دراسة النزاع التقليدى بين الديانتين الإسلامية والمسيحية هى وحدها التى تستطيع أن تُلْقِى ضوءاً على هذه القضية ... » .

أما سنوات السبعينيات ، فهى كما يقرر جيل كيپل ، كانت تحمل مفاجأة للغرب ، حيث صعدت الحركات الإسلامية - من ماليزيا إلى السنغال ، ومن الجمهوريات الإسلامية السوفياتية إلى الضواحى الأوربية المأهولة بملايين المهاجرين المسلمين الحضريين - إلى مقدمة المسرح ، وكان ذلك مفاجأة لكثير من المراقبين الغربيين الذين اعتادوا اعتبار ديانات العالم الثالث بقايا فلكلورية ، فإنَّ انبعاث الإسلام فى شكله السياسى لم يكن سوى الجزء المرئى من حركة عميقة واسعة ، تجهد لإعادة الإسلام إلى (أسلمة) الحياة اليومية والعادات ، ولإعادة تنظيم الحياة الفردية انطلاقاً من النصوص القديمة .

ويضيف كيپل عن طبيعة هذه الحركة « أنها تستند إلى قطيعة ثقافية مع منطق الحداثة الدنيوية التى تعزى إليها كافة اختلالات مجتمعات العالم الثالث، ابتداءً بالتفاوتات الاجتماعية ، وانتهاء بالاستبداد ، ومن خلال النقص الكاسح فى الاستخدام إلى الفساد الغالب العام ، ولأنّها تضم بين صفوفها العديد من أصحاب الشهادات والاختصاصات ولاسيما فى الميادين العلمية ، فإنّها تطمح إلى فصل التقنيات الأكثر تطوراً - وهى التى تعتزم تملكها والتحكم فيها - عن قيم العلمنة الدنيوية التى ترفضها ، وذلك من أجل تنصيب خلقية حياة يغلب عليها خضوع العقل لله » (٢) .

---

(١) جاك بولين : مصدر سابق - ص ١٣ . (٢) جيل كيپل : مصدر سابق - ص ١٦ .

وهكذا كان انهزام الحداثة فى العالم الإسلامى وإخفاق التغريب الذى تبناه الغرب لاجتثاث جذور الثقافة الإسلامية ومحو الهوية الخاصة للمجتمعات المسلمة تحت لافتات التصنيع والتمدين والقومية والتنمية – بدايةً لبعث دينى قوى ، وزخم ثورى ، وتغيير جذرى يرفض الدخيل الذى كرّس التخلف والتجزئة والتبعية ، ويعتمد أسس الهوية الإسلامية فى أسلوب الحياة وأنماط السلوك والنظام الاجتماعى والمؤسسات الثقافية والجوانب الروحية والنفسية .

وأبرز ملمح للحركة الإسلامية المنظمة التى أخذت مسارها الصاعد (منذ سقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م فى تركيا) ، أن بدأت تطرح نفسها بثقة فى السبعينات كبديل قائم وليس مجرد حركة احتجاج ، كما كان يُنظَر إليها من قبل ، واختُتِم هذا العقد بمصطلح جديد دخل فى قاموس السياسة الدولية ، وهو الثورة الإسلامية حين قامت فى إيران ، وكان نجاحها نقطة تحول فى نظر الغرب للإسلام حيث ساد إحساس بأنَّ المارد الإسلامى قد بدأ يقظته الحقيقية ، وأنَّ الحركة الإسلامية قادرة على تحريك الجماهير ، وإعادة صياغة موازين القوى فى العالم .

وكان نجاح المجاهدين الأفغان ضد الجيش الأحمر الروسى ، والصمود فى مواجهته بقوة العقيدة وشموخ الإسلام محركاً للعاطفة الإسلامية ومفعِّلاً للروح الجهادية فى العالم الإسلامى قاطبة .

وشهدت الثمانينات زخماً جديداً للعمل الإسلامى أبرز أن الحركات الإسلامية هى القوة الوحيدة المنظمة والمؤهلة للتحرك بسرعة لملء الفراغ السياسى ، وقيادة حركة شعبية جمعت الجماهير نحو رغبة أصيلة للنهوض وإقامة حضارة إسلامية جديدة تحقق إنسانية الإنسان وكرامته وتنشر العدل والخير فى العالم الثالث .

وعُدَّت ثورة المساجد فى فلسطين أبلغ ردٍ على « الأصولية اليهودية » ، حيث خرجت الانتفاضة الفلسطينية من بيوت الله لتحييَ الجهاد فى سبيل الله ، وترفع راية إسلامية صريحة فى وجه راية يهودية أصولية متطرفة ، وأخذت هذه الانتفاضة كلاً من «إسرائيل» ومنظمة التحرير العلمانية على غرة ؛ لأنَّها ظاهرة جديدة تحمل شعارات جديدة ، فالذين ينشطون فيها أحداث يتظاهرون وينتفضون يومياً وهم يهتفون : الله أكبر ، وهم يشكلون فعلاً قيادة بديلة أسوأ فى رأى الإسرائيليين مما عليه منظمة التحرير الفلسطينية ، لأنَّها عندهم تمثل التشدد « الأصولى » .

وما يُسمَّى «إسرائيل» لا تقلق من شيء قدر قلقها من الروح الإسلامية حين تتحرك ، وهى قد نجحت في ترويض مَنْ يحملون حوافز قومية ضيقة ، ولكنها تدرك أنه من المستحيل ترويض مَن يحمل دوافع إسلامية ، فاليهود لهم تجاربهم التاريخية المريرة مع الإسلام ، وهم لا يثير ذعرهم شيء قدر الشعارات الإسلامية التى يرفعها الإسلاميون النشطون من حركة حماس والجهاد الإسلامى ، حيث الجهاد هو ديناميكية الحياة الإسلامية ، جهاد لا يتوقف عند تحرير فلسطين بل يمتد لمقارعة كلّ باطل متكبر .

وماذا تفعل « إسرائيل » وهى ترى المتعلمانيين والمتقدميين وكثيراً من القوميين يستسلمون أو يسلّمون ، ولا يبقى على خط القتال إلا الإسلاميون من حزب الله وحماس وغيرهم ، لا ترهبهم قوة السلاح ولا الموت الاستشهادى ، إنّ من حق « إسرائيل » أن ترى فى الإسلاميين بعد ذلك العدو الحقيقى الباقى خارج الاستحواز ، وقد عبّر عن ذلك شيمون بيريز (وزير الخارجية الأصولى) فى كتابه الأخير حول السوق شرق الأوسطية قائلاً :

« إنّ الخطر الأصولى هو الذى دفعنا نحن والعرب معاً لقبول التفاوض حول الحكم الذاتى ، وإننا اتّخذنا هذا القرار بعد أن وجدنا أنّه من مصلحتنا سوياً - نحن والمنظمة - لأنّ البديل الذى كان علينا أن نتفاوض معه إذا تحطمت المنظمة هو حماس الإسلامية التى تريد تدمير الدولة الصهيونية » .

وتستمر الحركة الإسلامية فى تطوير عملها ، وتأكيد خبرتها بالواقع الذى تعالجه ، فتُنوع من آلياتها وتكتيكها مع نهاية الثمانينات وبداية التسعينات ، ويسيطر الإسلاميون على كثير من المنظمات الثقافية فى شمال أفريقيا التى لم تكن ذات صبغة إسلامية من قبل ، أى أنّ وجهتها قد تحولت على أيديهم ، كما سيطروا على كثير من النوادى الرياضية التى تجتذب أعداداً كبيرة من الشباب ، وهيمنوا على الاتحادات الطلابية والنقابات والاتحادات العمالية ، وبعض الأحزاب ومؤسسات التعليم ، ويُبين جانباً من ذلك قول روبين رايت :

« لقد ارتبط الإسلام الحركى فى العقلية الغربية طوال الثمانينات بالتطرف السياسى والإرهاب ، واحتجاز الرهائن والعمليات « الانتحارية » ، ومع اقتراب العقد من نهايته بدأت الصحوة الإسلامية مرحلة جديدة ، إذ بدأت الحركات الإسلامية بالمشاركة فى

النظام السياسى بدلاً من معارضته ، وازداد اجتناب النموذج الإيرانى ، واستُبدل برصاص المتعصبين صناديق الاقتراع » .

ونظن أنَّ روبين رايت يعنى النجاح الساحق الذى أحرزته الجبهة الإسلامية للإنقاذ فى الجزائر ، إذ حازت ثلاثة ملايين ونصف مليون صوت فى المرحلة الأولى من الانتخابات النيابية ، وكان مؤكداً أنْ تكتسح السباق فى المرحلة الثانية من الانتخابات وتشكل بذلك الحكومة ، ولكن العسكريين من المتعلمانيين والمتقديميين اعتبروا وصول الإسلام إلى السلطة « خطراً على الديمقراطية » ، فأوقفت العملية الانتخابية ، وانقلب العسكريون المتفرنسون على الديمقراطية باسم الديمقراطية ، مدّعين بوقاحة بأنهم يضحون بالديمقراطية لإنقاذ الدولة !

وتولّى هؤلاء المتفرنسون مهمة محاربة الشعب فى اختياره ، وابتدأوا صراعاً مريراً ، ولم يزل الانقلابيون يرفضون العودة إلى صناديق الاقتراع الشّفافة ، ومهما حاول هؤلاء، فلن يستطيعوا الوقوف فى وجه اختيار الشعب المسلم ، ولن تفلح محاولاتهم لصق أعمال القتل والاغتيال بالإسلاميين ، وأغلب الظن أنهم هم وراء هذه الأعمال ، إذ هى تعطيهم « مصداقية » زائفة للبقاء ودوراً موهوماً للعمل .

ولأنَّ السودان أقام دولة رفعت شعارات الإسلام واضحة وصريحة ، لم يكن له أنْ ينجو من إثارة الشبهات وإعلان الحرب الإعلامية والاقتصادية ، بل وضع على القائمة الأمريكية للدول المساندة للإرهاب ، ورميت حكومته الإسلامية بأنها أصولية ، ولعلّه خير، فالآن نعرف يقيناً ماذا يعنى الغرب وأعداء الإسلام من إطلاق تهمة الأصولية على حكومة أو دولة أو جماعة أو فرد ، فالغرب يرى فى الحكومات « الأصولية » مثلما فى السودان خطراً على نفوذه ومخططه للعالم ، فمن المرفوض فى الغرب أن يرى العالم نظاماً إسلامياً صحيحاً على الأرض ؛ لأن ذلك من شأنه أن يغرى بظهور المزيد من الأنظمة الإسلامية ، كما من شأنه أنْ يُظْهر حقيقة النظام الإسلامى الذى تعرض للتشويه فى دراسات وأدبيات وأقلام الغرب ، والتحريف على أيدى عملائه فى الشرق ، كل هذا على الرغم من رفض السودان القتل والاغتيال باسم الدين ، وبراءته من العدوان على المدنيين وتهديد الآمنين .

لقد اتّضح مكمن الخطورة ، وهو استقلال فى القرار السياسى والاقتصادى والاعتماد

على الذات أو تحرير التراب من المتمردين والمتغربين وأزلامهم ، والاستغناء تماماً عن المساعدات والمعونات الخارجية ، ولم يعد بذلك للسفراء دور فى الحكم ، وتلك هى « الأصولية » كما يراها أعداء الله ، إنها منهج للتغيير على طريق الإسلام كمرجعية وحيدة للإصلاح ، وهى ليست بذلك خروجاً على نظم سياسية وبنية اقتصادية محدودة فقط ، ولكنها تحدٍّ جذرى لروح الحضارة الغربية ، وتغيير ثقافى وأخلاقى شامل ، برىء من الإرهاب ، يحفظ إنسانية الإنسان وحريته ودمه وعرضه وماله ودينه .

وكانت التسعينيات تحقيقاً لهاجس الغرب عما دعاه « الأصولية الإسلامية » التعبير الذى رفضناه فيما مضى ، وكان التحدى متعاظماً مما حفّز كثيراً من المؤسسات الفكرية والثقافية ومراكز البحوث والدراسات للتركيز عليها ، ووضعتها وسائل الإعلام فى الشرق والغرب تحت الأضواء ، وصورت كالعدو الخطر الوحشى المتربص المثير للذعر ، ليس للغرب فحسب ، ولكن للعالم كله ! واستخدمت مصطلحات وتعبيرات بدءاً من : الحركات الإسلامية ، وحركات الإسلام السياسى ، والنشطين الإسلاميين ، والإسلامويين المتشددين ، ومروراً بحركات الإحياء الدينى ، والسلفية الرجعية ، والإسلاموية، والأسلمة، والتأسلم ، والإسلام الشعبى ، وإسلام العامة ، وانتهاءً بالإرهاب الأسود ، والفكر الظلامى المتستر بالدين !

ولم يكن الخطر أو التحدى الإسلامى يأتى من سلاح سرى فتاك ، أو قاعدة تكنولوجية متطورة ، ولكن كان الخوف - كما عبّر مسئول مخابرات أمريكى فى مجلة سبوت لايت - من جيل جديد نشهد ولادته وهو يمهد لعودة الإسلام من جديد ، إنّه جيل لا يعرف معنى الخوف ، ولا يعبأ بالموت ، ولم يكن يوجد من هو على شاكلته قبل عشر سنوات ، وما لم يوقف الآن فإنه سينتشر فوق نصف الكرة الأرضية !

وهناك وجه خطر آخر للإسلاميين - فيما يرى إيمانويل سيفان - وهو أنها تقيد خصومها فى الداخل ، وتحدُّ من حرية تحركهم ، ومن هامش المناورة الذى يتمتعون به ، وفى رأيه أن المفاوضين فى الدول العربية إذا كانوا غير قادرين على قبول قسم كبير من الشروط التى يضعها صندوق النقد الدولى ، فلأنهم يخافون من أن تستغلها الحركة « الأصولية » ، وهذا يعنى أنّ هامش المناورة لديهم قد ضاق ، وأنهم إلى حد ما رهينتها.

ولذلك رأى هؤلاء الخصوم أن الحكمة تقتضى ممارسة كل أشكال التصفية ضد العمل الإسلامى وأيدهم فى ذلك الغرب ، وهؤلاء الخصوم متسلطون وفاقدو الشرعية

والفاعلية ، اللهم إلا فى تشويه الإسلاميين بنسبتهم إلى العمالة، والتشكيك فى أهدافهم، ونشر الأكاذيب عنهم ، مع أنّ هؤلاء الخصوم يدركون أنّ الغرب إنما يحرص عليهم لتحقيق مصالحه الخاصة فى النهب والتفقير والهيمنة والإذلال للناس ، والوقوف ضد رغبتهم فى العودة لخصوصياتهم الدينية والثقافية ، واتُّبِعَتْ فى ذلك السياسات الآتية :

– الدعاية ضد العمل الإسلامى بأنّ دعاته قتلة ومجرمون ولصوص ، ومنحرفون ، ومرضى نفسيون ، وأصحاب شهوات وأهواء لا مبادىء وجهاد ، وأنهم عملاء يتلقون الأموال من الخارج ، وأنّ غايتهم السلطة ليحكموا بالحديد والنار ، ووصل الأمر إلى تكفيرهم بعد الزعم بخروجهم على الشريعة ومذاهب الأئمة ، وانتهاكهم الكبائر والمحرمات، وكما يقول المثل العربى : « رمتنى بدائها وانسلّتْ » ، وبالطبع لا يملك هؤلاء وسائل إعلام ودعاية لتوضيح الصورة الصحيحة ، والدفاع عن مبادئهم ، وبيان أهدافهم ، ودحض الأكاذيب والافتراءات .

– تخويف الجماهير منِ دعاة الإسلام بزعم أنهم – إن حكموا – ستُكبت الحريات ، وتُنصب أعواد المشانق ، ويحارَب الفن وتسجن المرأة فى قمقم ضيق ، واستخدام وسائل الإعلام والثقافة والتعليم للتأثير على الجماهير ، ومحاولة إقناعها بعداوة مزعومة بينها وبين دعاة الإسلام ، ومحاولة وضع حواجز كثيفة تمنع التفاعل وتقطع الطريق على المد الإسلامى .

– الإرهاب الفكرى عن طريق إطلاق تسميات وصفات مثل : الأصولية والخوارج ، وجماعات الفكر المتخلف ، وأفكار العصور الوسطى المنحرفة ، والعودة للظلامية ، وكأننا نعيش الآن فى ظلهم على شيء من التقدم والحرية والسلام والأمن ، وحيث يهدد « التطرف » ما أحرزوه من مكاسب ومغانم !

– تجفيف منابع التدين بنشر الفساد والمجون والخلاعة وخصوصاً بين الشباب ، واستغلال وسائل التربية والتثقيف فى صرف الأجيال الجديدة عن حقيقة الدين .

– تبنى شعارات وصور عن التدين الشكلى ، وترويجه عن طريق رجالِ دين السلطان لقطع الطريق على التدين الصحيح والدين الكامل ، وخداع الجماهير عن لُب الإسلام .

– العزل السياسى والوظيفى والاجتماعى للدعاة ، والتضييق عليهم إنْ اختاروا العمل السياسى ومارسوا الانتخابات ؛ ووصلوا للمجالس النيابية ، والنقابات ومؤسسات المجتمع

المدنى ، ويشمل ذلك العزل والفصل من التدريس فى الجامعة وخارجها ، والتحويل إلى وظائف إدارية ، والمنع من التعيين فى الوظائف الحساسة ، ومصادرة الجمعيات الخيرية ، والمؤسسات الخاصة ، التربوية والتعليمية والعلمية الإسلامية ...

ـ التصفية الجسدية ، أو ما يدّعونه اقتلاع « الإرهاب » من جذوره والقضاء على منابعه ، فتتم الاعتقالات لأعداد متزايدة والتعذيب والتهديد ، والإعدام والقتل دون محاكمة ، وأحياناً دون مقاومة ، وتُنْتهَك الأعراض .

ويُبين ريتشارد نيكسون فى كتابه : « انتهزوا الفرصة » سياسة الولايات المتحدة فى تأييد « التحديثيين » دون مَنْ أسماهم الأصوليين والراديكاليين ، وهو يقول :

« يجب علينا أن نَعترف بأنَّ الحركات السياسية المختلفة فى العالم الإسلامى تقع فى إطار ثلاثة تيارات فكرية أساسية :

الأصولية : صور تلفزيونية مألوفة ومؤلمة – عصبوا أعين الرهائن الأمريكيين وطافوا بهم أمام سفارتنا فى طهران ، ٢٤١ بحاراً أمريكياً قتلوا بسبب الشاحنة التى نسفت فى ثُكناتهم فى بيروت ، والرهائن الأمريكيون الذين اختطفوا وأصبحوا قيد الأسر فى جنوب لبنان ، هذه الأحداث تلخص العنف السياسى للأصوليين الإسلاميين المتطرفين على المسرح العالمى ، إنهم مدفوعون بكراهيتهم الشديدة للغرب وتصميمهم على استعادة تفوق الحضارة الإسلامية عن طريق إعادة الماضى ، وهم يسعون إلى تطبيق الشريعة ، وعلى رغم أنهم ينظرون إلى الماضى كمرشد للمستقبل ، فهم ليسوا محافظين ، وإنما ثوريون ، وقبل أنْ يبنوا الجديد ، فإنهم يعتزمون تدمير القديم .

الراديكاليون : ديكتاتوريون وطنيون علمانيون قمعيون .

التحديثيون : يقومون بالأخذ من الغرب ، ويُجرون عملية دمج ثقافى » (١) .

ثم يقول نيكسون بلا مواربة (٢) .

« علينا أنْ نُدعّم التحديثيين فى العالم الإسلامى لمصلحتهم ومصلحتنا ، إنهم فى حاجة لإعطاء شعوبهم بديلاً إيجابياً لأيديولوجيات الأصوليين المتطرفين والعلمانيين الراديكاليين ... » هـ

(١) نيكسون : انتهزوا الفرصة – قايتباى للنشر ١٤١٢هـ – ص ٤٥ ، ٤٦ .
(٢) المصدر السابق – ص ٤٧ .

وهو يُضيف عن هذا الدعم [١] :

« إن مفتاح سياسة الولايات المتحدة إزاء تمييز التعامل يكمن فى التكفل بتعاون استراتيجى مع الأنظمة التحديثية فقط ، والحد من علاقاتنا مع الأصوليين المتطرفين ، والأنظمة الراديكالية إلى تعاون تكتيكىْ ، ولأنّنا نشترك فى أهداف عامة مع التحديثيين ، فإنَّ تعاوننا يجب أن يغطى المجال الكامل للقضايا الاقتصادية والأمنية ، ولأنَّ قيمنا ومصالحنا تتعاكس مع مصالح وقيم الأصوليين المتطرفين والراديكاليين ، فإنَّ روابطنا معهم يجب ألاَّ تتعدى متطلبات اللحظة ، ويجب علينا أن نتعامل معهم عندما تُكسبهم قوتهم مكاناً على الطاولة ، ولكن يجب ألاَّ ندخل فى شركة واسعة معهم ، ولا يجب علينا أن نعزل الراديكاليين الأصوليين تماماً من خلال الحظر التجارى وسياسات مشابهة ... » .

وهكذا « تتعاون » الولايات المتحدة والغرب مع « التحديثيين » المتغربنين ، وربما أحيـاناً مع « الراديكاليين » الوطنيين ، ولكن التفاهم أو التعاملِ مع « الأصوليين » ، فهو أمـر لم يروض الغـرب نفسه على قبـوله ، ومع أنَّ الغربيين يُكررون مراراً أنهم ضـد « الأصوليين » لأنهم يرون فى تطبيق الشريعة الإسلامية عملاً ضد الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان ، وأن الدولة الإسلامية تعنى نظاماً قمعياً ديكتاتورياً تحكم بالحق الإلهى ويفرض الدين بالقانون ، إلا أنهم يُدعَمُونَ فى الوقت نفسه النظم الديكتاتورية فى العالم الثالث ، مادامت تحافظ لهم على مصالحهم الخاصة ، وفى هذا يقول مصطفى أمين ساخراً فى كتابه : « أمريكا الضاحكة زمان » [٢] :

« الأمريكى يُحب السرعة ، وهذا سرُّ تخالف السياسة الأمريكية مع الدول الديكتاتورية، فإنَّ من السـهل أنْ تتعـاملِ مع الحـاكم الفـرد ، ومن الصـعب أنْ تتـعـامل مع الدولة الديمقراطية ، فلابد أنْ يُعْرَض الأمر على مجلس النواب ، ثم مجلس الشيوخ ثم اللجان البرلمانية ، وقد تهاجِم الصحف الاتفاق ، ويثور الرأى العام عليه ، وتضطر الحكومة الديمقراطية إلى التمهل فى إمضاء الاتفاق حتى يهدأ الرأى العام ... وهكذا تقضى أمريكا سنوات مع الدولة الديمقراطية فى مفاوضات ومباحثات ؛ على حين تستطيع أن تصل إلى نفس الإتفاق مع الحاكم الفرد فى بضع دقائق » .

---

(١) المصدر السابق نفسه – ص ٤٨ .

(٢) كتاب اليوم – مؤسسة أخبار اليوم – العدد ٢٩٧ ، أغسطس ١٩٨٩م – ص ١١ .

٩ - إعادة أسلمة وتنصير وتهويد العالم

سباق حركات الإحياء الدينى مع العلمانية

من أصدق ما كتب فيلسوف العالم جارودى [(١)] :

« منذ عصر النهضة أى منذ ولادة الرأسمالية والاستعمار فى آن واحد ... النمو الوحيد الواضح هو نمو البؤس العالمى ، بؤس مادى فى العالم الثالث ، وبؤس روحى فى الغرب » .

ويُكمل الكاتب الأمريكى جاك بولين هذه الصورة بقوله [(٢)] :

« العالم الإسلامى اليوم (١٩٥٧) فى النصف الثانى من القرن العشرين خيال وذكرى من ذكريات الماضى ، إنَّه لا وجود له عملياً ، ويماثله فى ذلك العالم المسيحى ، ولنا أن نسأل مَنْ ينكر ذلك : ما هو الشىء المشترك بين الأنظمة السياسية التى تطبق فى فرنسا الكاثوليكية ، والأنظمة الديكتاتورية التى وضعها الجنرال فرانكو فى إسبانيا الكاثوليكية أيضاً؟! ما هو وجه الشبه بين بولونيا الكاثوليكية، وإيطاليا التى ترعى الكنيسة؟ أليس من الخطأ الفاحش والضلال المبين أن نفتش فى الديانة المسيحية عن أسباب التطور السياسى والاجتماعى الذى حدث فى روسيا واليونان ؟ فلماذا إذن نتهافت ونبحث بدأب وجد ونشاط عن تفسير فى الإسلام نفسه لحوادث الشرق الأوسط كلها ؟! إننا سنعجز ولاشكَّ عن أنْ نجد بواسطة الدين تفسيراً لاختلاف الأنظمة بين المملكة اليمنية والمملكة الليبية والجمهورية العراقية ، ولم يعد الدين فى الشرق العربى مرتكزاً تُحلُّ على أساسه المشكلات السياسية والوطنية ... » .

وفى النهاية يقرر جاك بولين أنَّ مفتاح المشكلة يومها كان بين يدى القومية دون

(١) الإسلام دين المستقبل - ص ٢٢ . (٢) مع القومية العربية - ص ٨٥ ، ٨٦ .

سواها ، وكان مركز القتامة فى هذه الصورة عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة – كما يقرر جيل كيبل – إذ انفصل الدين تماماً عن السياسة ، وأخذ حيزاً ظلّ يضيق حتى الدائرة العائلية أو الخاصة ، وبرز « التنويريون » العقلانيون الدنيويون ، وفى هذه الفترة حاول الدين أن يتوافق مع قيم الحداثة ، وتمثل فى محاولات : إلحاق الكنيسة بالعصر ، وتحديث الإسلام ، وفى حدود سنة ١٩٧٥م بدأ يتكون خطاب دينى جديد لا يهدف إلى التكيف مع القيم الدنيوية ، وإنما إلى إعادة تنظيم المجتمع على أسس جديدة ، ولو بتغيير هذا المجتمع إذا اقتضى الأمر ، وعبّر هذا الخطاب الدينى عن فشل الحداثة ، وقد نسِبَ هذا الفشل إلى الابتعاد عن الله ، وبالتالى طُرِحَتْ شعارات « الأسلمة أو التحنيف » و « تنصير ثان لأوربا » و « معاودة التهويد » ، واتّخذت هذه الظاهرة بُعداً كونيا ، وشملت المعمورة كلها ، والأديان جميعها ، ومن هنا كانت معاودة تأكيد الإسلام المدوّية لذاته لا تعود إلى أسباب خاصة بالعالم الإسلامى وحده ، وإنما هى نتيجة لفقدان الحداثة الخاصة بالسبعينات لمصداقيتها .

ويُحدد جيل كيبل معالم طريق هذا الإحياء الدينى فى الآتى :

صعود الليكود فى إسرائيل ١٩٧٧م واختلافه مع الأحزاب الدينية حيث حققت الحركات الصهيونية الدينية التى عرفت انكفاءً وكسوفاً طويلين ، اختراقاً فكاثرت بخاصة من إنشاء المستوطنات اليهودية فى الأراضى المحتلة ، وذلك باسم عهد خاص وميثاق نوعى جرى بين الله و « الشعب المختار » ، وتسعى الأحزاب اليهودية الدينية إلى التقيد الصارم بالعبادات ، والتوكيد على قراءة السنة اليهودية ، والتعبير عن الإيمان وسيادة الطقوس ، والتقيد بأحكام المذهب فيما عنى الحياة فى هذا العالم .

– صعود الكاثوليكية ١٩٧٨م برفع الكاردينال البولونى « كارول فويتيلا » إلى سدة البابوية فى الكنيسة الكاثوليكية ، وتنامى الجماعات اللدنية فى الكاثوليكية الأمريكية ، ومنها إلى أوربا الغربية والشرقية بحيث شَكّلتْ طوال الثمانينات القوة الصاعدة هناك ، وتحركت هذه الجماعات إلى الإعلان عن بطلان المجتمع الخاضع لربقة العقل وحده ، وتقديم الشهادة من خلال التجربة الجماعية المتحدة للطائفة على ضرورة العودة إلى الله لإنقاذ البشر ، وتعيين الطريق لإعادة بناء المجتمع بالاستناد إلى المبادئ والتعاليم المسيحية .

– صعود الإسلام السياسى والأسلمة ، حيث أظهرت الثورة الإسلامية بإيران ١٩٧٩م، القدرة السياسية الكامنة فى هذا الدين التى زادها ونماها بعض من أتباعه ، وهؤلاء ليسوا

حالات معزولة بل يندرجون ضمن جماعات متتالية أوسع وأعظم أعادت للإسلام بُعده الاجتماعي والسياسي الذى طالما سترته وأخفته مشروعات التحديث التى تولتها النخبات المختلفة بعد الاستقلال [(١)] .

ومن هنا كانت عودة الإنسان إلى الدين فى عصر بلغ فيه الإنسان درجة عالية من العلم والرُّقى الفكرى أمراً طبيعياً ، وقد ظنَّ الإنسان لبعض الوقت حين فتِح باب العلم والتقنية فى هذا القرن أنه سيكتفى بهذا « الإله » الجديد : العلم ، عن الغيبيات ، وحيث تعددت المدارس الفكرية والفلسفية التى بلبلت فكر البشر وعبَّرت عن ضياعهم وانسحاقهم أمام محاولات فهم غاية وجودهم .

ومع الأيام تسقط الشيوعية والوجودية والعلمانية ، ويبقى الإنسان بأشواقه الدينية وتطلعه إلى محبة الله تعالى ، وخصوصاً فى بلادنا الشرقية التى ظهر لها انخداعها حين اتّبعت أفكار الغرب وقيمه وثقافته ، والظاهرة الفريدة التى تعبر عن هذا المعنى هى توبة الفنانين والفنانات ، وإقلاعهم عن حقل الفن الأسود ، ومن الطريف أن نرى دعاة التنوير والتقدمية تبلغ قلوبهم الحناجر من الغيظ ، وتزيغ منهم الأبصار حين رأوا أنَّ جنودهم وطليعتهم من الفنانين يتراجعون ويفرون من « الميدان » ، مما جعل أقلامهم تسارع لتعلن لنا أنَّ الأمر ليس أكثر من « اعتزال » !

ومن الخطأ التركيز على حركات الإحياء الإسلامى وحدها ، وإغفال أنَّ هناك حركات إحياء نصرانية كاثوليكية وبروتستانتية فى أوربا وأمريكا ، تجرى على قدم وساق فيها عملية معاودة تنصير للغرب العلمانى من داخله ، وهى حركة موازية للأسلمة فى ديار الإسلام شملت الربع الأخير من القرن العشرين ، وكما أنَّ هناك حركات وجماعات إسلامية ومؤسسات ومنظمات تخدم عملية إحياء وتجديد الإسلام ، فهناك حركات وجماعات مسيحية ، ومؤسسات ومنظمات تنتشر على وجه أوربا وأمريكا والعالم الثالث تسعى لإحياء المسيحية ، وتحارب العلمانية ، وبعض هذه الحركات والجماعات الأخيرة يوصف بالأصولية .

أما فى أوربا والغرب عموماً ، فقد كان لهذه العودة إلى الدين أسبابها الظاهرة كما يُقدمها جيل كيبل فى التضخم الاقتصادى الذى أدى إلى إعادة هيكلة الاقتصاد ،

---

(١) جيل كيبل : مصدر سابق – ص ١٥ .

وحيث أدت مشكلات البيئة والتلوث والإفراط فى التسلح إلى قلق متزايد وضاغط على مستقبل الكرة الأرضية ، فى حين أدت الثورة الالكترونية التى أدخلَتْ كمية هائلة من الصور والمعلومات إلى كل منزل ودار ، أدت إلى انقلاب لا سابق له فى القواعد الخلقية ، وأفضى ذلك كله إلى تحـول فظ فى أنماط تلقن وتلقى القيم ونقلها وتبليغها ، وانغلاق الأسرة وانعزالها فى المجتمع .

وفى شرق أوربا أدى سقوط الشيوعية إلى تحرير حيز أيديولوجى شاسع كانت الماركسية تُمارس عليه قبل ذلك رقابة وثيقة ، وكان للكنيسة دورها فى إسقاط الشيوعية فى بولندا، كما بدأ تأكيد قادة نقابة تضامن « رمز مقاومة المجتمع المدنى فى بولندا لعملية الصهر السوفيتية » على كاثوليكيتهم، ثم تعيين رئيس وزراء كاثوليكى فى صوفيا سنة ١٩٨٩م، وكأنه يشير إلى أنَّ « عودة الدين » إلى المسرح السياسى هى النتيجة المحتومة للخروج من الشيوعية ، بل إنَّ بولندا بدت وكأنها أصبحت أمثولة أو مصدر إلهام « لأنجلة – (من إنجيل) – أوربية ثانية » ، وهو أحد الأهداف الرئيسية لبابوية يوحنا بولس الثانى .

ورأت بعض التيارات داخل الكنيسة فى هذه الأحداث نهاية دورة الحداثة التاريخية التى بدأها عصر التنوير ، والتى اتّسمت بانعتاق عقل مفرط الثقة فى نفسه إزاء الإيمان ، وعلى العكس من بعض صياغات مجمع الفاتيكان الثانى التى كانت تجهر لإعادة إدراك « قيم التقدم » المستخلصة فى إطار الأيديولوجية الدنيوية العلمانية داخل منطق مسيحى ، فإنَّ معاودة التنصير التى انتشرت فى الربع الأخير من هذا القرن تُقابَل بين عالم أصبح « على جرفٍ هارٍ » وأخلاقية كاثوليكية تنفرد بكونها تحمل المستقبل ، « نحن فى بداية العصر المسيحى » كما يكتب الكاردينال لوستيجر ؛ « فالغرب اليوم (والعالم كله ولا ريب) قد ألغز على نفسه واستبهم ويجد ذاته مواجهاً بأسئلة رهيبة لم يدْرِ بها قبل الآن خاطر ، ويتعرض لامتحان بحيث إنه بات عليه الافتراض بأنَّ ظهور المسيح هو وحده الذى يوفر له المفاهيم ويعطيه القوة للاضطلاع بمصيره » .

« وتُترجَم إعادة التنصير بظهور حركات كاثوليكية تطمح إلى الضغط على السلطة السياسية أو الوصول إليها ، وذلك من أجـل تغيير أو تعديل التنظيم الاجتمـاعى بفرضه « من فوق » وداخل وجهةٍ موافقةٍ لسلطة الكنيسة العقائدية كما تفهمها هذه الحركات، ومن أجل مكافحة « العلمانية » ، غير أنّه كان بين آثارها ازدهار وتكاثر مجموعات الهبة اللدنية التى يجاهد أفـرادها لعيش حياتهم اليومية داخل إطار جماعى – متحدى ، عيشاً

« مسيحياً » تُغذيه نفحات الروح القدس ، وتضعهم بمنأى عن عوائد ومنطق المجتمع المحيط »[(١)] .

وقد أعلن رجال الكنيسة هزيمة العلمانية وزوال سحرها ، وتراجع حركة التنوير – كما يقول جيل كيبل – ورفضوا هيمنة العقل على الإيمان ، وعدُّوا ذلك منبع الشرور في أوربا من نازية وفاشية وستالينية شيوعية ، ووثنية تعبُّد الإنسان للإنسان مع ما يرافق ذلك من استبداد وقهر ؛ فنسيان الله في تحليلهم هو أصل كل الشرور ، ومن هنا فإعادة التنصير تستدعى حضور الكنيسة فى وحدتها فى مواجهة سلطة علمانية دنيوية ، وتفرض الكفاح من أجل عودة الدين إلى دائرة القانون العمومى ، وعلى الدولة أن تستند إلى قيم وقوانين المسيحية التى هى حقائق لا تخضع للإجماع بل تسبقه وتجعله ممكناً .

« ووفقاً للكاردينال راتسينجر فإنه لا يُمكن وضع هذا المطلب بموازاة تصميم حركات التحنيف أو العودة إلى الإسلام على بناء دولة تتولى تطبيق شريعة الله كما يعبر عنها القرآن ، فتبعية الدولة لحقائق الإنجيل فى العالم المسيحى تحفظ لها (للدولة) حيزاً مستقلاً استقلالاً ذاتياً ، وذلك أنَّ التنظيم الاجتماعى المنبثق عن المسيحية هو اثنينى أو ازدواجى حتى لو كانت جلالة النصاب السياسى الدنيوى أدنى من جلال النصاب المقدس »[(٢)] .

أما فى العالم اليهودى ، فقد شهدت سنوات السبعينات فى العالم اليهودى كله حركة « تشوفا » أى عودة إلى اليهودية ، و « توبة » أى عودة إلى التقيد الكامل بالشريعة اليهودية (هلخا) ، وطبقاً لجيل كيبل – فإنَّ هؤلاء التائبين هم قوم يقطعون صلاتهم بإغراءات المجتمع العلمانى ليُعيدوا تنظيم وجودهم بالاستناد إلى الوصايا والأوامر والنواهى المستخلصة من النصوص المقدسة اليهودية ، وتستدعى هذه القطيعة « مفاصلة » صارمة بين اليهود وغير اليهود (الجويم) ، وذلك لمكافحة الدمج أو الصهر الذى هو التهديد الأعظم الذى يتهدد استمرار وتواصل الشعب المختار[(٣)] .

وهذه العودة شملت يهود العالم فى أمريكا وفرنسا والاتحاد السوفيتى السابق وانجلترا

---

(١) جيل كيبل : المصدر السابق – ص ٦٠ ، ٦١ .
(٢) جيل كيبل : المصدر السابق نفسه – ص ٧١ .
(٣) جيل كيبل : المصدر السابق نفسه – ص ١٥٧ .

وفلسطين ... وشملت عودة شيوعيين وملاحدة وصهيونيين سياسيين وعلمانيين ويساريين إلى أشد طوائف اليهودية تطرفاً مثل الأرثوذكسية وحركة جوش إيمونيم الإرهابية واللوبافيتش .

وفى أمريكا خاصة كانت الحركات الدينية فى السبعينات تخترق كافة شرائح المجتمع ، ولم تكن تقتصرعلى الولايات الريفية والمحافظة الجنوبية ، ولكنها كانت حاضرة فى صفوف البروتستانت البيض الأنجلوساكسون ، ونمت وطورت شبكة وعظ وتبشير وتمويل هائلة بفضل تحكمها الخارق بالتلفزيون ووسائل الاتصال الأكثر تطوراً ، وقد فتحت لبعضها – أيام چيمى كارتر ، ثم أيام رونالد ريجان – أبواب البيت الأبيض ، والمؤسسات العليا ، واستفادت من ذلك لتدفع إلى الأمام مفهومها عن المجتمع المؤسس على « القيم المسيحية » سواء فيما عنى الصلاة فى المدارس ، أو فيما عنى منع الإجهاض .

وقد أثر نشاط ونجاحات الحركة الأصولية البروتستانتية فى النشطين من الكاثوليك حيث امتد عمل إعادة تنصير أمريكا من القاعدة الجماهيرية ، ولكن الحركات الكاثوليكية التجديدية (اللدنية) ستنتشر على وجه الأرض منتقلة من أمريكا إلى أوربا وتطمح إلى تنصير العالم محاولة الاستفادة من تجارب الأصوليين البروتستانت .

ويُمثل هؤلاء اللدنيون جماعات ضخمة فى نشاط اجتماعى ودينى نظروا إلى ضعف الكنيسة الرسمية فتطلعوا إلى ما دعوه إلهاماً من الروح القدس يسمح بعودة إلى الأصول والينابيع من أجل تكوين طائفة مسيحيين حقيقيين فى وسط المجتمع الدنيوى العلمانى ، وهم لذلك يضعون للفرد القواعد المنظمة لحياته الخاصة وسلوكه الاجتماعى ، وتنشيط علاقته بالخالق بعد أن ضعف السلطان العقائدى للكنيسة ، وتنشئ لذلك مؤسسات ومنظمات هيكلية .

ومنذ أواسط السبعينيات طالت فرنسا حركة إعادة تنصير لا تخلو من الأهمية ، غير أنَّ هذه الحركة تجلّت تجلياً عصرياً تقريباً « من تحت » ، أى عبر ازدهار وتكاثر جماعات « تجددية الهبة اللدنية » أو « التجدد اللدنى » بدون أن يكون بوسع هذه المجموعات الانطلاق فى المشروعات الاجتماعية على مستوى واسع أو أن تحتل حيز السياسة .

وهذه الجماعات تدعو إلى إعادة الاعتبار للكنيسة الكاثوليكية الفرنسية ، وهى متأثرة فى ذلك بالجماعات الكاثوليكية الأمريكية ، وتهدف إلى تأكيد الهوية الكاثوليكية هنا فى

إطار إعادة التنصير « من تحت » ، فما تتمسك به الحركة اللدنية هو إصلاح الفرد ، واعتناقه الداخلى للمسيح ، والمريدون يعيشون بضبط حياتهم على الإنجيل « شأن المسيحيين الأوائل » مجاهدين فى ممارسة أقوال المسيح بحرفيتها[١] .

وشهد المجتمع الإيطالى حركة إعادة التنصير « تناول وتحرير » التى تضرب بجذورها إلى سنوات الخمسينات ولكن نجاحها الحقيقى بدأ اعتباراً من النصف الثانى من السبعينات وقد ظلّت هذه الحركة التى أسسها كاهن من أبرشية « ميلانو » هو « دون لويجى جيوسّانى » الذى كان حريصاً على تأكيد القيم المؤسسة للكاثوليكية فى مجتمع إيطالى عَلْمَنَتَه الحَداثةُ فى أعماقه .

وتعنى إعادةُ بناء مجتمع على أسس مسيحية لدى هذه الحركة النضالَ من أجل حضور الكنيسة المرئى فى عالم ابتعد فيه الناس عن الله ، وتعنى إرساء قواعد حياة اجتماعية نموذجية تقودها وصايا وتعاليم الإنجيل التى ستحظى فى النهاية باعتناق الكافة لها ، ولا بد من إعادة خلق « التناول » الذى هو الضمان الوحيد للتحرير الكامل للإنسان للقائه مع المسيح المخلِّص .

وتتبع هذه الحركة منظمات ومؤسسات ، وتُصدِر جرائد ومجلات ، وتملك دور نشر ، ووسائل إعلام ، وتقيم مهرجانات سنوية هائلة ، ولها تنظيمات هيكلية شعبية قوية خاضت صراعاً مع رجال الإكليريك والمؤسسة الدينية الرسمية ، وإنْ كان قد حدث توافق ولقاء مؤخراً .

وتُنظم هذه الجماعة رحلات ومعسكرات تُتيح حياة جماعية طويلة مشتركة يُعاد فيها خلق جو حياة مسيحية نموذجية تكون أقرب قدر ممكن من المثل العليا ، واتّهم البعض الجماعة بأنّها سلفية أصولية رجعية حين حددت أهدافها فى مقاومة ثقافة المجتمع العلمانى ، وحين أجرت خصومة معلنة للعلمانية التى هى مسئولة عندهم عن تعمير الوعى بالهوية الكاثوليكية ، وبما أنها كذلك الرحم المولِّد للماركسية الملحدة .

والواقع أنّ دون جيوسانى يُريد مهاجمة سبب الداء – أى ثقافة عصر التنوير ، أما الماركسية التى يصفها بأنّها الثقافة الغالبة على المثقفين ، ليست سوى الثُّمالة الأخيرة الباقية والأكثر إثارة للمقت بلا ريب .

(١) جيل كيبل : المصدر السابق نفسه – ص ٨٧ – ٩٠ .

وتُجنِّد الحركة مريديها من خلال العمل الجماعى اليومى ، ومثال حياتى حَضَرِىّ مُسْتلهِمٍ من الكتاب المقدس وحياة المسيح ، وإقامة الصلوات الجماعية ، والقداس اليومى، وذلك على عكس ما يحدث فى المجتمعات الكاثوليكية التقليدية ، وهذا العمل الجماعى يهدف إلى ضبط حركة حياة كل عضو على وتيرة واحدة .

وتمارس الجماعة أعمال البر فى مناطق المحرومين ، فتقدم التعليم الدينى والمساعدة الطلابية والمعونة الاجتماعية ، ومحو الأمية ، والخدمة الصحية .

وتملك الحركة شبكة تضامن تُتيح استخداماً أفضل للموارد والطاقات ، وذلك من أجل تشجيع انخراط الشبان والعاطلين ، وهى تقوم بتأمين اتصال بين مؤسسات العمل – أكثر من ٣٥٠٠ مؤسسة عام ١٩٩٠م – وطالبى العمل ، وهى تشجع مع ذلك دورات التكوين والتدريب أو التعليم، وإنشاء المؤسسات فى مناطق الجنوب والوسط المحروم ، وكذلك أعمال التضامن إزاء الهامشيين والجانحين والمدمنين ... إلخ ، وإعادة انخراطهم فى الحياة الاجتماعية ، كما أنَّ الحركة تقوم بعمليات إرسالية تبشيرية لبلدان مختلفة من العالم .

وتندرج هذه النشاطات ضمن تواصلِ الحضور الاجتماعى للكاثوليك وعلى ضوء تعاليم السلطة العقائدية للكنيسة ، وهى تحَل جزئياً وتَنوب وتُعوِض عن قصورِ دولة العناية التى نخرها التبذير والفوضى البيروقراطية ، وعلاقات « التنفيع » ، وهى تقدم نموذج العلاقات الجديد ، الأكثر إنسانية التى ينبغى للمجتمع الكاثوليكى أن يقدمها للأفراد ، وقد جعل منها – نجاحها – قدرة اقتصادية ومالية ، بحيث إنَّ خصومها لم يترددوا فى اتهامها بأنها باتت تُشكل « شركة أم مهيمنة » كاثوليكية .

وكان لهذه الحركة الجماهيرية أثرها فى تغيير وجه المجتمع الإيطالى ، بل إنَّها هزَّت المجتمع هزة أكثر دوياً وعمقاً أدت إلى قطيعة جذرية مع قيم الثقافة العلمانية السائدة ، وإلى عاصفة شديدة فى المجال السياسى نفسه ، حيث دأبت الحركة على التدخل المباشر فى العالم السياسى ، وهى تمثل قوة إسناد للديمقراطية المسيحية بدون أنْ تُشكِّل رسمياً تياراً داخلها ، لكنها تحتفظ بحرية تشجيع حزب سياسى ما ، فتخوض على سبيل المثال حملةً ضد قيادى ديمقراطى مسيحى إذ ما اشتبهت بوجود تعاطفات وميول علمانية لديه وهى تُشارك فى اللعبة السياسية ، ولكنها لا تشعر بأنها مقيدة بقواعدها ، بل تستخدم السياسة كوسيلة عمل لتشجيع القطيعة أو المفاصلة مع العلمانية ، وإقامة مجتمع

مسيحى ، وقد انتُخبَ قائدها الرئيس « روبرتو ميغونى » نائباً (ديمقراطياً مسيحياً) ، ثم نائباً لرئيس البرلمان الأوربى [١] .

وفى أوربا الشرقية ، كانت الكنيسة هى المتحدث الرسمى باسم المجتمع وخصوصاً فى بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، وكان للغرب مخطط فى سلسلة من الخطوات كان آخرها إيصال البابا يوحنا بولس الثانى إلى سدة الكرسي البابوى فى الفاتيكان ، وهو بولونى الأصل ، للتحضير لسقوط الشيوعية ، ولذلك يصرُّ البابا فى كتاباته ومحاضراته على أنه صاحب اللعبة ، ورجل التغيير ، وقد صرح بذلك فى الفاتيكان يوم ٢١ / ٢ / ١٩٩٠م ، ثم يتواضع فيقول : « إنَّ الله هو الذى انتصر فى أوربا الشرقية » ، أى أنَّ سقوط الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتي هو عمل من أعمال معاودة تنصير أوربا .

وفى أمريكا اللاتينية ظهر ما يُعرف بـ « لاهوت التحرير » ، وهو حركة مسيحية شعبية خارج إطار الكنيسة الرسمية ، استخدمت المصطلحات الماركسية فى الدين ، وتسعى للتحويل العميق لنظام المِلْكيَّة ، والحيلولة دون وصول الطبقة المستغلة إلى السلطة من خلال الثورة الاجتماعية ووضع حد للارتهان والتبعية ، والانتقال إلى مجتمع اشتراكى عادل ، ورفض النظام الاجتماعى الظالم الذى لا يطاق بالنسبة للفقراء وصغار السن ، وهى تقاوم احتكار الكنيسة لكلمة الله ، وما تُمثله من استلاب دينى تمارسه وتغذيه المؤسسة الرسمية التى ترغب فى إعطاء نظام تأويل مقفل من الشروح العالمة التى تهدف إلى إضفاء المشروعية على النظام القائم .

وساعد حركات « لاهوت التحرير » هذه فى مهمتها أنها قد انطلقت من وضعية بؤس وقمع عنيف فى مجتمعاتها ، ولم تكتف بتقديم « فوفى » لوعظ أخلاقى من خارج التاريخ والحياة اليومية الواقعية ، بل ربطت التحرير الاجتماعى والسياسى ، بالتحرر من الخطيئة بدلاً من تقديم عقيدة سياسية اجتماعية ذات غطاء دينى تخدم أمن النظام القائم برغم كل مظالمه .

وقد جاء لاهوت التحرير فى مواجهة « لاهوت الهيمنة » الذى ترعاه الولايات المتحدة الأمريكية ، ويكشف جارودى فى كتابه عن الأصوليات المعاصرة – النقاب عن كُتيب بعنوان : « عمليات سيكولوجية فى مكافحة حرب العصابات » ، أعدته وكالة المخابرات

---

(١) جيل كيبل : المصدر السابق نفسه – ص ٧٢ – ٨٧ .

المركزية الأمريكية ، ووزعته على الكونترا فى نيكاراجوا ، ويتضمن الكتيب دراسة استعمال الدين فى الدعاية السياسية ، ويصف عمل الكونترا بأنه « حملة صليبية مسيحية وديمقراطية » ، ويقترح أن تُسمى جحافلها : « جحافل الثُّوار المسيحية » .

إنَّ هذه الوثيقة تندرج فى الخط السياسى الذى يوحى بأنْ « تبدأ سياسة الولايات المتحدة بمجابهة لاهوت التحرير » الذى اختار الوقوف فى صف فقراء الشعب وحقهم فى الحياة ، إنّها صحوة للأصولية المسيحية الأمريكية المتعصبة التى تظن أنّها تمتلك وحدها الحقيقة .. كل الحقيقة .. وكان عام ١٩٨٩ عام المقاومة الصريحة لتلك السياسة الأصولية التى ترعاها الولايات المتحدة ، ويبدو أنَّ الولايات المتحدة تُرشح نفسها للقيام بهذا الدور فى العالم كله ، لا فى أمريكا اللاتينية وحدها .

وعلى عكس حركة العودة إلى الإسلام أو معاودة التحنيف التى تحدث فى بلدان لم يتعلمن فيها سوى النخب المغربنة ، وبصورة جزئية أيضاً ، فإنَّ حركات معاودة التنصير تولد فى مجتمعات عاشت غالبيتها العظمى – ومنذ أكثر من قرن – علمنة دنيوية عميقة ، وقد تجلّت هذه العلمنة فى المجالات القانونية والمؤسسية ، إلا أنها قد وجدت تعبيرها الأقصى فى اللامبالاة التى لم يسبق لها مثيل إزاء الإيمان ، ولا سيما الأجيال الشابة ، وفى الانخفاض الهائل فى عدد مَنْ يختارون الحياة الكهنوتية فى الغرب ، وهكذا فإنّه خلافاً للحركات الإسلامية أو التقوية التى يدركها الجمهور المسلم الذى ظلت مراجعه الدينية حاضرة دائماً ، ويفهمها حين تستخدم لغة ومصطلحات قرآنية بسهولة ويسر ، فإنَّ حركات إعادة التنصير تستخدم مفاهيم من الإنجيل ينبغى لها إعادة تعليم معناها لشبان فقدت غالبيتهم مسيحيتها ، ثم إنَّ فقدان المسيحية هذا واسع الانتشار داخل شباب أوربا ، ما عدا بضع قلاع وحصون مثل بولونيا أو سلوفاكيا ، وهو أحد أسباب تدنى التأثير العام الإجمالى للحركات الدينية فى أوربا الكاثوليكية بالقياس إلى العالم الإسلامى ، والأولون يتمسكون بالثقافة الديمقراطية التى لا وجود لها تقريباً فى ديار الإسلام ، وهى التى تفتح حيزاً أساسياً لا يتوصل الدين فيه إلى احتلال التمثل الغالب للمجتمع المدين حتى عندما تتوارى أربعون سنة من الديكتاتورية الشيوعية .

ويرى جيل كيبل أنه برغم مختلف أنواع الفروقات والتباينات التى تفصل اليوم المجتمعات الإسلامية الثقافية عن المجتمعات الكاثوليكية الثقافية ، إلا أنَّ الجدير بالملاحظة هو أن كلتيهما شهدت قيام ظاهرات متوازية بداخلها منذ أواسط السبعينات ، إذ ينشب

بادئ ذى بدء نزاع بين طوباويات علمانية دنيوية (تمكّن بعض اللاهوتيين من التصالح معها) ، وعقائد دينية مترسخة ينتج عن إحالتها إلى عالم متعالٍ مفارق ، ورجوعها إليه لتقيم النظام الاجتماعى ضرورة « القطيعة » أو « المفاصلة » مع القيم العلمانية الدنيوية وبالتالى ينتج بخس العالم والحطُّ من شأنه ، بعد هذا تتهيكل جماعات تطمح إلى إعادة تنصير المجتمع « من فوق » أو « من تحت » وتلعب ورقة « بدايات العصر المسيحى » ، مثلما يستمد الآخرون من تقليد « الجيل القرآنى » جيل النبى محمد ص الاستلهام الحَصْرىّ لرسالة إعادة التحنيف أو الأسلمة [١] .

واهتم جيل كيبل بالرد على مَنْ قال إنّ حركات العودة إلى الدين هذه ظلامية ، فيقرر أنّ مريدى هذه الحركات الدينية المعاصرة ، والعاملين فى صفوفها لا يتجندون أساساً من الطبقات « الظلامية » من السكان (الأميّين ، العجزة ، الريفيين أو سواهم ...) ، بل نجد بينهم نسبة مهمة من أصحاب الشهادات الذين درسوا فى النظام المدرسى العلمانى الدنيوى ، الشبان والراشدين من ذوى الميل الملحوظ إلى الفروع التقنية والطريقة التى يصفون بها المجتمع أو يشخّصون بها أزمته ، والعلاج الذى يصفونه لها ترتهن لأنماط تفكير اكتسبها هؤلاء على مقاعد المدرسة التى تشكل هى نفسها ثمرة أو نتاج الحداثة التى يريدون تغيير مجراها ، وطريقتهم فى الاستحواز على النصوص المقدسة ، سنداً لأطروحاتهم تتصرف بالسنن العلمية الموروثة من العلماء المسلمين ، أو الكهنة المسيحيين ، أو الحاخامات الربانيين المجبولة بالتروى الاجتماعى بكثير من الحرية ، ذلك أنّ هذه الحركات الدينية هى على العموم حركات تعارض الخطاب الغالب فى « الدين الرسمى » ، وتخرج عليه وتسرع إلى تجريمه .

ويضيف كيبل : إنّ هذه الحركات تأخذ على المجتمع تفتته وفوضاه وبُعده عن الجادة، وافتقاده لمشروع متكامل يؤمن به وينتسب إليه ، وهى لا تقاتل خلقية علمانية تعتبرها غير موجودة ، لكنها تعتبر أن حداثة ينتجها عقل بدون الله هى حداثة لم تستطع فى النهاية أن تولّد قيماً ... وأظهرت قلقاً إنسانياً وأبدت بؤساً بشرياً لا مثيل له ، وهم يرون أنّها كشفت خواء الدولة الدنيوية الليبرالية أو الماركسية التى نجد ترجمتها الملموسة فى الغرب فى أنانيات الاستهلاك ، أو فيما عنى البلدان الاشتراكية والعالم الثالث فى الإدارة القمعية للعوز والقصور ، وإغفال مجتمع البشر .

(١) جيل كيبل : المصدر السابق نفسه – ص ٦١ ، ٦٢ .

ويُؤكد كيپل على فرضية ينطلق منها ، وهى أن خطاب وممارسة هذه الحركات إنما يحملان دلالة ومعنى ؛ فهما ليسا نتاجاً لاختلال العقل ولا لتلاعب وتضليل قوى مظلمة ، وإنّما الشهادة التى لا مثيل لها ، ولا بديل عنها على الوجع الاجتماعى العميق الذى لم تعد مقولاتنا الفكرية التقليدية تسمح بكشفه ، وفك رموزه ، وحملها على محمل الجد، لا يعنى المحاماة عنها ، والمرافعة عن قضيتها أو مصاحبتها فى طريقها، مثلما لم يكن على ذلك الذى فتحت مقالات وبيانات الحركة العمالية عينيه على وضع البروليتاريا أن ينتسب إلى الحزب الشيوعى .

ومنْ هنا فهو يَرى أن عَالَم اليوم خرج من العصر الصناعى ، ودخل حقبة جديدة تشهد فيها العلاقات الاجتماعية ، والعلاقات الدولية تحولاً لا نعرف كيف نسميه بوضوح ، وانبعاث الحركات الدينية قد يساعدنا على ذلك ، فهى بنات هذا الزمان البكر : أطفال غير مرغوب فيهم ، وشكاواهم تدعونا إلى البحث عن الآباء الذين ينتسبون إليهم ، وإلى رسم شجرة عائلاتهم المكتوفة فى نهاية قرننا هذا (١) .

وربما وجد كثيرون فى هذا النهج الموضوعى المتوازن أفضل الطرق لفهم ظاهرة العودة إلى الدين التى تشغل نهايات هذا القرن الميلادى ، وأنْ نرى فيها معنى وقيمة وفائدة لإنسان القرن العشرين الذى خرج تائهاً من الشيوعية إلى الوجودية إلى العددية ، وينبغى علينا أن نجتنب النهج الذى يتبعه الساسة ، لأنّهم غالباً لا يقولون الحقيقة، بل يشوهونها، ويتبعون الخداع والنفاق للوصول إلى أغراضهم .

فالعودة إلى الدين ليست خطراً ولا رجعية ولا ظلامية ولا أصولية ، على الرغم من وجود دعوات أصولية – كما سنرى فيما بعد – وهى ليست وباءً ينتشر مع المرض والبطالة والفقر والتخلف والانعزال عن تقنيات العصر ، لذلك هى ليست رهينة بأوضاع اقتصادية واجتماعية معينة ولكنها نابعة من روح الإنسان القلقة فى كل مكان فى العالم فى مناطق الشرق والغرب ، فنحن نسير على عكس مَنْ أعطوا تفسيرات مادية لظاهرة روحية دينية ، فالعلم والتعليم ، وثورة الاتصال ، والمواصلات ، والتفاعل العالمى الهائل ، والوفرة المادية والتأكيد على حقوق الإنسان هى التى تؤدى إلى إحياء روح التدين والخير والفضيلة لدى الإنسان ، فالذين يظنون أنهم يحاربون الدين إذا نشروا العلم والتعليم وحققوا

(١) جيل كيبل : المصدر السابق نفسه – ص ١٢ – ١٩ .

الوفرة والرفاهية ، ووفروا الحقوق الأساسية للإنسان هم واهمون ، لأنهم بذلك إنما يدفعون إلى التدين والإيمان ، فالإيمان لم يعد ضد العلم والتقدم والغنى والعقلانية . ولكنّه قد صار قرينها كما هى الحقيقة دائماً .

إنّ هؤلاء يستخدمون لتفسير ظاهرة التدين العوامل نفسها التى فسروا بها الظاهرة الشيوعية من قبل ، وهذا تفسير فاشل ، لأنّ الإيمان لا يتراجع أمام المادة ، كالشيوعية التى هزمها الفقر الذاتى ، فالإيمان يصمد غنياً وفقيراً أهله ، والإيمان ليس إرهاباً وقتلاً وقسوة وإكراهاً وعنفاً ، كما أرادت الدعاية السياسية أن تُصوّره لتحدّ من دفع التدين ، كما أنّ الحركة الإسلامية ليست مجرد نخب تتحرك على الساحة السياسية كالنخب العلمانية والشيوعية والقومية ، لأنّ قاعدة الدين تشمل كل مسلم ، عقلاً وعاطفة فى إطار المشروع الإسلامى ضد الطرح العلمانى ، ما دام لم يُشوّه فكره وتنجس روحه .

- ١٠ وصف أمريكا الأصولية

الأصولية المسيحية الإنجيلية والدعوة للحرب النووية

للمعتقدات الأصولية الإنجيلية جذورها العميقة فى الغرب من انجلترا إلى أمريكا ، وهى تفسر العلاقة الحميمة بين الأصوليين الإنجيليين واليهود ، حيث مثّل الجانب الأول الصهاينة المسيحيون ، ومثّل الجانب الآخر الصهاينة اليهود ، وربما يكون تعبير الصهيونية المسيحية جديداً على كثير من المثقفين ، ولكنها حقيقة مؤلمة شهد نشأتها القرنان السادس عشر والسابع عشر فى انجلترا وكانت بذلك سابقة على الصهيونية اليهودية التى عرفناها مع أواخر القرن الماضى ، بل كانت هى المرشحة والمفعّلة لها .

وكانت حركة الإصلاح الدينى البروتستانتى ذات الأثر الهائل فى الحركة الأصولية ، إذ عمد رجال الكنيسة الإصلاحية إلى الرجوع إلى العهد القديم وتفسيره حرّفياً ، كما بدأ الكتاب المقدس ينتشر بين الناس ، وكان من قبل حكراً على رجال الكنيسة قراءة وتفسيراً ، فعمد كثير من هؤلاء إلى قراءة وتفسير كتابهم المقدس طبقاً لمنظور جديد يتمسك بكل الكتاب بعهديه القديم والجديد ، ويضع تأويلات لنصوص رمزية ومبهمة ، وقد أدى هذا إلى عقيدة أصولية تُعَدُّ جديدة فى تاريخ الكنيسة الغربية ، وفيها تحول اليهود من أعداء الله والمسيح ، ومن أهل اللعنة والمقت ، إلى شعب الله المبارك ، وانقلب الماضى إلى حاضر (أى مملكة إسرائيل فى التوراة إلى دولة إسرائيل فى فلسطين) كما انقلب التاريخ إلى مستقبل ، وصارت النبوءة الكتابية واقعاً سياسياً ، وتحولت الرؤى والمنامات إلى حقائق ونظريات ، وتقدّست المنفعة الدنيا إلى دين ولاهوت .

وطبقاً لما قالته « ريجينا الشريف » فى كتابها القيم عن الصهيونية غير اليهودية فى التفكير الغربى : « لم تكن أوربا قبل عهد الإصلاح الدينى تعتبر اليهود الشعب المختار الذى قدر له أن يعود إلى الأرض المقدسة ، وإذا كان اليهودى مختاراً لأمر ما فإنه اللعنة ،

وكان اليهود يُعتبرون مارقين ، ويُوصَمون بأنهم قتلة المسيح ، ولم تكن هناك ذرة من حب عاطفى للمجد القديم للجنس العبرى ، كما لم تكن هناك بارقة أمل فى إعادة بعث اليهود روحياً أو قومياً ، ولم تكن هناك أدنى فكرة عن تملك اليهود لفلسطين ، وكانت الصهيونية غير اليهودية غائبة تماماً عن أوربا فى العصور الوسطى ، وكانت « إسرائيل » تعنى مجرد اسم لديانة ، بل لديانة دنيا ، ولم يكن هناك أية فكرة من الممكن أن تكوِّن « لإسرائيل » صفات قومية »[1] .

وكانت نتيجة هذه الأفكار التى انتشرت فى أوربا رهيبة إذ ظهرت دعوات لشنّ حروب صليبية جديدة « لتحرير » فلسطين ، وفى الدانمارك حثّ « هولجربولى » ملوك أوربا على القيام بحملة صليبية جديدة لتحرير فلسطين والقدس من الكفار (المسلمين) ، وتوطين اليهود وارثيها الأصليين الشرعيين .

وفى عام ١٦٤٩م أرسل الاسترحام التالى من جوانا وكارترايت ، وهما من الأصوليين التطهيريين إلى الحكومة الإنجليزية :

« ليكن شعب انجلترا وسكان الأراضى المنخفضة أول مَنْ يحمل أبناء وبنات إسرائيل على سفنهم إلى الأرض التى وعد بها أجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب لتكون إرثهم الأبدى » .

وهكذا كان أول مشروع للأصولية البروتستانتية منذ بدايتها ، هو العمل على تهجير اليهود إلى فلسطين لإقامة دولة لهم هناك طبقاً لما رأوه نبوءات توراتية تدخلوا لتشريعها ، وفى ذلك يقول الداعية الأصولى شافتسبرى (١٨٠١ - ١٨٨٥م) :

« تناولتُ طعام العشاء مع بالمرستون (وزير خارجية انجلترا) ، ثم بقينا وحدنا ، وأفصحت له عن مشروعاتى (للاستيطان اليهودى فى فلسطين) التى يبدو أنها وجدت هوى فى نفسه ، أثار بعض الأسئلة ووعد بالنظر فيها ، كم هى رائعة العناية الإلهية ! إنّها رائعة إذا قوِّمتْ بالوسائل البشرية ، لقد اختار الله بالمرستون ليكون أداة لخير شعبه القديم ، ويظهر الولاء لإرثهم ويعترف بحقوقهم دون أنْ يُؤمن بقدرهم ، يبدو أنه سيفعل أكثر من ذلك ، ومع أن الدافع الدينى نبيل إلا أنه ليس قوياً ، إننى مضطر لمناقشة الموضوع من

---

(١) ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية ـ جذورها فى التفكير الغربى ـ سلسلة عالم المعرفة ٩٦، الكويت ، ١٤٠٦هـ - ص ٢٩ .

ناحية سياسية ومادية وتجارية « استعمارية » ، إنّه لا يبكى مثل سيده على القدس ، ولا يدعو لها بأن ترتدى حللهاَ الجميلة »[(١)] .

ومن هذه اللحظة يبدأ « التعاون » بين الأصوليين والساسة فى تزاوج مصالح يُحقق كُلٌ منهما خلاله أهدافه الخاصة ، وقد عبّرتْ عن ذلك زوجة بالمرستون حين قالت لإحدى صديقاتها :

« إنَّ العناصر الدينية المتعصبة تقف إلى جانبنا ، وأنت تُدركين قوة أتباعها فى هذا البلد ، إنّهم مصممون تماماً على أنْ تستبقى القدس وفلسطين كلها لليهود ليعودوا إليها، إنّ همهم الأوحد هو إعادة اليهود »[(٢)] .

وكان وليم هشلر أصولياً إنجيلياً يعمل ملحقاً بالسفارة البريطانية فى النمسا ، وقد تربّى على التعاليم الإنجيليكانية عن الصهيونية الدينية ، وأتاح له منصبه الدبلوماسى الجمع بين التوجيه الدينى والسياسى الصهيونى ، كما كان همزة وصل بين الصهيونية الإنجيلية البروتستانتية والصهيونية اليهودية ، ووضع كتابه : « إعادة اليهود إلى فلسطين » عام ١٨٩٤م أى قبل كتاب هرتزل « الدولة اليهودية » بعامين ، وحين صدر هذا الكتاب الأخير وقرأه هشلر سعى إلى لقاء كاتبه هرتزل ، وتم اللقاء بين قطبى الأصولية الصهيونية الدينية والسياسية عام ١٨٩٦م ، وسجّل هرتزل هذا اللقاء فى مذكراته بقوله :

« حضر وليم هشلر المبجل ، ملحق السفارة الإنجليزية هنا لزيارتى ، وهو زميل عاطفى رقيق ذو لحية نبى طويلة بيضاء ، إنّه متحمس لحلى للمشكلة اليهودية ، كما أنّه يعتبر حركتى « نقطة تحول نبوية » تنبأ بها قبل عامين ... »[(٣)] .

وإذا كان لانجلترا الدور الرئيسى لإقامة « إسرائيل » مملكة الله الجديدة ، عن طريق وعد بلفور ١٩١٧م وسياسة الانتداب على فلسطين ، وخلطت بين الدين والسياسة فى هذا العمل ، إلا أنّ أمريكا كان لها دورها الذى لا يقل عن غيره فى الاعتراف بالدولة الأصولية الصهيونية وتدعيمها ، ومن أبرز رؤساء أمريكا الذين كانوا يحملون خلفية توراتية لعبت دوراً مهماً فى حياتهم وسياستهم « ترومان » الذى درّس التوراة بنفسه ، وكان يؤمن باعتباره أحد تلاميذ التوراة بالتبرير التاريخى لوطن قومى يهودى ، وكانت

(١ ، ٢) ريجينا الشريف : المصدر السابق – ص ١١٦ – ١١٨ .

(٣) ريجينا الشريف : المصدر السابق نفسه – ص ١٤٧ .

لديه قناعة أن وعد بلفور عام ١٩١٧م حقق آمال وأحلام الشعب اليهودي القديمة ، وقصة ترومان الشخصية والحافلة بالاقتباسات والإشارات التوراتية الضمنية ، تشير إلى ميله للإسهاب في ذكر التعاليم اليهودية المسيحية .

كان ترومان كمعمداني يحس بشيء عميق له مغزاه في فكرة البعث اليهودي ، وكان معروفاً عنه حبه للفقرة التوراتية الواردة في المزمور ١٣٧ التي تبدأ : « لقد جلسنا على أنهار بابل وأخذنا نبكي حين تذكرنا صهيون » ، واعترف ترومان أنّه ما من مرة قرأ فيها قصة إنزال الوصايا العشر في سيناء إلا شعر بوخز خفيف يسري في عروقه ، وقد صرح بأنّ : « موسى تلقى المبدأ الأساسي لقانون هذه الأمة على جبل سيناء » .

وعندما قدم « إيدي جاكوبسون » ترومان إلى عدد من الحاضرين في معهد لاهوتي يهودي واصفاً إياه بأنه الرجل الذي ساعد على خلق دولة « إسرائيل » ، رد عليه ترومان مستشهداً بفكرة الصهيونية الأصولية الدائمة عن النفي والبعث : « ماذا تعني بقولك ساعد على خلق ؟ إنني قورش ، إنني قورش » ، ومَن ذا الذي ينسى أنّ قورش هو الذي أعاد اليهود من منفاهم في بابل إلى القدس ؟!(١) .

ولم يكن ترومان شاذاً في هذا ، إذ أنّ التوراة صارت لدى الأمريكيين المسيحيين المستند في المعتقدات ومصدر الإيمان وقوة متماسكة في الطموح القومي ، فلغتها وخيالاتها وتوجيهاتها الأخلاقية ، وكفاحها البشري تشكّل كلها جزءاً لا يتجزأ من الشخصية الأمريكية ، والأنبياء والوثنيون والملوك والعامة الذين عاشوا في إسرائيل القديمة منذ عدة قرون ، نهضوا للقيام بأدوار معاصرة في التاريخ الأمريكي في أيامه المشرقة والعصيبة على حد سواء .

إنّها تربية منذ الصغر في البيت وفي المدرسة تجعل هؤلاء المسيحيين يعيشون بوجدانهم في الماضي التوراتي ، مما يجعل الثقافة التوراتية جزءاً جوهرياً من الكون الثقافي الغربي ، حيث إحياء العهد القديم والإشادة به كعقيدة وتاريخ وثقافة ، لا كأسطورة وتراث شعبي ، وظهرت لذلك توجهات دينية جديدة في فكر طوائف دينية بروتستانتية مثل التدبيرية والتطهيرية (البيوريتانية) .

ولا تعجب بعد ذلك حين ترى أمريكا الأصولية ترتمي في أحضان « إسرائيل »

---

(١) ريجينا الشريف : المصدر السابق نفسه – ص ٢١٥ .

الأصولية من الرؤساء ، ومجلس النواب ، ومجلس الشيوخ ، واليهود الأمريكيين الأصوليين ، والأصوليين المسيحيين الإنجيليين ؛ لأنَّه إرث دينى روحى مشترك يجعل هذه العلاقة الحميمة غير قابلة للانفصام ، فليس الأمر خاضعاً لتحالف استراتيجى فقط أو لتنظيم امبريالى محدود ، ولكنه استلهام من آيات التوراة وتعاليمها .

لذلك نفهم المحرك الحقيقى لمجلس النواب الأمريكى حين يؤيد « إسرائيل » المغتصبة ، إنَّه أمر أكبر من ضغط اللوبى اليهودى المشهور ، فهو كما عبَّر « توماس جى لين » النائب الأمريكى ممثلاً لتوجه مجلس النواب الأمريكى عام ١٩٤٤م :

« لكى يبنى اليهود مملكة الله يجب ألا يُشتتوا بين الأمم الأخرى كأقليات عاجزة وكما بشَّر الأنبياء . يجب أن تكون لهم دولتهم ليعملوا فيها ، وليطوروا النظام الاجتماعى المثالى نموذجاً ومثالاً تتعلم منه الأمم الأخرى »[١] .

ويفصح الأصولى كابوت لودج رئيس لجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس فى خطاب له فى بوسطن عام ١٩٢٢م عن روح التعصب فى قضية فلسطين بقوله :

« يبدو لى أنه أمر مناسب وجدير بالثناء أن يرغب الشعب اليهودى فى كل أنحاء العالم أن يكون هناك وطن قومى لأفراد جنسه الراغبين فى العودة إلى الأرض التى كانت مهداً لهم ، وهى التى عاشوا فيها آلاف السنوات .. إننى لم أحتمل قط فكرة وقوع القدس وفلسطين تحت سيطرة المحمديين (المسلمين) ... إنَّ بقاء القدس وفلسطين المقدسة بالنسبة لليهود ... والأرض المقدسة بالنسبة لكل الأمم المسيحية الكبرى فى الغرب فى أيدى الأتراك (المسلمين) كان يبدو لى لسنوات طويلة وكأنه لطخة فى جبين الحضارة ومن الواجب إزالتها »[٢] !!

ولأنَّ هذا التدين الأصولى خُلطَ من البداية بالأطماع السياسية ، فقد كان هناك كثير من الكذب والتحريف والعنصرية التى أنكرت حقوق الآخرين ووجودهم وحضارتهم ، بل تنكَّرتْ لوجود المسيحيين الشرقيين الذين يعيشون فى فلسطين مع المسلمين آمنين (ومعهم بعض اليهود كذلك) ، وكان يحلو لهؤلاء الأصوليين حين أرادوا تبرير ما فعلوه بفلسطين الأرض والشعب أنه لم يكن هناك إلا بعض العرب الموصوفين « بالكسل والغباء المطلق » ،

(١) ريجينا الشريف : المصدر السابق نفسه – ص ٢١٨ .

(٢) ريجينا الشريف : المصدر السابق نفسه – ص ٢٢١ .

يمثلون « قبائل بدوية » عاجزة عن استثمار الأرض وتصريف شئون البلاد، وعَدُّ « عودة » اليهود إليها « الحل » لهذه المشكلات .

وتمشياً مع الاعتقاد الأصولى الصهيونى المتأصل الجذور كتب الجيولوجى الشهير جون وليم روش عام ١٩٨٨م :

« لم تستطع أمة أن تقيم كياناً لها فى فلسطين كأمة حتى الآن ، ولم يكن هناك وحدة قومية أو روح وطنية ، أما القبائل الفقيرة المؤلفة من عناصر شتى .. فقد أقامت فيها مجرد « مستأجرين » وأصحاب أرض « مؤقتين » فى انتظار أولئك المؤهلين لتملك الأرض تملكاً دائماً »[(١)] .

وكان الأصولى الأمريكى ماينرتزهاجن يقول :

« لن يصل العربى الفلسطينى إلى مستوى الموهبة الطبيعية اليهودية بأية حال ، وسيبقى اليهودى دائماً فى القمة ، وهو ينوى البقاء هناك ، إنَّه يتطلع إلى دولة يهودية ذات سيادة فى فلسطين ، وإلى وطن قومى حقيقى وليس إلى اتحاد فدرالى عربى يهودىٍ زائف ... إنَّ اليهودى مهما وهن صوته ورقت طباعه ، سينجح فى النهاية ، وسيسمع صوته ، وسيتهدَّد العربىَّ ويتوعَّد ، وسيعزف آخرون فى أوربا وأمريكا مدائحه إذا ما تكسرت الأوركسترا المحلية ، ولكنه سيبقى حيث هو وحيث كان .. مقيماً فى الشرق يجتر أفكاراً راكدة ، ولا يرى أبعد من مبادئ محمد[(٢)] الضيقة »[(٣)] .

إن « إسرائيل » عند هؤلاء الأصوليين هى جزء من رسالة الجنس الأبيض « لتحرير وتحضير وتحديث » الشرق « المتخلف » ، وهم لم يتورعوا عن أبشع الجرائم فى أمريكا نفسها ، فهناك كانت الكنيسة البروتستانتية التطهيرية Puritans of new England ، التى نفت الهنود الحمر (السكان الأصليين فى أمريكا) إلى جزر الهند الغربية لينضموا إلى الزنوج الإفريقيين ، وحتى الأيرلنديين المنفيين مكبلين كالماشية لتسخيرهم فى الأعمال المهلكة .

والأصوليون الإنجيليون الذين ينطلقون من رؤية دينية ، ويجمعون الأموال « لإسرائيل »

---

(١) ريجينا الشريف : المصدر السابق نفسه – ص ١٣٧ .

(٢) رسول الله ﷺ .

(٣) ريجينا الشريف : المصدر السابق نفسه – ص ٢٤٩ .

حالياً بلا حدود لتدمير المسجد الأقصى وإقامة هيكل سليمان يُمارسون العقيدة نفسها التى مارسها أجدادهم من قبل ، لقد ظنوا أنَّه من الشجاعة والصواب والحق أن يربحوا الغرب ، وأن يذبحوا الهنود ، وأن يسيروا قُدماً بمدنية الأبيض ، وبما أنَّ « حدود » أمريكا قد ذهبت ؛ فإنَّهم يعملون على إعادة خلقها فى مكان آخر (فى فلسطين) ، إنَّ « صهيون الجديدة » حلم المستوطنين ، أصبحت صهيون القديمة الفلسطينية ، وكما أنَّ بعض المستوطنين المسيحيين وجدوا أنه من الصواب قتل الهنود ، فإنَّ بعض المسيحيين يجدون الآن أنَّه من الصواب تقديم المال إلى الصهاينة الذين يَقْتُلونَ الفلسطينيين (١) .

والطائفة البروتستانتية الأصولية الأشد مغالاة فى تبنى العقيدة الصهيونية من بين مائتى طائفة أخرى يمثلون حوالى ثمانين مليوناً من البروتستانت هى الطائفة التدبيرية Indispen-sationalism التى يبلغ عدد أتباع كنائسها أكثر من أربعين مليوناً ، وتعرف كنائسها باسم: الأنجلوساكسون البروتستانت البيض (W. A. S. P) وهى اختصاراً لـ White Anglo-Saxon Protestant وهى تضم الشخصيات الأبرز فى المجتمع الأمريكى سياسياً واقتصادياً وتربوياً وإعلامياً وعسكرياً ، ومعظم الأصوليين من أتباعها فى الجنوب يعلنون عنصريتهم صراحة، وهم على اقتناع كبروتستانت أنجلو ساكسون بيض البشرة بالتفوق على السود والهنود والكاثوليك والصينيين ، واليابانيين والهندوس ، والمسلمين .

وفيما يتعلق باليهود فإنَّ الأصوليين الإنجيليين البيض ادَّعوا تفوقهم عليهم أيضاً ؛ لأنَّهم لا يؤمنون بالمسيح وليس للون جلدتهم البيضاء كما هو الأمر بالنسبة لموقفهم من المسيحى الأسود ، ولكن يظل لليهود عندهم مع ذلك دورهم الأساسى فى المخطط الأصولى لنهاية العالم وعودة المسيح على ما سنرى .

وتَدَّعى هذه الحركات الأصولية أنها تقوم بعملية تجديد دينى بإحياء النصوص التوراتية والإنجيلية ، وهى تخرج عن السلطان الكنسى التقليدى فى فهم النصوص وتفسيرها بعد أنْ كان ذلك خاصاً برجال الكنيسة وحدهم فى الماضى ، ولكن حركة الإحياء والتجديد هذه لها أبعاد سياسية ونفعية لفئات ما تتستر بالنصوص الدينية لتحقيق مصالح معينة لجهات مغرضة ، فحيثما كان تأييد « إسرائيل » مطلوباً فهى تُقدِّم المسوغات لذلك باسم الدين ، وحيثما كان انتهاب بلاد المسلمين ، وتشريد أهلها ، ومحو هويتها مطلوباً فهى

(١) بروفسور «جوردون والتى» عالم اجتماع أمريكى- عن: جريس هالسل: مصدر سابق- ص ١١٧ .

لديها المبررات الدينية ، وحين يكون الترويج للحرب لإنعاش سوق السلاح مطلوباً فهى تدعو إلى شنّ الحرب المقدسة !!

والأفكار الأصولية ليست لمجموعة محدودة من المتطرفين ، ولكنها عقيدة تيار شعبى عريض تكونت ثقافته ورؤاه الدينية ، كما تشكلت الآداب والفنون والتعليم الدينى والمدرسى لديه من ترسبات المبادئ الإنجيلية والصهيونية المتلاحقة ، ولذلك تلقى هذه الأفكار التأييد والدعم المادى والسياسى من هذه القطاعات التى تبلغ عشرات الملايين من الأصوليين فى أمريكا وأوربا ، ويتفاعل نشاطها من خلال مائتين وخمسين منظمة إنجيلية أصولية كلها توالى « إسرائيل » .

وهذا ما جعل العديد من استبارات الرأى العام منذ منتصف السبعينات تُحاول أن تصف أمريكا « السلفية الأصولية » أو « الإنجيلية » كماً وكيفاً ، كما عبّر جيل كيبل ، بدون أن يُكلف المستبرون أو المستبَرون أنفسهم عناء تحديد هذه المصطلحات دائماً ، ففى عام ١٩٧٨م أظهر استقصاء للرأى العام أجرته مجلة « المسيحية اليوم » أن ٢٢٪ من الأمريكيين يعلنون أنهم « إنجيليون » فى حين أن ٣٥٪ يعلنون أنهم بروتستانت ليبراليون ، و٣٠٪ كاثوليك ، و٤٪ غير مسيحيين ، و٩٪ علمانيون ، وفى عام ١٩٨٦م ، أظهر استفتاء أجراه معهد جالوب أن ٣٣٪ من السكان أى حوالى ٥٨ مليون شخص يقدمون أنفسهم كإنجيليين ، وفى الوقت الذى كانت فيه الكنائس الليبرالية تجاهد لدعم مطالب الأقليات والفئات المحرومة اقتصادياً وسياسياً ، تولت المجموعات الطوائفية كالإنجيليين مثلاً تجنيد أعضاء جدد فى هذه القطاعات من المجتمع بنجاح أكبر على حين تجلى النفور والتراجع عن الكنائس الليبرالية (١) .

ويبدو أن أمريكا قد صارت مرتعاً للأصولية ليست المسيحية وحدها ، ولكن للأصولية اليهودية كذلك ، حيث منها يأتى أشد اليهود تطرفاً وتعصباً وإرهاباً ونيلاً من العرب والمسلمين ، وهم يحملون الجنسية المزدوجة ويحتفظون بجوازات سفرهم الأمريكية ، ويحرصون على الاستيطان فى المناطق العربية المحتلة بعد ١٩٦٧م ، وأنشأوا منظمات أشد كفراً وعتواً من أشهرها حركة كاخ الأصولية الصهيونية وزعيمها الهالك مائير كاهانا ، ومنهم جولدشتين منفذ مذبحة الحرم الإبراهيمى فى رمضان ١٤١٤هـ ، ومن عجب

(١) جيل كيبل : مصدر سابق – ص ١١٧ ، وص ١٢٣ .

أنْ تتردد أمريكا فى اعتبار هذه الحركة الإجرامية منظمة إرهابية ضد القانون حتى تبدأ « إسرائيل » بذلك ! والأعجب من ذلك هو تبرير الأصولية الأمريكية للعدوان الإسرائيلى على العرب من حروب ومذابح ، وضم أرض ، وقصف وتدمير للمنشآت الاستراتيجية باعتبار أن ذلك ضرورة لأمن « إسرائيل » وادّعاء أن العرب هم البادئون بالعدوان دائماً ، وأنهم يريدون إبادة « إسرائيل » .

والأشد عجباً من ذلك هو عندما يتناقض القرار الإسرائيلى مع النظام الدولى ، ومع المواثيق والمعاهدات الدولية الأخرى ، فإنّ القرار الإسرائيلى هو الذى يجب أن يُحترم ، لأنه يعكس إرادة الله على حين لا يعكس القانون الدولى سوى إرادة الإنسان ، وحيث تتناقض الإرادات فإنّ إرادة الله هى التى يجب أن تُحترَم وأن يُخضَع لها [١] .

وربما يزول عجبنا بعد ذلك حين نعلم أن الأصوليين المسيحيين الأمريكيين يرون أن الأصوليين اليهود الذين أمطروا المسجد الأقصى بالديناميت من أجل إزالته « أبطال » مغاوير ، وعندما أحرق إسرائيلى أصولى المسجد الأقصى عام ١٩٦٩م استعملت الولايات المتحدة الرفض (الفيتو) ضد إدانة مجلس الأمن لهذه الجريمة المنكرة ، وعندما قَتَل إسرائيلى بدم بارد ثمانية من العمال العرب فى ضاحية تل أبيب فى مايو عام ١٩٩٠م ، استعملت الولايات المتحدة الرفض (الفيتو) أيضاً ضد إدانة هذه الجريمة ، وعندما وقعت جريمة المسجد الأقصى حيث قُتل ٢١ مصلياً وجُرِح أكثر من مائة وخمسين فى اعتداء وحشى على المسجد مارست الولايات المتحدة النقض ضد إدانة هذه الجريمة ، واستمرت الولايات المتحدة شهراً فى تعويق صدور قرار إدانة من مجلس الأمن لمذبحة الحرم الإبراهيمى فى رمضان ١٤١٤هـ ، « فإسرائيل » المبغضة فى نظر نفسها ، وفى نظر الصهيونية المسيحية مالكة القرار وصانعته فى الولايات المتحدة ، وهى فوق العقاب وفوق الإدانة ، إنها فوق القانون الدولى ؛ لأنها فوق حسابات البشر .

ولا يقف عمل الأصوليين المسيحيين عند حد ، فهم يُحاولون استغلال كل إمكانات الدولة لدعم « إسرائيل » ومباركتها باسم الدين ، ومن هؤلاء « ايفنز » اليهودى الأمريكى الذى تنصر (من أجل مساعدة شعبه) ، والذى أعد فيلماً تلفزيونياً مدته ساعة تحت عنوان : « إسرائيل مفتاح أمريكا إلى النجاة » وفى هذا الفيلم يصف الدور الذى

(١) محمد السّماك : الأصولية الإنجيلية أو الصهيونية المسيحية والموقف الأمريكى – مركز دراسات العالم الإسلامى – مالطا ، ١٤١١هـ – ص ١٢٤ .

لعبته « إسرائيل » فى مصير الولايات المتحدة السياسى بأنه جوهرى ، وعلى رغم أنَّ للفيلم بعداً سياسياً واضحاً فإنَّ « ايفنز » والصهيونيين معه يصنفونه مع الأفلام الدينية حتى يضمنوا بثه مجاناً من محطات التلفزيون المحلية فى أكثر من ٢٥ ولاية بالإضافة إلى شبكة البث المسيحية للمشتركين .

وفى هذا الفيلم يُقدم « ايفنز » عدداً من التأكيدات السياسية المثيرة حول أهمية « إسرائيل » للولايات المتحدة ، فيقول : إذا تخلت « إسرائيل » عن المناطق التى تحتلها بصورة غير مشروعة ، فإنَّ الله سيدمر كلاً من « إسرائيل » والولايات المتحدة ، ويختتم « ايفنز » الفيلم بتوجيه نداء إلى المسيحيين لدعم أفضل صديق لأمريكا فى ذلك الجزء من العالم من خلال التوقيع على « إعلان مباركة إسرائيل » ، وقد أُعيد بث البرنامج مراراً من أجل تلطيف موقف دافع الضرائب من طلبات المساعدة الهائلة التى تطلبها « إسرائيل » من أمريكا ، وكذلك لإقناع أمريكا بنقل سفارتها إلى القدس (١) .

وحين أعلن اليهود فى فلسطين توحيد القدس ، واتّخاذها عاصمة موحدة أبدية لهم ، احتجت ثلاث عشرة دولة على هذا القرار ، ونقلت سفاراتها إلى تل أبيب ، ورفضت تهويد المدينة المقدسة ، فما كان من الأصوليين المسيحيين إلا أن سارعوا عام ١٩٨٠م بتأسيس منظمة السفارة المسيحية الدولية فى القدس نفسها ، والعمل على إنشاء مراكز لها فى أماكن متعددة من العالم رداً على هذه الدول ، وتأييداً للاغتصاب .

ولكن لماذا يفعل الأصوليون المسيحيون كل هذا ؟ هل هو حب خالص لليهود؟

نعتقد أنَّ الأمر ليس كذلك ، ولكن الذى يُحرك هؤلاء الأصوليين هو عقائدهم الخاصة ، ونبوءاتهم التوراتية التى بنوا منها نظاماً نظرياً عن عودة اليهود إلى أرض الميعاد وإقامة مملكة صهيون تمهيداً للعودة الثانية لمسيح آخر الزمان ، فيما يعرف بالعصر الألفى السعيد ، حيث يقيم المسيح مملكة الله على الأرض بعد أنْ يُدمرَ مملكة الشر ، ويؤمن به ثلث اليهود مخلّصاً ، وتستمر مملكة الله ألف عام تحت قيادة المسيح .

وهذه العقيدة الألفية ليست جديدة تماماً إذ ظهرت فى أوقات كثيرة حين كان هناك شدائد ، ومحن وحروب ، فقد انتظر كثير من الناس فى الغرب عودة المسيح عقب الحرب العالمية ، وما جرته من خراب ودمار وشقاء للبشر ، وزعم بعض الزعماء الأصوليين أن

---

(١) هالسل : مصدر سابق – ص ١٩٣ .

حرب الخليج الثانية هى بداية لدمار العالم ، وعودة المسيح الثانية ، بل إن هذه العقيدة استُخدمتْ فى القرون الوسطى حين الحروب الدينية فى أوربا ، وحين شنّت حروبها الصليبية على المشرق الإسلامى ، فقد روجوا حينها لأسطورة هائلة ، وهى أنّهم مدفوعون لشنّ هذه الحملات البربرية من أجل « تحرير » القدس حتى يعود المسيح للظهور ببيت المقدس .

وهذه العقيدة الأصولية المسيحية : عقيدة العصر الألفى السعيد ، كانت قديماً خاصة ببعض الطوائف والأقليات ، وكانت عقيدة سرية ، تعرضت لاضطهاد الكنيسة الرسمية فى روما ، وعدت هرطقة وتجديفاً وكفراً ، وكان القديس أوغسطين يَعدُّها مجازاً وحالة روحية خاصة مرت بها الكنيسة فى وقت ما من تاريخها .

والأصوليون المسيحيون لا يعترفون بحقائق التاريخ والجغرافيا والخَلق ، وفى ذلك تنقل الكاتبة الأمريكية الإنجيلية « جريس هالسل » عن أصولى مسيحى قوله : « عندما خلَق الله الكون أعطى بركته لليهود ، من أجل ذلك فإنّ اليهود هم أفضل ، ويختلفون عن غير اليهود ، إنّ الله أراد منذ البداية أنْ يحصل اليهود على ملكية الأرض المقدسة ، ولقد حسم الله هذا الأمر، ومنح كُلّ هذه الأرض لليهود ، واستشهد على قوله بآيات من الكتاب المقدس تقول : « لقد منحت ذرياتكم هذا الأمر من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهر الفرات » .

ونتيجة لذلك يعتقد هؤلاء الأصوليون أنه عمل آثم أمام الله أنْ يُفكر مسئولون أمريكيون بوضع أية عملية للسلام يُمكن أن تنتزع قدماً واحداً من الأرض التى منحها الله للشعب الذى يملك أقدم حق بالملكية معروف للإنسانية .

وتأكيداً لوجود هذه العقيدة السخيفة منذ بداية الأصولية الإنجيلية ننقل ما قاله اللورد ملنر :

« إذا ذهب العرب بعيداً فى ادعائهم أنّ فلسطين واحد من بلدانهم تماماً كما هى بلاد ما بين النهرين أو الجزيرة العربية ، فإننى أعتقد أنّهم يتحدون الحقائق والتاريخ والمبادئ والروابط ذات الطبيعة الأهم ، وهى الطبيعة المقدسة ، وليس من الممكن أبداً اعتبار فلسطين بلداً على قدم المساواة مع البلدان العربية الأخرى .. إنّ مستقبل فلسطين لا يمكن أن تُقرره الانفعالات المؤقتة ومشاعر غالبية عرب الوقت الحاضر » (١) ..

(١) ريجينا الشريف : مصدر سابق – ص ١٧٤ .

ولا يتمسك الأصوليون بالعهد القديم لغة وثقافة وأسماءً وقصصاً فقط بل يجدون فيه مثالاً سماوياً للحكومة الوطنيــة ، ودلالة واضحة للقوانين التى يجب على البشر اتباعها ، وإذا عصوها فالعقوبة ماثلة للعيان وآنية ، وقد طالب البيوريتان التطهيريون الأصوليون الحكومة الإنجليزية أن تُعلن التوراة دستوراً للقانون الإنجليزى .

ويرى المتطهرون البيوريتان الأمريكيون أنَّ بينهم وبين يهود إسرائيل فى فلسطين المحتلة قاسماً مشتركاً يجلب التعاطف بينهما ، وهو أنه كما أقام هؤلاء فى أمريكا ما اعتبره القدس الجديدة ويقظة دينية كبرى فى القارة الجديدة ، فقد أقام أولئك القدس الجديدة ومملكة الله فى أرض فلسطين ، والجميع تم بالهجرة والاستيطان والاستعمار .

وتُقدم الكاتبة الأمريكية « جريس هالسل » التى تنتمى إلى الطائفة الإنجيلية ، والتى نشأت على معتقداتها الأساسية ، نقداً للأفكار الأصولية فى كتابها القيم : « النبوءة والسياسة : الإنجيليون العسكريون فى الطريق إلى الحرب النووية » ، ومن خلال رحلة للكاتبة نظمها « فولويل » الداعية الإنجيلى الأصولى فى سنة ١٩٨٣م بالسيارات إلى القدس من تل أبيب مروراً بالضفة الغربية ، تقرر أنَّ دليل الرحلة قد تجاهل عمداً الضفة الغربيــة كما تجاهل الفلسطينيين ، وحينئـذ أخبـرت الكاتبة رفيقتها الأصولية فى الرحلة (منى) بمعلومات عن فلسطين والفلسطينيين العرب مسلمين ومسيحيين ، وهنا يأتى قول منى : « أى فلسطينيين ؟ أليس كل الذين يعيشون هنا هم من اليهود ؟ » ثم عادت تتساءل بعد ذلك : « هل الفلسطينيون هم أيضاً من اليهود ؟ » .

إنَّ هذا هو بالتأكيد ما قرأته فى الكتاب المقدس الذى تعرفه جيداً وتقرأ منه يومياً ، ولكنها تعرف القليل أو أنها لا تعرف شيئاً عن التاريخ المعاصر للشرق الأوسط ، أو عن أى من الأحداث التى جرت منذ سيطر العبرانيون على القدس ، وقد ثبتت عينيها على مرحلة واحدة من التاريخ وعلى قبيلة واحدة .

وتُبين المؤلفة جانباً من عقيدتهم الأصولية ، وكيف تكونت لديهم ، تقول :

« فى خلفيتنا الدينية الأصولية ، فإننى « ومنى » متشابهتان ، لقد نشأنا فى بيوت مسيحية ، نستمع إلى الكتاب المقدس ونقرأه ، ولم نتعلم شيئاً عن الشرق الأوسط فى دراستنا ، ولكننا تعلمنا فقط ما قرأناه فى النصوص العبرانية ، لقد درسنا قصص العهد القديم عن تجميع الشعب العبرانى فى فلسطين وعن حروب ملوك إسرائيل ؛ وعن

معاملات الله الخاصة بالشعب المختار ، فمع الملايين من الأطفال المسيحيين نقرأ القصص عن إبراهيم وموسى ويهوذا وداود وسليمان الذين يعتقد أنهم الأبطال الرئيسيون فى تاريخ الشرق الأوسط ، ومن أجل ذلك ، فهم أبطال كل الشعوب فى كل مكان ، وربما كذلك عند الصين والهنود والمصريين والفرس واليابانيين » .

« لقد ترعرعنا دون أنْ يعرف أحد منا أن العبرانيين كانوا مجموعة قبلية كغيرها من المجموعات القبلية التى سيطرت فى وقت من الأوقات على القدس لحقبة قصيرة من الزمن » .

« من أجل ذلك لم نعد نُركز على العبرانيين لكونهم اكتشفوا فلسطين ، ولكننا أصبحنا نعتقد أنَّ فلسطين كانت أرضاً بلا شعب حتى وصل العبرانيون إليها ، ففى عقولنا أنَّ العبرانيين هم أول الشعوب التى جاءت بعد وقت قصير من آدم وحواء ، وعندما بدأنا نقرأ ونسمع عن شعوب أخرى فى الشرق الأوسط ، لم نتقبلهم كشعوب حقيقية وإنما كأعداء للعبرانيين ، وبالتالى كأعداء لله » .

ونتيجة هذه التنشئة – كما تذكر المؤلفة – عليها وعلى الملايين من الأطفال الأصوليين ، أنهم قد تعلموا تصديق مؤلفى العهد القديم الذين أعلنوا أنفسهم وقبيلتهم على أنّهم شعب الله المفضل ، وخلال طفولتى لم أكن أتصور أن هذا الاعتقاد يمكن أن يؤدى إلى اقتلاع غير اليهود وإلى إثارة الحروب ، إن هذه النظرة العنصرية تعجز أصحابها عن إدراك أنَّ الفلسطينيين والمسيحيين والمسلمين يشاركون فى الصورة الإنسانية وفى الوجود الإنسانى مع غيرهم من المسيحيين مثلها هى نفسها .

وتسوق الكاتبة قول دليل الرحلة : « لقد حاولنا مصادقة العرب ، غير أنَّ هؤلاء المسلمين جميعهم إرهابيون » ، وتُعلّق الكاتبة : لقد تجاهل فى تعليقه وجود مجموعات مسيحية بينهم ، وأظهر الفلسطينيين وكأنّهم جميعهم مسلمون ، أعداء الله ، وأعداء شعبه المختار ... إنَّ العقيدة الأصولية المسيحية تتلخص فى الآتى :

« إذا كان العرب أعداء لإسرائيل ، فيتبع ذلك أنّهم أعداء الله » .

وفى هذه الرحلة التى مقصدها الحج إلى الأماكن المقدسة تبين الكاتبة أمراً عجباً ، وهو أنَّ منظمى الرحلة كانوا حريصين ألا نتوقف فى الناصرة حتى لا يتصل أفرادها بالشعب الفلسطينى وخاصة النصارى ، فيتكون لديهم إدراك للحقائق على الأرض ،

وهكذا يغفل هذا الحج أهم مدينة نصرانية ولا توقف إلا لدخول المرحاض ، وهنا تقول الكاتبة :

« ... لقد حاولت أن أتصور بوذياً يذهب إلى معبد بوذا فى (كماكورا فى طوكيو) أو مسلماً يذهب إلى مكة ، أو يهودياً يقوم برحلة إلى حائط المبكى ، فقط من أجل استعمال المراحيض » !

« وبذل قادتنا - كما بدا لى - جهوداً خاصة ليفصلوا بيننا وبين المسيحيين الفلسطينيين من أهالى فلسطين وغيرهم من المسيحيين بِمَنْ فيهم من الأمريكيين الذين يعيشون فى الأرض المقدسة ، ويوم الأحد اقترح أحدنا أن نتوجه إلى الكنيسة لأداء الصلاة ، وأرسل الطلب إلى (فولويل) ، وعلى الرغم من وجود عشرات الكنائس المسيحية فى مختلف مناطق القدس فإن (فولويل) أبلغنا أننا سنؤدى الصلاة فى أحد الفنادق الإسرائيلية » ![1] .

ويعتقد هؤلاء الأصوليون الإنجيليون أن غزو « إسرائيل » وذبحها للعرب أطفالاً وشيوخاً ونساءً عمل مقدس ، وأنه لا بد مِنْ هدم المسجد الأقصى ، وإقامة الهيكل مكانه ؛ لأن هذا إرادة الربِّ ، والربُّ يبارك مَنْ يساعد « إسرائيل » (الآثمة المعتدية) ، وقيام « إسرائيل » الكبرى ، وضمان تفوقها هو واجب مقدس ، والتشجيع على ضم « إسرائيل » مزيداً من الأرض ورفض السلام أو التحايل عليه ؛ لأنَّ التأخر فى ضم الأرض يؤخر عودة المسيح الثانية بزعمهم ، وأنَّ هناك شعوباً لا تؤمن بالله (المسلمين !!) ستحارب إسرائيل » .

وهذا المسلك ينذر بحدوث كارثة نووية تُدمر العالم لأنَّ خمس الشعب الأمريكى يؤمن بهذه العقيدة إيماناً حرْفياً ، وهناك إرساليات هائلة لنشرها حول العالم وخاصة بين مسيحيى الشرق ، وقد بدأت فعلاً فى التسلل إلى الطوائف الإنجيلية فى الشرق ، وبدأ كثير من الشباب المسيحى الوطنى فى بلادنا يتساءل إذا كان مخطط الله مع بناء وبقاء « إسرائيل » فى وجه الأمم ، فكيف يمكن أنْ أُحاربها أو أبغضها ، وهى فى الوقت نفسه فى حرب مع وطنى ، وتسببتْ فى قتل أهلى وتخريب بلادى ، هل أكون مع مخطط الربِّ أم مع وطنى الذى أعيش فيه ؟ وكلُّ ذلك يجرى برغم الجهود الكبيرة الى تبذلها الكنائس الشرقية لمدافعة هذا الغزو الإرسالى الإنجيلى الأصولى .

---

(١) جريس هالسل : المصدر السابق - ص ٧٢ - ٧٧ .

ويؤمن الأصوليون المسيحيون بأنه حتى يعود إليهم مسيحهم ، فلا بد من المرور بالمراحل التالية :

١ – عودة اليهود إلى أرض فلسطين .

٢ – إقامة دولة يهودية هناك .

٣ – التبشير باللاهوت لجميع الأمم بما فى ذلك « إسرائيل » ، والمقصود هم عرب ما يسمّى « إسرائيل » أى فلسطين المحتلة : مسلمين ومسيحيين من طوائف مختلفة ، لأنه ممنوع تبشير اليهود ، فمن خلال الموجات القصيرة لأجهزة الراديو والتلفزة نشرت رسالة المسيح – كما يظنونها – حول العالم، وهم يقولون: لقد وصلت الدعوة إلى جميع الأمم ، ويا لها من دعوة !

٤ – صعود الكنيسة .

٥ – وقوع الفتنة حيث تحدث معاناة كبيرة وحروب بقيادة أعداء المسيح : العرب طبعاً، وهم يغفلون أنّ العرب يؤمنون بالمسيح ويوقرونه .

٦ – وقوع معركة هرمجدون : المحرقة النووية التى وصفنا فى بداية هذا الكتاب .

ويُروج لهذه العقائد جيش من المبشرين حيث تتسلح الأصولية المسيحية بمحطات للبث التلفزيونى والإذاعى وشركات لإنتاج الأفلام ، وتمتلك الجامعات والمدارس والشركات التجارية والمؤسسات البحثية والعلمية ، والمقاعد فى مجلسى النواب والشيوخ ، إضافة إلى الجرائد والمجلات والبنوك ، وفوق ذلك الأقمار الصناعية .

وتخضع الأصولية المسيحية كلّ هذه الآليات الحديثة والتكنولوجيا المتطورة لخدمة عقائدها وأهدافها ، ومن ذلك ما أُعلِنَ مؤخراً أنّ مكوك الفضاء تشالنجر التقط صوراً سنة ١٩٨٤م لما ادُّعى أنه بقايا مدينة أثَرية أسطورية توراتية فى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة العربية ، وبالتحديد فى منطقة الربع الخالى تدعى « عبر » ، وقد أشارت صحيفة نيويورك تايمز إلى أنّ المدينة المكتشفة كانت تسير إليها سفن النبى سليمان من نواحى فلسطين بحسب الرواية التوراتية ، وهذه ليست المرة الأولى لربط تاريخ الجزيرة العربية بأحداث توراتية مزعومة ، بل بتاريخ العالم كله .

وتُعدُّ هذه هى المرة الأولى التى نرى فيها الرادارات الضخمة والأجهزة الليزرية العلمية فائقة التقنية تستخدم الأسطورة النابعة من النص القديم المحرف الذى تدور حوله الشكوك

من كل جانب ، وهكذا يتبع المنهج الأسطورى بدلاً من المنهج العلمى ، وتتبع الأصولية أوهامها لتخرج البحث التاريخى عن موضوعيته وعقلانيته .

وتلعب الأصولية التلفزيونية دورها لصياغة المجتمع الأمريكى ، ومن أشهر الإنجيليين التلفزيونيين : جيم روبنسون ، وجيرى فولويل ، وأورال روبرتسون ، وبات روبرتسون ، وجيمى سواجارت ، وروبرت شوللر ، وآخرون أقل شهرة أسهموا على موجات الأثير فى هذا الربع الأخير من القرن فى الطفرة الثقافية المتمثلة بهذا التوظيف الكثيف للشاشة الصغيرة فى الوعظ الإنجيلى ، ثم إنَّ الظاهرة لا تتلخص بتعبيرهم الملحوظ – على ما يرى جيل كيبل – فهذا التعبير ليس سوى الجزء المرئى من حركة فى الأعماق حملت بعض شرائح المجتمع الأمريكى إلى أنْ تصوغ إطراحها للقيم الدنيوية العلمانية ، التى تعتبرها مسيطرة ومسيئة ، وأن تصوغ تطلعها إلى تحول فى العمق فى الأخلاق الاجتماعية ، وأن تصـوغ ذلك كله بمقولات الخطاب الإنجيلى أو السلفى الأصولى [(١)] .

ويعمل الأصوليون كذلك على إنشاء جامعات خاصة لغزو المجتمع المدنى واختراقه ثقافياً وإعادة صياغته ، منها جامعة بوب جونز ، وجامعة أورال روبرتس وتقع فى ولاية أوكلاهوما ، وتضم ٤١٧٠ طالباً و ٣٧٥ معلماً ، ومكتبة بها مليون مصنف ، وكان على الطلاب أنْ يوقعوا تعهد شرف يغطى بدقة طول الثياب للفتيات وشعر الفتيان ، ويضبط الأخلاق فى الحرم الجامعى ، وفى الحياة بوجه عام .

وقد أنشأ الأصولى البارز جيرى فولويل جامعة سنة ١٩٧١م بولاية فرجينيا تحت اسم « الحرية المعمدانية » أولاً ثم باسم « جامعة حرية » بعد ذلك ، وهى مفتاح لفهم خطة فولويل لتوسيع امبراطوريته الأصولية شبه الكنسية ، وزيادة نفوذه وتأثيره على التاريخ الأمريكى ، فجامعة حرية هى أكبر من مجرد مدرسة لإعداد رجال إرساليات عتيدين ، إذ سيتخرج فيها آلاف الخريجين الذين يكونون قد تعلموا أنْ يدرِكوا العالم عبر معتقدات فولويل الدينية ومفاهيمه الاجتماعية والاقتصادية ثم ينتشرون ويتغلغلون فى كافة القطاعات المهنية .

وسيجد هؤلاء حين يُصبحون فى حياتهم المهنية صحفيين أو منتجين أو مذيعين الإرادة الأصولية فى الفصل بين التحكم بتقنيات الحداثة والسيطرة عليها من جهة ،

---

(١) جيل كيبل : مصدر سابق – ص ١١٧ .

والأفكار العلمانية الدنيوية من جهة أخرى ، ويندرج هذا الإنجاز فى القلب من جملة تدابير لمعاودة تنصير المجتمع الأمريكى من فوق ، وقد وضعه فولويل خلال العقدين المنصرمين ؛ فجامعة حرية تمثل توظيفاً سياسياً طويل المدى يقوم مقام اللوبى .

وفى حين اعتقد الأصولى الإنجيلى روبرتسون أن مُعاودة تنصير المجتمع تمر بانتخاب واعظ تلفزيونى إنْجِيلِى لرئاسة الولايات المتحدة ، فإنَّ فولويل يعتقد أن المعركة ضد العلمانية الدنيوية تكْسب فى ميدان الثقافة أو المنتجات الفرعية الدنيا السمعية البصرية الموجهة إلى الجمهور ، فإنجيليو التلفزيون من أبناء جيله بنوا شبكة تلفزيونية دينية أطرافية هائلة ، أما طلاب مادة الاتصالات فى جامعة حرية فإنهم سيكونون فى الغد فى مركز السلطة أو فى تأثير على الأقنية غير المتخصصة العمومية أو التجارية ، فهذه هى السبيل كى يغزو أبناء إنجيلى الجنوب قلب أمريكا معاودين تنصير حداثتها وتمسيحها (١) .

ويُعَـدُّ جيرى فولويل الداعية الأصولى المثالى ، وقد منحته الجمعية الأمريكية للتراث الدينى لقب الشخصية الدينية لعام ١٩٨٠م ، وله برنامج تليفزيونى باسم (ساعة العهد القديم) يعتبر البرنامج الدينى الأول فى مؤسسات التليفزيون الأمريكية ، وقد أصدر كتاباً بعنوان : « اسمعى يا أمريكا » ، وفيه فصل بعنوان : « المعجزة التى تُسمَّى إسرائيل » ، ومما جاء فيه (٢) .

« من الأشياء المشجعة فى عالم اليوم استمرار بركة الإله على شعب إسرائيل ، فعلى الرغم من مشكلات التضخم المالى والخلافات الحادة فى الكنيست والإصرار على إفنائها من قبل جيرانها العرب ، فما زالت إسرائيل تقف كشاهدة ساطعة على أثر الإيمان بالإله، فإسرائيلِ حصن الديمقراطية فى منطقة تحكمها الحماقة ، ويسودها الاضطراب السياسى ، وكل مَنْ يقرأ الكتاب المقدس سوف يجده مليئاً بالنبوءات عن مكانة الشعب اليهودى ، فالتوراة تذكر أنَّ الشعب اليهودى سيعود إلى أرض إسرائيل ويؤسس دولته مرة ثانية » .

ثم استطرد الكاتب ليستعرض معجزة « إسرائيل » ، وليدّعى أنَّ الأمم التى تُناصر العرب ومنظمة التحرير الفلسطينية لو تبينت حقيقة ما ورد فى الكتاب المقدس « لجثت على ركبتيها ضارعة إلى رب إسرائيل طالبة منه العفو » .

---

(١) جيل كيبل : مصدر سابق – ص ١٣٨ – ١٤٩ .

(٢) عن مجلة الأمة ـ العدد ٢٠ ، شعبان ١٤٠٢هـ – ص ١٨ ، ١٩ .

إلى أن قال :

« إذا أرادت هذه الأمة أن تبقى حقولها بيضاء بالقمح ، وإنجازاتها العلمية فى مستواها الرفيع ، وحريتها البكر ، فإن على أمريكا أن تستمر فى تأييد « إسرائيل » .

« هناك اتجاه متزايد لنجعل حاجتنا للبترول تعمينا عن حاجتنا الكبرى لبركة الله المستمرة ، فإذا سمحت أمريكا لنفسها أن تبتز بالبترول ، واستبدلت تحالفها مع إسرائيل بالبترول « الحساء العكر » ، فإنها إنما تغامر بمكانتها كقائد للعالم ، لتهبط إلى المكان التاريخى الذى هبطت إليه روما ، ونحن لا يمكننا أن نسمح لذلك بالحدوث » .

« إنّ اليهود يعودون إلى بلادهم التى يسودها عدم الإيمان ، صحيح أنهم متدهورون روحياً ، وفى حاجة شديدة إلى مسيحهم ومخلصهم ، ولكنهم على كل حال شعب الله المختار ، وفى عصرنا الحاضر ، فإن النصارى الذين يؤمنون بالتوراة هم أحسن أصدقائهم ، ويجب أن نبقى كذلك » .

وقد أسس الكاهن فولويل منظمته الأصولية السياسية الدينية : « الأغلبية الخُلُقية » سنة ١٩٧٩م ، التى تنتمى إلى اليمين المسيحى الجديد الذى يعبئ جهوده السياسية لقضايا دينية ، وتحاول الإجابة على تحديات ظاهرة لمجتمع معلمين دنيوى ، وتفسير أزمات المجتمع ومشكلات الدولة نتيجة لمجازاة الله لارتداد أمريكا ، وقرن ذلك بقرب عودة المسيح ، وعملت هذه المنظمة على حشد مليونى ناخب على الأقل لإعادة الطابع الدينى للحكومة الأمريكية ، وشعارها فى ذلك أنّ أنصار الأخلاق يستطيعون أن يوفروا الناخبين لأول مرة خلال عقود من السنين » .

ومن أقواله عن ذلك :

« يجب أنْ نعترف بالحقيقة المحزنة ، إننا تركنا نحن الشعب الأمريكى أقلية صاحبة ملحدة من الرجال والنساء الذين لا إله لهم يقودون أمريكا إلى حافة الهاوية ، ولقد حان الحين لكى يجمع الأمريكيون الأخلاقيون قواهم لإنقاذ أمتنا الحبيبة » .

« وخلال أحاديثى عن القضايا التى تفسد أمريكا اليوم ، وأنا أتحدث إلى الشعب فى جميع أمريكا قابلت صيحة كئيبة وسؤالاً يائساً : إننا لم نسمع بمثل هذا من قبل ؟ لماذا لم يعلمنا أحد بذلك من قبل ؟ لقد حان الوقت لأنْ يتحد أصحاب القيم والأخلاق لإنقاذ أمتنا الحبيبة ، ويجب أن ينهض أصحاب القيم والأخلاق عصبة واحدة من جميع

المذاهب الدينية ، وأن يستخرجوا الأصوات الناخبة من الأكثرية الصامتة لندافع عن حرياتنا التى تجعلنا نعيش كما نعتقد وكما نريد ، هناك أمل لأمريكا ويجب أن نعمل سريعاً » .

وفى عام ١٩٧٦م ، انتخبت الولايات المتحدة رئيساً معمدانياً شديد الإيمان ، أبرز قناعاته الخلقية والدينية ، وقدّمها ليغسل الإدارة ويطهرها من خطيئة ووترجيت ، وكان هذا عام الأصولية ، وبداية اهتمام صحافة الغرب بالظاهرة ، حيث جعلت مجلتا نيوزويك وتايم عام ١٩٧٦م عدداً خاصاً بالظاهرة الأصولية الإنجيلية وذلك لظهور تأثيرها فى انتخاب الرئيس كارتر ووصوله إلى الحكم ، وكان هذا بداية وعى الصحافة بأبعاد هذه الظاهرة وخصوصاً البعد السياسى .

وكانت خلفية كارتر البروتستانتية ورؤاه الدينية مرتبطة بسياسته تجاه «الشرق الأوسط» ، وكان يرى كرئيسٍ أن دولة « إسرائيل » هى أولاً وقبل كل شىء « عودة إلى الأرض التوراتية التى أُخرِجَ منها اليهود منذ مئات السنين .. وأن إنشاء دولة إسرائيل ، هو إنجاز النبوءة التوراتية وجوهرها » ، ونتيجة لذلك كانت سياسة كارتر تجاه « إسرائيل » متأثرة بفكرته عن دولة « إسرائيل » وهى أنها الأرض التى وعد الله اليهود ، واعترف أن عليه « التزاماً كاملاً ومطلقاً نحوها كإنسان ، وكأمريكى ، وكشخص متدين » ، ولذا فقد كانت فكرته عن السلام فى الشرق الأوسط « تدور حول الوجود الدائم والآمن لدولة إسرائيل اليهودية »[(١)] .

وقال كارتر فى حديث ألقاه أمام الكنيست فى مارس ١٩٧٩م :

« لقد آمن وأظهر سبعة من رؤساء الجمهورية أن علاقة أمريكا بإسرائيل أكثر من مجرد علاقة خاصة ، لقد كانت ولاتزال علاقة فريدة ، وهى علاقة لا يمكن تقويضها لأنّها متأصلة فى وجدان وأخلاق وديانة ومعتقدات الشعب الأمريكى نفسه ، لقد أقام الرواد وأقوام تجمعوا فى كلا الشعبين من دول شتى إسرائيل والولايات المتحدة ، فشعبى كذلك أمّة مهاجرون ولاجئون ، إننا نتقاسم معاً ميراث التوراة ... »[(٢)] .

أما فى انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٨٠ ، فقد كان خيار الأمريكيين بالمصطلحات الدينية – كما يقول كيبل – خياراً ضيقاً ؛ فالمرشحون الثلاثة أندرسون ،

---

(١) ريجينا الشريف : مصدر سابق – ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ – ٢٧٦ .

(٢) جيل كيبل ، مصدر سابق – ص ١٣٢ – ١٣٦ .

وكارتر، وريجان كانوا يعلنون جميعاً انتماءهم - كما تشاء تقلبات الزمن - إلى الإنجيلية، ولكن هذه الإنجيلية لم تملك ذات الصورة عند كل منهم ، فحين كان جيمى كارتر يبدو وكأنه يجسد إبان قضية الرهائن (فى إيران) - كلمة يسوع التى تشاء أن ندير الخد الآخر لِمَنْ يصفعنا ، فإنَّ رونالد ريجان كان يطرح نفسه كبطل الوطنية الأمريكية التى تتماهى مع رسالة الكتاب المقدس، وتجعل من الولايات المتحدة بيت المقدس الجديد »(١).

وكان « فولويل » يُصرح فى ذلك الوقت بأنَّ على الأمريكيين ومنْ مسئولياتهم انتخاب قادة يحكمون أمريكا بعدل فى صراط الله ونهجه .. وأنَّ على « الأغلبية الأخلاقية » أنْ تلعب دوراً هاماً فى انتخاب المرشح الذى يتوقع منه أن يقيم قوانين الله وشريعته : « رونالد ريجان » ، وبالفعل لعبت هذه الحركة الأصولية الخلقية مع غيرها من الحركات الأصولية مثل منظمة « الاقتراع المسيحى » ، ومنظمة « الطاولة الدينية المستديرة » دورها البالغ فى النجاح الباهر الذى حققه ريجان فى الانتخابات حيث تمكنت من تعبئة الجماهير حوالى أربعة ملايين إنجيلى كانوا لا يهتمون عادة بالسياسة ، وهذه الطفرة السياسية جعلت « غارى نورث » وهو أصولى عتيد يصف اجتماعاً للأصوليين حينها قائلاً : « كان هناك قادة أصوليى الأمة يقولون للجمهور إنَّ عام ١٩٨٠ ليس سوى بداية ، وأنَّ مبادئ الكتاب المقدس يمكن أن تُصبح شريعة البلاد »(٢) .

وبطبيعة الحال فقد كان لهؤلاء الأصوليين نفوذهم المؤثر على القرار السياسى الأمريكى لتكون أمريكا أصولية أكثر ، وبأوضاع معينة داخل المجتمع ، وعلى النطاق الدولى ، فهؤلاء يريدون تسيير السياسة الخارجية للولايات المتحدة حسب رؤاهم التوراتية ، وقد طالبوا بذلك من خلال نشاطهم الفكرى والإعلامى الموسع فى البلاد ، حتى أنَّهم دُعوا إلى البيت الأبيض عدة مرات لتفهم موقفهم ، وللحوار معهم ، وإلى إلقاء محاضرات فى مجلس الشيوخ وأمام عسكريى البنتاجون (!!) ، وكانت كلماتهم دائماً أنَّ الكتاب المقدس ليس موضوع مفاوضة ، وأنهم لن يريدوا ظهورهم تحت أية ظروف للشعب اليهودى أو لكلمة الله ، وكان من الرؤساء الأمريكيين مَنْ يوافقهم مثل ريجان الذى قال للأصوليين إنَّه مؤمن بأن أمريكا على عتبة يقظة روحية للسلام ، وأنَّه لابد من إعداد العالم لعودة المسيح على الطريقة الهرمجدونية !

(١ ، ٢) جيل كيبل ، مصدر سابق - ص ١٣٢ - ١٣٦ .

ويؤمن ريجان بحتمية وحرفية الكتاب المقدس ، وقد كشف عن ذلك عام ١٩٨٣م حين قال للمذيعين الدينيين : « بين دفتى هذا الكتاب الوحيد توجد جميع الإجابات لجميع المشاكل التى تواجهنا اليوم »(١) .

وقد عقدت الكاتبة « جريس هالسل » فصلاً كاملاً فى كتابها عن الأصولية الإنجيلية لبيان موقع نظرية هرمجدون من عقل ريجان ، وانعكاس ذلك على سياسته الخارجية ، فمما قاله عام ١٩٨٠م أمام مجموعة من القادة اليهود : « إنَّ إسرائيل هى الديمقراطية الثابتة الوحيدة التى يمكن أن نعتمد عليها كموقع لحدوث هرمجدون، وفى عام ١٩٨٢م رتَّب ريجان للمبشر « فولويل » داعية هرمجدون المبرز ، حضور اجتماع مجلس الأمن القومى ! ليناقش كبار المسئولين الأمريكيين فى احتمال حرب نووية مع روسيا ، كما وافق ريجان على أن يلقى « هول لندسى » كلمة حول الحرب النووية مع روسيا أمام استراتيجيى البنتاجون !

وقمة المأساة الأصولية هى فى سعى الكاهن الأصولى أورال روبرتسون إلى الترشيح للرئاسة الأمريكية من خلال الحزب الجمهورى عام ١٩٨٨م ، وروبرتسون واعظ امتد أثره على المجتمع الأمريكى إلى مدى خطير من فترة ما قبل الحرب الكبرى ، وحتى نهاية الثمانينات ، وكان يهدف إلى إعادة صياغة المجتمع على أسس دينية أصولية ، وكانت حملاته الصليبية الأصولية الوعظية ترمى إلى كسب مليون روح للمسيح سنوياً .

وهكذا فإنَّ ثقافة سياسية دينية ، انبثقت فى الولايات المتحدة مع هذا النمط من الحركات ، وهى – كما يقرر جيل كيپل تستعير من السُّنن الأصولية أو التقليد الأصولى لما بعد الحرب الشاغل السياسى ، وهى تريد أن تغزو السياسة انطلاقاً من الأخلاق الفردية المتهددة فى المجتمع العلمانى الدنيوى (وليس انطلاقاً من معارضة الشيوعية كما كان إبان الحرب الباردة) ، وهى تستبقى من السنن الإنجيلية لسنوات الخمسينات والستينات أشكال تعبئة الجماهير ، وهيكليات خلق وإبداع مجتمعية جديدة ولكنها تتجاوز بهذه الأشكال والهيكليات مرحلة تكوين طوائف ومتحدات ما دون سياسية من المؤمنين الحقيقيين لتشن بها هجوماً لاحتلال الكابيتول »(٢) .

---

(١) جريس هالسل : مصدر سابق – ص ٦٧ .

(٢) جيل كيپل : مصدر سابق – ص ١٣١ .

ويُمثل الداعية الأصولى « جراهام بيل » دور سمير الرؤساء، وكاهن الرئيس الشخصى، وهو شخصية شهيرة فى الولايات المتحدة حيث كان يستمع إليه فى الإذاعة نحو من ١٥ مليون شخص قبل تحوله إلى التلفزيون ، وإليه يعود الفضل فى تحويل الديانة الإنجيلية الأصولية إلى ظاهرة ثقافية مركزية ، فهو أليف الرؤساء الأمريكيين ، ولاسيما ريتشارد نيكسون الذى سيصبح كاهنه الخاص غير الرسمى ، وذلك إلى أن يحل فولويل مكانه لدى ريجان إلا أنَّ جراهام بيل سيحرص كلَّ الحرص على ألا يعطى مقالاته مضموناً سياسياً صريحاً ، وذلك ليوضح أنَّ الفارق بين هالته وشهرته العالميتين من ناحية ، والتجنيد الأكثر محدودية الذى تحققه الدوائر الأصولية يحصر المعنى من جانب آخر [(١)] .

وسيظل جراهام بيل أثيراً لدى الرئيس « بوش » وسيكون له دوره فى حرب الخليج الثانية ، فبمجرد أن أعلن بوش عن عملية « درع الصحراء » ونقل القوات الأمريكية إلى الخليج ألقى جراهام بيل خطاباً فى مقر إقامته بولاية « مينيسوتا » قال فيه : إن هذه الحرب فى الخليج ستكون لها تأثيرات روحيـة هائلة على كل أمة وإنسان على وجه الأرض [(٢)] .

ثم تبع ذلك بإلقاء عدة محاضرات عامة ركز فيها على القول بأنَّ هناك « قوى روحية تعمل فى الخليج » فى إشارة إلى تحميس الجنود الأمريكان المترددين من تكرار تجربة فيتنام ، وأضاف إنه لا يدرى حقيقة هذه القوى الروحية ، ولكن ما سيجرى هناك (فى الخليج) شىء لم نرَ له مثيلاً فى هذا القرن ، ثم أفصح جراهام أكثر عندما أوضح ما يقصد فقال : « إنَّ العراق له أهمية إنجيلية بالغة ، فهناك كانت جنات عدن الموطن الأول لآدم وحواء » ، وحتى يحمس جراهام الجنود والشعب الأمريكى أكثر للحرب ، ويوفِّر لهم الدافع الإيمانى ، قال : إنَّه لا يعرف إذا كانت هذه الإشارات – أى ما يحدث على أرض العراق – هو تمهيد للقدوم الثانى للمسيح المنتظر !

وقبل أن تبدأ الحرب فعلاً فى ٢٤ سبتمبر ١٩٩١م ، أصدر جراهام بياناً جديداً تلاه على حشود من الأمريكيين فى نيويورك ، جاء فيه : « إذا كانت هناك دولة يمكن أن نقول عنها إنَّها جزء من الأراضى المقدسة فهى العراق » !

---

(١) جيل كيبل : مصدر سابق – ص ١٢٥ .
(٢) جريدة الشعب ، ١٢ / ٢ / ١٩٩١ .

وأضاف : « يجب أن نُضاعف صلواتنا ، فالتاريخ أكمل دورته ، ونحن نعود مرة أخرى إلى هذه الأراضى » .

ولأنَّ منفى اليهود الذى عادوا منه (بعد الأسر البابلى) إلى القدس كان (بابل) فالبروتستانت الأصوليون – ومنهم بوش وجراهام – يؤمنون بأن العراق جزء من أراضى الكتاب المقدس ؛ لأنها الموقع الجغرافى للبابليين السابقين ، وأن عودة اليهود للقدس ، والسيطرة على (بابل) العراق علامات على اكتمال دورة التاريخ والأيام الأخيرة ، أو نهاية العالم كما يقول جراهام .

وقد اعتقد بعض المحللين الأمريكيين أنَّ حرص بوش على قضاء ليلة ما قبل الحرب مع جراهام هو محاولة منه لإقناع الرأى العام الأمريكى بأنَّ جراهام أحد رجال الله ، ومن ثم محاولة كسب تأييد الأصوليين البروتستانت للحرب ودعمها ، بيد أنَّ آخرين كتبوا يقولون إنَّ قراءة جراهام للكتاب المقدس تختلف عن المعتقدات المسيحية للغرب اختلافاً تاماً ، وأنْ يستقى معتقداته من جذور عنصرية لمنظمة ماسونية يُطْلَق عليها « الاتحاد البريطانى الإسرائيلى الدولى » ، وهى منظمة ترعى الصهيونية .

ومن المؤسف أنَّ هذه الأصولية مثل الأصوليات الأخرى تتحرك ضد الإسلام والمسلمين ، وتتزاوج فيها المصالح بين الساسة والكهنة ، وأنه يجرى تزاوج الأصوليات معاً لحرب اليقظة الإسلامية التى اتَّهموها بالأصولية ظلماً ، وخصوصاً الأصوليتين المسيحية واليهودية ، وتنشأ لذلك المنظمات والمؤسسات المشتركة ، ومن هذه المنظمات إذاعة الصوت اليهودى بأمريكا ، وهى منظمة تقوم بنشاطات مشاركة مع منظمات نصرانية للدعوة إلى تكاتف اليهودية والنصرانية للتصدى المسلح للإسلام ، ومن ذلك ما نشرته مجلتها « الصوت اليهودى، ع ١١، تشرين الثانى ١٩٨١م » ، فقد نشرت مقالاً بعنوان: « قوة الإسلام » بقلم الكاهن : (جان وليم فان دير هوفن) الناطق باسم منظمة السفارة النصرانية العالمية فى القدس ، حيث ركز الكاتب على تأكيد الأفكار التالية (١) :

١ – التهجم على شخصية الرسول ﷺ والنيل من صدق رسالته بأسلوب حاقد بذىء، والزعم بأنَّ رسالته قامت على شحن المسلمين بروح العدوان .

---

(١) د. محمد عبد الله : التبشير اليهودى وسياسة التوسع الإسرائيلى – مجلة الأمة ـ العدد ٢٠ – شعبان ١٤٠٢هـ – ص ١٧ ، ١٨ .

٢ – فى الإسلام قوة جبّارة ولابد لهذه القوة أن تنفجر مرة ثانية ، وأنْ تُثير حرباً جديدة فى الشرق الأوسط ، وخطورة هذه الحرب – حسب زعمه أخزاه الله – أن الإسلام قام أصلاً على القوة ، وأنه يُشكل خطراً ذا ثلاثة أوجه :

الأول : أنه يستهدف تدمير « إسرائيل » التى تُمثل حصن الله المتقدم فى التاريخ !

والثانى : أنه يقف سداً أمام نهضة الجماهير العربية والتجائها إلى حمى المخلّص يسوع .

والثالث : أنه يقوم بتبشير عالمى واسع ، فأوربا التى استعصت على جيوش الإسلام فى العصور الوسطى ترتفع فيها الآن مآذن المساجد بجانب كنيسة القديس بطرس فى روما وفى لندن وفى جنيف .

٣ – إن الإسلام يحتل الآن جبل الهيكل ، ويقيم عليه المسجد الأقصى [١] ، وهو بذلك يقف حائلاً أمام جماهير المؤمنين بالمسيح واليهودية ، ويحول بينهم وبين مناجاة الرب الذى يستصرخهم فى الكتاب المقدس ليأتوا إليه ، وهنا استطرد بأسلوب استفزازى مثير ليندب مشاعر النصارى الذين – حسب زعمه – نسوا جبل الهيكل ، وصاروا يأتون إلى المسجد الأقصى ليأخذوا صوراً له قائلين : ألا يبدو رائعاً ؟ ولكنهم ينسون ما هو مكتوب على المسجد (يعنى الآيات القرآنية) بأنّ الله ليس له ولد ، وأنّ المسيح ليس ابن الله ، وأنّ الله ليس ثالث ثلاثة ، وتساءل كيف يرى النصارى اغتصاب الإسلام لجبل الهيكل ، على حين الكتاب المقدس يصرخ بهم وبسائر الأمم أنْ يُضحوا بكل شىء فى سبيل جعل الجبل مكاناً لمناجاة الرب (يعنى هدم الأقصى وبناء الهيكل مكانه) .

٤ – إن الصراع الدائر بين العرب واليهود هو صراع دينى ، ويجب أنْ يتضافر النصارى واليهود للمعركة الفاصلة القادمة مع الإسلام ، لأنّ هزيمة الإسلام فى هذه المعركة ستفتح الباب أمام تنصير جماهير المسلمين بعد أنْ تهتز فى نفوسهم الثقة بالإسلام .

(١) الذى نعرفه أن اليهود هم الذين يحتلون فلسطين والمسجد الأقصى فانظر كيف تُقلَب الحقائق فى المنظور الأصولى .

ومن العجيب أنْ تُوجه كل هذه الطاقة العدوانية الأصولية ضد المسلمين بزعم أنهم وثنيون كما كان يُشاع فى العصور الوسطى ، وأن يستخدم ذلك كتبرير للظلم والانتهاب والإمبريالية التى يُراد ممارستها بحق المسلمين بادعاء أنَّهم الخطر القادم بعد زوال العدو السابق متمثلاً فى الاتحاد السوفيتى ، وكأن المسلمين يمتلكون قنابل نووية وهيدروجينية ونيوترونية وصواريخ عابرة القارات تهدد بالفناء الكونى !!

نعم إنّه لابد من عدو جديد أو « يأجوج ومأجوج » العصر لصب طاقات العدوان والمقت والكبر فوق رأسه ، ولحشد القوى الأصولية من كلِ نوعِ وملة ونحلة لدحره ، فالعدو فى استراتيجية الغرب لابد أنْ يُصنع وأن يُخلق خلقاً إنْ تَعذَّر وجوده ، وأينما بحثنا – الآن – فلن نجد إلا عدواً واحداً جديراً بكل استنفار – ليس هو العملاق اليابانى ولا الصينى ولا الهندى ولا الألمانى ، ولكنه الإسلام ، نعم الإسلام الممزق إلى خمسين قطر تحت « الرعاية » الأمريكية .

١١ - « إسرائيل » الأصولية

الإدارة والشعب والجيش

يقرر جارودى فى كتابه عن الأصوليات المعاصرة أنّ الكيان الصهيونى يُقدم مثلاً نموذجياً للأصولية ؛ فهى - أى الأصولية اليهودية - تطالب بفلسطين باسم تصور للدين رجعى وقَبَلى مؤداه أنّ الإله يمنح الأراضى للقبائل التى تعبده ، فالحاخاميون الأصوليون إذ يرفعون التوراة كعنوان لِلْمُلْكِيَّة موقَّعة من الله ، إنما يقدمون الذريعة الأيديولوجية لطرد وقتل المواطنين الفلسطينيينَ من مسلمين ومسيحيين : أصحاب الأرض الأصليين .

وتبدأ الأصولية اليهودية من اسم الدولة العبرية نفسه : « إسرائيل » ، حيث الاسم الدينى لنبى الله يعقوب ، ومعنى إسرائيل : عبد الله ، وكان هذا الاسم مقصوداً لتجميع اليهود حول قاسم مشترك من العالم ، ولذا نجد القادة الإسرائيليين حتى العلمانيين منهم يتخذون لغة دينية ويتحدثون وكأنهم حاخامات ورجال دين ، وهم يعمدون لتعزيز الروح الدينية اليهودية ، ويضعون التوراة دستوراً لهم وقد أحيوا لغتها العبرية لغة رسمية للدولة بعد أن ماتت لألفى عام وأكثر ، ويتخذون تعاليمها منهجاً ، وكم من مشاكل يمكن أن تثار هناك إذا صدر قانون أو رأى يخالف تشريعات رجال الدين ورؤاهم ؛ ولذلك لم يتمكن سياسيو « إسرائيل » من وضع دستور لهم مكتوب حتى لا يتعرضوا لنقمة الحاخامات وغلاة الأصوليين .

ومما يوضح الحرص الأصولى اليهودى تسمية البرلمان الذى يحوى مجلس النواب باسم الكنيست وكأنه مكان عبادة لا سياسة علمانية واتّخاذ قرارات حكم فى دولة «ديمقراطية» كما تتخذ الدولة الصهيونية النجمة السداسية الداودية شعاراً لها ، ويضع غلاة الأصوليين القلنسوة السوداء ، ويحترم الجميع السبت اليهودى ، ويذبحون ويطبخون على الطريقة التوراتية ووفقاً للتعاليم اليهودية .

وقادة الدولة الصهيونية الأصولية هم من رؤساء العصابات الأصوليين الذين قادوا منظمات وعصابات إرهابية أقامت « إسرائيل » بالدم والنار ، مثل : ديفيد بن جوريون ، وعزرا وايزمان ، ومناحم بيجين ، وموشى دايان ، وإسحاق رابين ، وإسحاق شامير ، وإيجال آلون .

ولذلك يتعامل هؤلاء القادة الأصوليون مع العالم بمنطق العصـابات لا رؤساء الدول ، وهم يقفون موقفاً متعجرفاً وعنصرياً من الرأى العام العالمى وقرارات هيئة الأمم المتحدة التى تنتقد بدرجة قليلة سياسة تل أبيب التوسعية العدوانية المعادية للعرب ، وكان بن جوريون يقول مثلاً : « المهم ما يعمله اليهود فقط ، وليس ما يقوله غير اليهود » ، وكانت مائير تعلن بوقاحة فائقة عن : « قرارات هيئة الأمم المتحدة : إنها لا تعنى أية أهمية »(١) ، وعقب التصويت على قرار الأمم المتحدة الذى اعتبر الصهيونية شكلاً من أشكال التمييز العنصرى ، قال شامير : « لا يمكن الأخذ برأى شعوب هبط أهلها لتوهم من فوق الأشجار ثم حسبوا أنفسهم زعماء للعالم ... كيف يمكن أن يكون لأولئك البدائيين رأى خاص بهم ؟ إنَّ الضربة التى تلقيناها من الأمم المتحدة خليقة بأن تجعلنا نؤمن مرة أخرى أننا شعب نسيج وحده »(٢) .

ويظهر هذا التميز المزعوم فى بيان تأسيس الدولة الأصولية الذى أذاعه بن جوريون أول يوم لتأسيس الكيان الصهيونى بقوله : « تتميز دولتنا بأنها الوحيدة التى لا تعتبر غاية فى نفسها ، بل هى وسيلة فقط لتحقيق رسالة الصهيونية ، وليست هذه نهاية كفاحنا ، بل إننا اليوم قد بدأنا ، وعلينا أنْ نمضى حتى نُحقق قيام الدولة التى كافحنا فى سبيلها من النيل إلى الفرات ... » .

ومن المؤسف أنَّ الأصوليين الإنجيليين يُشجعون الأصوليين اليهود على ذلك ؛ فهم يتبعون تعليماً فحواه أنَّ القوانين الوضعية لا تُطبَّق على « إسرائيل » ، ومن بين كل شعوب الأرض ، فإنَّ الإسرائيليين وحدهم لا يمكن تطبيق القوانين التى يشترعها الإنسان عليهم ، ولكن تُطبَّق عليهم فقط قوانين الله ، فإذا كان الله يفضل اليهود - عند هؤلاء الأصوليين - وليس الفلسطينيين سواءاً أكانوا مسلمين أو مسيحيين ؛ فإنَّ هذا التعليم

(١) ليونيل داديانى : الصهيونية على لسان قادتها - دار الثقافة - القاهرة ، ١٤٠٨هـ - ص ٤٥ .
(٢) جارودى : ملف إسرائيل - ص ١٨٤ .

يؤدى إلى أنْ يجعل من المواطنين المسيحيين والمسلمين شيئاً غير موجود ، وأنْ يعتبرهم مجرد مخالب فى لعبة شطرنج إلهية » [(١)] .

وتقوم الدولة الأصولية الإسرائيلية على النزعة العسكرية وعبادة الجيش والعنف والدموية والقوة ، وتشكل هذه المعانى القاتمة كلّ ميادين الدولة والمجتمع الإسرائيلى حيث الجميع مجندون منذ السابعة عشر ، ويحملون السلاح باستمرار ، ويظلون فى الاحتياط حتى سن متأخرة فلا حدود هناك واضحة بين الدولة والمجتمع والجيش ، فهى بمعنى صحيح : الدولة الجيش ، والجيش الدولة ، على خطى العبودية للقوة والمال والذات .

وقد دعا جابوتنسكى إلى عدم إخضاع اليهود فى فلسطين للقوانين الوضعية ، وقال : « إنَّ كل مَنْ يؤمن بالعدالة هو غبى ، يجب ألا يثق أحد بجاره ، وإنما عليه أن يتسلح حتى أسنانه ، وعلى اليهود ألا يساوموا الفلسطينيين العرب ، إنَّ القوة يجب أن تكون هى هدفك » ، وأصر على قيام دولة يهودية صافية لا عرب فيها دون أى نقاش ، ومن أجل هذه الدولة دعا إلى العدوان المسلح [(٢)] .

وحين انتقل موسى مانوحين إلى الدولة اليهودية الجديدة على أمل أن يجد جنة روحية ، اكتشف أنَّ الصهيونيين لا يعبدون الله ، ولكنهم يعبدون قوتهم ، وقد شكا من الانهيار المأساوى للنبوة اليهودية التى استبدلتْ - كما قال - بالسياسة الصهيونية [(٣)] .

وصار الدين اليهودى يتضمن فى شكل مجرد ، كما يبين كارل ماركس : ازدراء النظرية واللغة والتاريخ والإنسان المعتبر غاية فى نفسه ، ووجهة النظر الواقعية الواعية ، فى فضيلة رجل المال ، وحتى فى العلاقات بين الرجل والمرأة تصبح موضوعاً للتجارة ، فالمرأة تصبح سلعة يتاجرون بها [(٤)] .

ومعظم هذه الأفكار الغريبة نتجت عن أنَّ اليهود ظلوا - كما هو معروف - طوال تاريخهم يعيشون فى « جيتو » صنعوه لأنفسهم ، أو صنع لهم ، وفرض عليهم فى المجتمعات التى حلوا ضيوفاً عليها ، وهذا الانعزال مثّل خطورة كبيرة ؛ لأنَّ اليهودى كان يعد نفسه متميزاً بتوراته ، وبأنه شعب الله ليس كمثله أحد ، وهذه النزعة الانغلاقية زكاها التلموديون الجامدون والحاخامات المتصلبون ، حيث جهدوا فى منع الانفتاح فى

(١ - ٣) جريس هالسل : مصدر سابق - ص ٧٤ ، ص ٨٨ ، وص ١٤٢ على التوالى .
(٤) كارل ماركس : المسألة اليهودية - مكتبة المعارف - بيروت ، ١٩٥٦م - ص ٦٠ .

كل زمان ومكان حتى يظلَّ جنسهم الأسمى على نقاوته المزعومة ، وقد حرَّموا على كل يهودى دون الخامسة والعشرين من عمره أن يقرأ كتباً غير التوراة والتلمود فى وقت ما .

ويسيطر رجال الدين الحاخامات الأصوليون على الحياة فى كل ناحية ، وأتباعهم اليهود يعتقدون أنَّ لهؤلاء سلطة إلهية ، وأن جميع أقوالهم صادرة عن الله ، وأنَّ الله تعالى يستشيرهم على الأرض عندما توجد مسألة عويصة لا يمكن حلها فى السماء ! وأنَّ أقوالهم أفضل من أقوال الأنبياء ، فهى شريعة واجبة الاتباع ، وأنَّ من جادل حاخامه (معلمه) فقد أخطأ ، وكأنه جادل العزة الإلهية حتى لو تناقضت أقوال الحاخامات فيما بينها أو تضاربت مع بديهيات العقول ، أما لو تناقضت تعاليم الحاخامات مع أوامر الله ، قالوا : يجب امتثال التعاليم الحاخامية ، لأنَّها غير قابلة للنقض حتى من الله نفسه (حاشا لله تعالى) .

ولا يقف نفوذ الحاخامات عند حد ، بل نشاطهم دائب التأثير على الحياة والسياسة فى « إسرائيل » ، وفى ترويج الدعاية لوجهات النظر والأهداف العنصرية ، ولا يتوقفون إذا ما رأوا تشريعات وقوانين ونشاطاً نيابياً لا يعجبهم ، فهم فوق هيئات الدولة التى تضعهم فى حسابها عند كل قرار تتخذه حتى لا ترمى بالخروج على الشريعة ، ومعاداة اليهودية ، ومخالفة التوراة .

وقد وضعت تحت إدارة الحاخامات تماماً جميع القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية، ولا يعترف فى البلاد إلا بالزواج الدينى فقط ، وتعدُّ المرأة إنساناً من الدرجة الثانية ، ولا تؤخذ شهادتها ولا تعتبر فى بعض القضايا ، والحصول على الجنسية الإسرائيلية يمر عبر عباءة الحاخامات السوداء ؛ فهم يحكمون باليهودية أو عدمها ، كما يحكمون بدرجة نقاوتها فيصير الشخص يهودياً صحيحاً أو يهودياً ناقصاً تبعاً لمشيئتهم ، فيمنح الجنسية أو يحرم .

وربما يكون أشهر حاخام إرهابى عرفناه هو « مائير كاهانا » ، الأصولى الأمريكى الذى كان يدعو لقتل العرب علناً أو طردهم ، وهو صاحب شعار « اقتل عربياً » ، وكان يقول: « العرب أضر من الصراصير ، وليس لهم عندنا إلا السحق بالأقدام » ! وقد تولى عضوية الكنيست الإسرائيلى ، وسعى إلى الوصول لرأس الحكومة لتنفيذ برنامجه الأصولى ، ويشهد تاريخ حياته سجلاً حافلاً من الإجرام ، حيث عمل جاسوساً لأمريكا ، وروَّج الحشيش ، وهرَّب المخدرات ، وزوَّر جوازات السفر ، واغتصب فتاة يهودية ، وعاشر فتاة

مسيحية ، ثم دفعها للانتحار فألقت بنفسها من أعلى عمارة كان يسكن فيها معها .

وتُعَدُّ الأصولية العنصرية من أبرز ملامح الكيان الصهيونى ، وعلى الرغم من أن اليهود أجناس شتى وألوان ولغات مختلفة ، وينتمون لبلدان عدة ، فمنهم الأبيضِ والأسود ، والشامى والمغربى ، والأوربى والأمريكى ، واليمنى والأثيوبى ... إلا أنهم يصرون على أكذوبة زائفة ، وهى أنهم عرق نقى ليهودية ترجع إلى ثلاثة آلاف عام ، وحين أرادوا إقامة الدولة الأصولية المغتصبة ، عبَّروا عن عنصريتهم على لسان قائدهم هرتزل حين قال:

« إن على الصهاينة أنْ يقيموا فى فلسطين نقطة متقدمة للحضارة لمواجهة بربرية ، وجزءاً من متراس قلعة أوربا ضد آسيا »[١] .

وإنها لوقاحة فعلاً أن يُعلن قادة الصهيونية أنهم شركاء فى المهمة الحضارية للقيام بعبء الرجل الأبيض لتحضير الشرق العربى ، ومن الأكاذيب المفضوحة زعمهم أنَّ الصهيونية حركة تحررية ، لأنها فى الحقيقة عنصرية أصولية استيطانية شوفينية ، وحين يدّعون أنهم الممثلون لحضارة وديمقراطية الرجل الأبيض فى الشرق ، فما زادوا على الادعاء الأمريكى عند استعمار القارة الأمريكية البكر ، وفى عبارات جارودى أن :

« ... الديمقراطية الإسرائيلية يشوبها تمييز عنصرى أساسى كما هو الحال فى كل المستعمرات ، حيث يتمتع الرجل الأبيض وحده بالحكم ، ويُمكن مقارنة هذه « الديمقراطية الإسرائيلية » العجيبة بـ « الديمقراطية الأمريكية » التى نادت فى « تصريح الاستقلال » بالمساواة بين الناس جميعاً ثم أبقت الرِّقَّ طيلة قرن بأكمله بالنسبة للسود ، وأطلقت عليهم (تأدباً منها) اسم : المؤسسة الخاصة ، كما سمحت بمطاردة الهنود الحمر ، فكانوا يُذبحون ويطردون ليستولى البيض على أرضهم ! فإسرائيل إذن ديمقراطية إلا بالنسبة لـ « زنوجها » ولـ « هنودها » الذين تطلق عليهم القوانين الأساسية فى « إسرائيل » (تأدباً منها) اسم « السكان غير اليهود » ، أى الفلسطينيون ، سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين »[٢] .

وينقل جارودى عن البروفيسور « إسرائيل شاحاك » بالجامعة العبرية بالقدس نقده للأصولية العنصرية اليهودية كجزء من العنصرية الغربية فى قوله :

« أُنشئتْ دولة إسرائيل فى الأصل بأيدى أناس آمنوا بأنه ليس لغير أهل الغرب حقوق ،

---

(١) ليونيل دادياني : مصدر سابق – ص ٩ . (٢) جارودى : ملف إسرائيل – ص ١١٣ .

أناس ليس لديهم أى إحساس بأية صورة من صور العدل إزاء غير الغربيين ... ثم إنهم يأخذون بتفسيرات للكتاب المقدس تجعلهم يقولون : إننا نستعيد الأرض التى سبق لنا أن استولينا عليها من الكنعانيين ... وهذا موقف عنصرى تماماً يختلط فيه مركب العظمة الغربى (وكان عنيفاً فى بدء هذا القرن) بالعنصرية الصهيونية ، وازداد هذا الاتجاه حدة منذ عام ١٩٧٤م مع تصاعد الأيديولوجية الروحانية ، ومع تزايد المساندة الأمريكية مساندة لم يسبق لها مثيل »(١) .

وتتجلى هذه العنصرية بأبشع صورها فى إنكار وجود الفلسطينيين مسيحيين ومسلمين، وهذا أمر تشترك فيه الأصوليتان اليهودية والمسيحية – كما مرَّ معنا – وتنفرد الأصولية اليهودية بالاعتقاد والقول إنَّ العرب ليسوا بشراً كما قال الدكتور حاقوئين ، وهو شخصية معروفة بحزب العمل (لا الليكود) ، أخزاهم الله : « لكنهم ليسوا بشراً ، إنهم عرب »(٢) وكما قالت الهالكة جولدا مائير : « لا وجود للفلسطينيين ، وليست المسألة وجود شعب فى فلسطين يعتبر نفسه الشعب الفلسطينى ، وليست المسألة أننا أتينا وطردناهم وأخذنا بلادهم ، لا ، إنهم لم يوجدوا أصلاً »(٣) .

ولمثل هذه المعتقدات وغيرها اتَّخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى دورتها الثلاثين فى ١٠ نوفمبر ١٩٧٥م قرارها رقم ٢٢٧٩ باعتبار : « الصهيونية صورة من العنصرية ، ومن التمييز العرقى » ، لكنَّ الولايات المتحدة الأصولية كافحت كفاحاً مريراً حتى ألغت الجمعية العامة هذا القرار فى سابقة عجيبة .

وهكذا تحكم القوانين العنصرية الدولة الأصولية برمَّتها فى السياسة الخارجية والعمل الحزبى والاجتماعى والإدارى والدينى والاقتصادى والقانونى ، فمن العجيب ألا يسمح للفلسطينيين بالعودة إلى ديارهم التى طردوا منها ، على حين يسمح لأى يهودى فى العالم بالتوجه إلى « إسرائيل » فلسطين فوراً ، وإذا وصل إلى مطار تل أبيب ، وطلب الجنسية الإسرائيلية ، فإنَّها تمنح له فوراً ، ولكن الفلسطينى المولود فى فلسطين من أبوين فلسطينيين يعامل على أنَّه بدون الجنسية ، فالدولة الأصولية من البداية حددت أنَّها خاصة بالعنصر اليهودى المغتصب ، أما أصحاب البلاد فبين قتيل ومهجَّر ومعتقل ومعذَّب .

---

(١) جارودى : ملف إسرائيل – ص ١١٢ .

(٢) ليونيل داديانى : مصدر سابق – ص ٤٠ .

(٣) جارودى : ملف إسرائيل – ص ٤٢ .

وكذلك غير مسموح ببيع الأراضى لغير اليهود بحكم القانون ، على حين يستمر الاستيلاء على ممتلكات وأراضى الفلسطينيين ، وتهدم المنازل بالبلدوزرات والأربى چى (R. B. G) ، ويتصاعد العمل المحموم لتغيير صبغة المدن العربية وتهويدها ، وتزحف المستعمرات اليهودية لتحاصر المناطق العربية وتطغى عليها ، ويمنع العرب من حرية التنقل والإقامة فى المدن الفلسطينية داخل حدود عام ١٩٤٨م .

وحسب فروض القوانين والتشريعات الدينية يُعتبر العديد من آلاف المواطنين فى « إسرائيل » فلسطين رسمياً « يهوداً ناقصين » ، ولا يحق لهم الزواج من « يهود غير ناقصين » ، وفى عام ١٩٧٦م أعدت وزارة الشئون الدينية بمساعدة وزارة الداخلية ١٤٤ قائمة سوداء تضمنت أسماء اليهود الذين حرموا حقّ الزواج ، وكان عددهم فى هذه القوائم ما يقارب عشرة آلاف شخص ، وتعدُّ مشكلة للشخص حينما يعرف بأنَّ جدته أو والدة جدته ، أو جدة جدته لم تكن يهودية ، أو أنها كانت قد دخلت فى الدين اليهودى ليس عن طريق حاخام مناسب ؛ فمثل هذا الخلل عن طريق المرأة يحول الأحفاد رسمياً إلى غير يهود ، ويصبح زواجهم فى « إسرائيل » باطلاً أوتوماتيكياً ، ويُسجّل أطفالهم فى الكتاب الأسود[(١)] !

وفى أثناء حكم جولدا مائير الكيان الأصولى دار خلاف حول عدد مَنْ ينتسبون إلى آباء يهود وأمهات يَدنَّ بغير الديانة اليهودية ، وكان هناك رأيان : أحدهما يرى أنَّ مَنْ كانت أمه غير يهودية لا يُعدُّ يهودياً ، وهو رأى الأحزاب الدينية اليهودية ، وهذا تفكير أصولى عجيب ليس له مثيل فى العالم منذ أنْ خلق الله السموات والأرض وما فيهن ، والرأى الآخر يُعدُّ يهودياً مَنْ ينتسب إلى أب يهودى بغض النظر عن ديانة الأم ، وقد جرى نزاع طويل بين الفريقين ، وفى النهاية انتصر الرأى التوراتى الأصولى للأحزاب الدوجماطيقية التى اعتبرت مثل هؤلاء الأشخاص ليسوا يهوداً حتى لو منحوا الجنسية الإسرائيلية .

وفى ذلك العهد جرت قصة طريفة إذ كان الضابط البحرى الإسرائيلى « شاليت » قد تزوج اسكتلندية غير يهودية ، فلمّا وصلت المسألة للمحكمة العليا ، صرحت جولدا مائير طبقاً لقانونها الأصولى الخاص بأنه يتعين على مدام شاليت ومثيلاتها أن يعتنقن اليهودية، وأن يكون ذلك فى حفلة دينية وفقاً للطقوس المعمول بها .

(١) داديانى : مصدر سابق – ص ٧٤ .

والقصة الأكثر طرافة أو بشاعة – حسب ما يرى القارئ – كانت فى عهد «المعتدل» إسحاق رابين ، إذ قامت قوات الأمن الإسرائيلية بمهاجمة بيت عربى بقرية ، وكان العربى متزوجاً يهودية وأنجبت له عدداً من الأبناء ، فساقتهم السلطات الأمنية إلى إحدى المستعمرات الإسرائيلية لكى يربوا تربية يهودية باعتبارهم أبناء يهودية، وحرموا أباهم وأمهم، على الرغم من أنَّ الزوجة قالت إنَّها أسلمت منذ تزوجت ، ولم تعد يهودية ، ولم تجد أقوالها وأقوال زوجها وشهادات أهل القرية ، ولم تقبل ، ولم تفلح توسلات الأم فى ردّ الأبناء إليها ، وهذه القصة ليست خيالاً ، ولكنها الحقيقة التى هى أبلغ من الخيال .

وقد استفزت هذه الأوضاع النائبة بالكنيست الصهيونى « شولاميت آلونى » ، التى تقف مع فئة قليلة جداً على رأيها الذى كتبته في مقال لها بعنوان : « باسم اليهودية » ، فى جريدة يديعوت أحرونوت (١٩٧٨/٦/٢٥م) تعبر فيه عن ألمها الصارخ ، قالت [(١)] :

« تسير الأمور وكأنهم يحاولون أنْ يرسخوا فى يهود « إسرائيل » أنَّ هناك فارقاً نوعياً وقيمياً بين اليهود وغير اليهود ... ذلك هو المبدأ الذى يهيمن على كل القوانين والقواعد بدولة « إسرائيل » فيما يتعلق بالسياسة الداخلية ووضع الأفراد والأسر ، وشروط الحصول على الجنسية ... وذلك هو المبدأ الذى يوحّد مسلكنا إزاء الإسرائيليين العرب والبدو وسكان الضفة الغربية وغزة ، وأسلوبنا فى تلبية مطالبهم ... ولا يمكن لأى مسخ للقانون اليهودى أو إساءة فى تطبيقه أن تخمد أصوات مَنْ يعرفون كيف يميزون بين قوانين الكهنة ورؤية الرسل ، إننا لا نسمح لكائن مَنْ كان أن يجعل من « إسرائيل » معزلاً دينياً متذرعين فى ذلك بادعاءات دينية كاذبة ، ففى هذا استهتار بالقوانين العامة للإنسانية وبالشريعة الدولية » .

والكيان الصهيونى الأصولى الذى يزعم أنه دولة قام بالدم والنار والمذابح والاعتقالات التى مارسها عصابات مجرمة فى ظل تواطؤ الانتداب البريطانى ووعد بلفور وتأييد الأصوليين المسيحيين ، وكان الفلسطينيون (مسلمون ومسيحيون ويهود) ، يعيشون فى بلادهم آمنين مطمئنين قبل أنْ يأتى هذا الزخم الأصولى مصحوباً بالهجرات اليهودية والأطماع الاستعمارية .

وبدأ اليهود فى تكوين عصاباتهم المسلحة ، واستهلُّوا نشاطهم المجرم فى سنة ١٩٣٧م

(١) جارودى : ملف إسرائيل – ص ١٠٥ .

بقتل العصابة الصهيونية « أرجون » ١٢ عربيـاً فى أيلول ، وفى تشرين الثانى قتلت عشرة شبان فلسطينيين فى سلسلة اعتداءات ، وفى سنة ١٩٣٨م زرعت أرجون عبوة ناسفة فى السوق العربية فى حيفا أدت إلى قتل ٢١ عربياً ، وفى منتصف سنة ١٩٣٩م قام ثلاثة من اليهود بإطلاق النار على مجموعة من عرب حيفا ، ودخلت مجموعة يهودية قرية بيار عدس العربية فقتلت أربع نساء ورجلاً ، وجرحوا ثلاثة ، ودبر اليهود انفجاراً بسوق البطيخ بيافا قتل ستة وجرح ثمانية من العرب ، وبدأ إلقاء القنابل وزرع المتفجرات منذ ذلك الوقت .

وفى الحقيقة كانت جذور الإرهاب قد غُرِستْ من قبل ، وأسس المهاجرون الأوائل من « جماعة البيلو » منظمة « بارجيورا » سنة ١٩٠٧م وكان شعارها : « بالدم والنار سقطت يهوذا ، وبالدم والنار تنهض ثانية » ، وأُسِّستْ فى هذه الفترة أيضاً جمعية إرهابية أخرى هى « هاشومير » أى الحارس ، كانت مهمتها القيام بأعمال عسكرية ضد السكان العرب .

ـ وفى أغسطس ١٩٤٧م هاجمت عصابة « الهاجناه » مقهى غان هادى ، وقتلت عدداً من الفلسطينيين .

ـ وفى مارس ١٩٤٨م جرت مذبحة (بيت داراس) قُتِلَ فيها كثير من أهل القرية

ـ وفى أبريل ١٩٤٨م كانت مذبحة دير ياسين ، فى الفجر ، على يد ثلاثمائة مقاتل من أرجون وشتيرن معاً ، وتَمَّ تفجير المنازل بساكنيها لإرهاب السكان ودفعهم للهجرة وترك أراضيهم وبلادهم ، وكان الإرهابى الأصولى « بيجن » على رأس هذه المذبحة ، وقد كتب بعدها : « إنَّ هذه المجزرة لم تكن مبررة فقط ، ولكن بدون النصر (؟!) فى عملية ديـر ياسين كما كانت هناك دولة إسـرائيل » ، وهو يوصى بنى جـلدته بالآتى : « أنتم الإسرائيليون يجب ألا تبدوا تسامحاً عندما تقاتلون أعداءكم ، ويجب ألا تشعروا نحوهم بأية شفقة ، مازلنا لم نقض تماماً على ما يُسمَّى بالثقافة العربية التى سنبنى على أنقاضها حضارتنا الخاصة بنا » (١) .

ـ وفى يوليو ١٩٤٨م تمت مذبحة « خربة اللحم » ، ثم مذبحة الدوايمة .

ـ وفى فبراير ١٩٥١م حدثت مذبحة طولكرم .

---

(١) دادياني : مصدر سابق – ص ٣٩ ، ٤٠ .

ـ وفى ديسمبر ١٩٥١م حدثت مذبحة شرفات .

ـ وفى بداية سنة ١٩٥٢م حدثت مذبحة بيت لحم .

ـ وفى منتصف أكتوبر ١٩٥٥م نظم الأصولى الشيطانى شارون مذبحة رهيبة فى قرية « قبية » وكان بن جوريون هو الذى حدد هذه العملية كبداية للفرقة (١٠١) ، وقد اقتحمت الفرقة القرية بعد منتصف الليل ، ونسفت ٤١ بيتاً ومدرسة ، وجمعت ٤٢ رجلاً وامرأة وطفلاً ، وقتلتهم أمام السكان لإهاربهم وبلغ عدد الضحايا ٦٩ قتيلاً فلسطينياً .

ـ وفى يناير ١٩٥٦م وجه شارون قوات وحدته (١٠١) إلى داخل الأراضى السورية على ضفة بحيرة طبرية ، فقتلت المدنيين هناك ، وفى هذا العام جرت مذبحة كفر قاسم الرهيبة ، وفى العام التالى قامت هذه الفرقة الأصولية نفسها بمذبحة قرية السموع .

ـ وفى حرب ١٩٦٧م جرت مذابح رهيبة للجنود المصريين ، لا يجرؤ عليها إلا الأصوليون اليهود ، وكان فيها تطبيق عملى لتعاليم التلمود وأوامر الحاخامات ، حيث قُتِلَ الجنود بدلاً من أسرهم ، وقُتِل العزَّل والمدنيون والمرضى فى غزة ورفح وشرم الشيخ .

وأقسى ما كان هو تلك المذبحة التى حدثت لجنود مصر الجرحى فى مستشفى شرم الشيخ ، حيث لم يكن ممكناً نقل هؤلاء الجرحى عند الانسحاب من سيناء ، وكان الظن أن يقوم اليهود بإسعاف الجرحى ورعايتهم طبياً ، ولكن ما فعله الإسرائيليون طبقاً لما ورد فى كتاب « إسرائيل من الإرهاب إلى مجازر الدولة » لإيلان هاليفى – أنهم أجهزوا على الجنود الجرحى المصريين ، وكان بطل هذه الوحدة هو مائير هارتيزون الذى ألَّف كتاباً عن ذكرياته عن تلك المرحلة فى عام ١٩٦٩م ، وفيه يصف مشاعر الحنين إلى الماضى ، حيث كان يتلذذ بقتل رجل بسكين ، وهو نفسه الذى أعلن فى حديث لمجلة (هآرتس) أنه لم يشعر بالندم ، وتساءل : لماذا يجب أن أشعر بذلك ؟ [(١)] .

وذكرت صحيفة « هاعولام » فى عددها بتاريخ ١٩٧٣/٨/٢٤م ما يلى : « إنَّ فى حرب ١٩٦٧م كان الجيش الذى هاجم سيناء تحت قيادة شارون ، وهو المسئول شخصياً عن مصرع مئات من الجنود المصريين ، إذ رفض اعتبارهم أسرى حرب ، خلال الأيام

(١) وجيه أبو ذكرى : الإرهابيون الأوائل ـ جيراننا الجدد – المكتب المصرى الحديث – القاهرة ، ١٤٠٧هـ – ص ١٩٠ .

الأخيرة من الحرب لأن تعليمات « ديان » كانت تقضى بعدم الالتجاء إلى أسر الجنود المصريين فى سيناء ، وتأمر بإبادتهم »[(١)] .

وفى عام ١٩٧٤م كان شارون يردد موصياً بقتل المجاهدين : « اضربوهم ، لا تتوقفوا عن ضربهم ، عليكم أن تضربوا الإرهابيين أين كانوا ، فى إسرائيل أو فى البلاد العربية أو فى غيرها ، وأنا أعرف كيف نفعل ذلك ، فلقد سبق لى أن فعلتها بيدى ، لا يصح أن تتركوهم بعد أن يقوموا بعملياتهم ، اضربوهم فى كل يوم ، وفى كل مكان ، فإذا كان بعضهم فى بلد عربى أو أوربى ، فعليكم أن تصلوا إليهم ... لا تفعلوا ذلك فى وضح النهار ، ولكن يجب أن يختفى مَنْ نريد اختفاءه فجأة ... أو نجده ميتاً ... أو نعثر عليه مطعوناً بسكين فى أحد ملاهى أوربا الليلية »[(٢)] .

وحين كان شارون وزيراً للإسكان فى حكومة شامير كان يردد فى كل اجتماعات الحكومة الأصولية أنَّ عملية طرد الفلسطينيين أصبحت من القضايا الملحة فى الوقت الحالى لإفساح المجال أمام المهاجرين اليهود السوفيت ، وكانت هذه الحكومة تضم كذلك « رحبعام زئيفى » زعيم حركة « مولديت » اليمينية الأصولية ، وهو من غلاة اليهود ، وسبق له العمل فى عصابات « بالماخ » قبل ١٩٤٨م ، ويعدُّ من أبرز الداعين إلى طرد العرب من الضفة والقطاع ، بل يؤكد عدم وجود فكرة أخلاقية أكثر من فكرة الترانسفير أى الطرد الجماعى لأنه يراها تحول دون وقوع حرب عربية إسرائيلية جديدة ، أى أنَّه يحل المشكلة بطرد السكان أصحاب الأرض ، وضم الأراضى وابتلاعها .

وكان شارون بطل المذابح الرهيبة التى جرت للفلسطينيين فى مخيمات صابرا وشاتيلا ١٩٨٢م ، وقتل فيها ما يزيد على خمسة آلاف امرأة وطفل وشيخ ورجل من أهل المخيمين المذكورين ، وكان الهدف الأساسى هو إبادة هؤلاء السكان بمباركة إسرائيلية ، وبيد قوات الكتائب اللبنانية العميلة « لإسرائيل » ، والتابعة لجندى مارونى من الأحداث.

وقد كَتب آمنون كابليوك : « بدأت المذبحة فى الحال ، واستمرت أكثر من أربعين ساعة دون انقطاع (...) ، وخلال الساعات الأولى قتل المسلحون مئات الأشخاص .. وكانوا يطلقون النار على كل ما يتحرك في الأزقة .. وقد حطَّموا أبواب المنازل ، وصفُّوا أسراً بكاملها كانت تتناول العشاء ... وقتل بعض الأهالى فى أسرَّتهم بلباس النوم ،

(١ ، ٢) جارودى : ملف إسرائيل – ص ١٨٣ ، وص ١٨٧ ، على التوالى .

كما وُجد فى العديد من المساكن أطفال فى الثالثة أو الرابعة من العمر كانوا أيضاً فى لباس النوم ، تغطيهم بطانيات ملطخة بالدماء (...) ، وفى حالات عديدة كان المعتدون يبترون أعضاء ضحاياهم قبل القضاء عليهم ، وكانوا يسحقون رؤوس الأطفال والرضع على الجدران .. نساءً وصبياناً اغتصبن قبل أن يذبحن بالبلط .. وأحياناً كان الرجال يُجرّون من بيوتهم ليُعدموا جماعياً وعلى عجل فى الشارع بالبلطة والسكين ، ونشر المسلحون الرعب ، وأخذوا يبيدون دون تمييز الرجال والنساء والأطفال والشيوخ (...) ولقد عثِر على أيد نسائية بترت عند المعصم كى يمكن سرقة المجوهرات [١] .

وشهد عام ١٤٠٣هـ اعتداء من حركة جوش إيمونيم الأصولية على جامعة الخليل الإسلامية ، قام به أربعة من أفرادها ألقوا قنبلة بساحة مسجد الجامعة ، ثم فتحوا نيران بنادقهم الرشاشة باتجاه الطلبة عشوائياً فى صلاة الظهر ، ثم انطلق الأصوليون إلى قاعات الدرس ، وفتحوا نيرانهم على المدرسين والطلاب ، وانسحبوا بعد سبع دقائق من الجامعة تاركين وراءهم خمسة شهداء ، وحوالى أربعين جريحاً .

وفى ساحة الحرم القدسى الشريف ، فى أكتوبر ١٩٩٠م قُتِل ٢٢ فلسطينياً فى مجزرة دموية رهيبة تعد أكثر عملية قمعية منذ الاحتلال اليهودى للقدس الشرقية عام ١٩٦٧م.

تلك بعض المذابح والمجازر الدموية التى قام بها الأصوليون اليهود فى فلسطين المحتلة ضد السكان العرب ، مسلمين ومسيحيين ، وكان من الطبيعى أنْ يُقدم هؤلاء الأصوليون على هذا الجنون الدموى إذا كان المجتمع والدولة والجيش يشجعون عليه ، فالمجرم يصير بطلاً حين يسيل الدم العربى أنهاراً ، ورجال الدولة الذين فى العلن يؤيدون فى قلوبهم وإسرارهم ، لأنهم هم أنفسهم أصوليون ومجرمون عتيدون ورؤساء عصابات سابقون وقتلة محترفون ، والقانون يمالئ هؤلاء ، فهناك كان أغرب حكم قضائى فى قضية قتل ، حيث حَكَم على مستوطن يهودى قتل فلسطينياً بسنة سجن تم تخفيضها مع السماح للقاتل بقضاء الإجازات والمناسبات الدينية وعطلة نهاية الأسبوع فى المنزل ! ومن جانب آخر أعطى حاخام فتوى بقتل أى فلسطينى حتى إن كان موثقاً ، والتعليل المقدم لذلك هو أنَّ هذا الموثق يمكن أن يكون قاتلاً (فدائياً) مستقبلاً .

والسلطات الأصولية نفسها قامت باعتقال حوالى ٧٠ ألف فلسطينى (بنسبة ١– ٢٠

---

(١) وجيه أبو ذكرى ، مصدر سابق – ص ٢٢٤ .

من سكان الأراضي المحتلة) منذ بدء الانتفاضة في ديسمبر ١٩٨٧م وحتى ديسمبر ١٩٩٠م ، وقُتل في هذه الفترة وحدها ٢٢٦ فلسطينياً ما بين شيخ وامرأة وطفل وشاب ، وحتى صارت « إسرائيل » بحق سجناً كبيراً ، ومعتقلاً إجبارياً وحشياً ، حيث يجرى اعتقال آلاف الفلسطينيين سنوياً وتعذيبهم بالضرب ، والحرمان من النوم ، والتعليق ، والفصل من العمل ، وغيرها لانتزاع اعترافات ، والتوصل إلى معلومات .

ولا يُماثل « إسرائيل » دولة أخرى فى عمليات العسكرة والشرط والسيطرة على السكان بالقوة والإرهاب والتجويع والحرمان ، وانتزاع الأراضى وهدم المساكن على رؤوس أهلها بالصواريخ والجرافات ، وتدمير المساجد وتخريبها ، ولا عجب مع الأصولية اليهودية القياسية : الدولة والشعب والجيش .

وتُعَدُّ « إسرائيل » – هدمها الله – محضناً للكذب والبهت والخداع والتضليل ، فقد زعموا أنَّ هناك متدينين وعلمانيين ، وأحزاباً دينية وأخرى علمانية ، وأنَّ الدولة للأغلبية العلمانية لا للأقلية المتدينة (التى لا يعدونها إرهابية ولا خارجة على القانون والمجتمع) ، كما زعموا أنَّ هناك يميناً ويساراً ، وحمائم وصقوراً ، وما هى إلا لعبة السياسة ، وإذا كان فى « إسرائيل » تنوع ما ، فإنّه يتوقف عند اسم الدولة اليهودية العبرى واستنادها إلى النصوص والرؤى التوراتية التى ما قامت إلا بوحى منها .

لقد قام الكيان المغتصب على دعوى نظرية توراتية ، هى أنَّ اليهود «شعب الله القديم» سيعود لإعمار وتحديث الأرض المقدسة ، وتمدين أهلها ومَنْ حولها ، وأنَّ جنّة أرض الميعاد التى سينشئونها هناك ستشمل اليهود بعد طول تشتت وتيه فى الأرض ، حيث سيعم الأمن والسلام والرخاء الشعب الذى عانى طويلاً الغربة والكراهية والحقد ، والأحداث تثبت كل يوم انهيار هذه النظرية ، فالجنّة التى بُشّروا بها صارت ناراً ودماراً لهم ، ولأهل فلسطين والمنطقة كلها .

وكل شىء هناك يميل إلى التطرف والغلو ، وهذا ناشئ من الطبيعة اليهودية الأصولية الأصيلة ، ومن تاريخهم الطويل المحروم داخل الجيتو، ومن عنصريتهم المبغضة وكراهيتهم، وحقدهم على جميع البشر ، ومن الخوف الكائن فى أعماقهم من التشرد والشتات والتمزق ، ولذلك هم يعملون فى الظلام ، ويخططون فى السر ، ويعملون تحت الأرض ، لتحقيق أهدافهم ، ويسعون إلى السيطرة والنفوذ واكتناز الأموال والذهب ، وتنظيم العصابات المسلحة لتأمين أنفسهم .

وحين بدأوا العمل لتأسيس دولتهم المغتصبة فى فلسطين كونوا عصابات إجرامية مسلحة لإجراء عمليات إرهابية ، ومجازر لتهجير السكان بعد رعبهم وانتزاع الأراضى منهم تحت التهديد المسلح ، ومن هذه العصابات الأصولية : « الهاجناه » تأسست فى القدس سنة ١٩٢١م ، وانشق عنها « أرجون » سنة ١٩٣٠م ، التى تولى قيادها بيجن سنة ١٩٤٣م ، وانشق عن هذه الأخيرة « شتيرن » سنة ١٩٤٠م ، كما انشق عنها منظمة أخرى هى « اتسل » سنة ١٩٣٧م ، وانشق عن « اتسل » منظمة « ليحى » سنة ١٩٤٠م ، وسبب هذه الانشقاقات ليس تراجعاً ، ولكنها زيادة فى التطرف والإرهاب والتشدد فى الآراء ، والتعطش إلى الدماء الزكية .

وفى عام ١٩٤٨م تشكّلت منظمة « البالماخ » ، وكانت أولى عملياتها الإرهابية هى الحادث الشهير عند بوابة كاتدرائية القديس سان جورج بالقدس حيث أُلقى القبض على اثنين من اليهود فى أثناء محاولتهما زرع عبوة ناسفة لتفجير الكاتدرائية ، ومن هذه العصابة خرج إسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق ، وخرج منها أيضاً حاييم بارليف رئيس الأركان السابق ، وموسى كراميل ، وإسرائيل جاليلى الوزيران السابقان .

ومن هذه العصابات تكون الجيش والمخابرات والكنيست والحكومة والأحزاب والشرطة ، وجميع مؤسسات الدولة ومؤسسات المجتمع المدنى ، إنْ كان هناك مجتمع مدنى فى « إسرائيل » فلسطين .

والصهيونية السياسية التى استُخْدِمَتْ فى أدبيات الدراسات الإسرائيلية فى مقابل الصهيونية الدينية ، ربما لم يكن مقصوداً بها التفريق ، وبيان أوجه الاختلاف بقدر ما كان مقصوداً بيان أوجه الالتقاء بين تيارين ، يسعى كل منهما إلى غاية واحدة ، وبأهداف واحدة ، وحتى المستندات الفكرية واحدة ، وإن اختلفت الآليات أحياناً .

فالصهيونيون « العلمانيون » لم يتورعوا عن استخدام النصوص الدينية التوراتية ، استخداماً انتقائياً بتفسير مزيف لتفسير القتل والإرهاب والعدوان والتوسع ، بل يضعون حدود الدولة « العلمانية » طبقاً لأساس توراتى مزعوم ، وهم يبدون فى صورتهم الاستعمارية الاستيطانية غير مختلفين عن المتدينين المتعصبين الذين يدّعون أنَّ عملهم الإجرامى مقدس ، لأنه « إرادة الله ومرضاته وأوامره ووعوده لشعبه » ، وهم يُقدّمون تفسيراً متخلفاً ومزيفاً وقبلياً ومتعسفاً للدين لإخفاء نواياهم السياسية .

فالصهيونية – كما يقول الكاتب الروسى دادياني – احتوت وتحتوى اليوم على مجموعة كاملة من الاتجاهات الأيديولوجية ، والأحزاب السياسية ، والمجاميع التى تبدو متباينة ظاهرياً ، بيد أنها على أساس أيديولوجى سياسى واحد ، هو التعصب القومى ، والشوفينية الضيقة ، [١] أو كما يقول جارودى : هى ظاهرة استعمارية بحتة تختفى فى ثوب أسطورة لاهوتية كاذبة [٢] بشقيها السياسى والدينى .

ولذلك لا نعجب إذا رأينا رجال العصابات العلمانية والملحدين يتحولون ما بين طرفة عين وانتباهتها إلى رجال دين يتكلمون بالآيات التوراتية ويفتون ويعلمون ، ومن هؤلاء بن جوريون الذى أثر عنه قوله : « التوراة هى صك اليهود المقدس لملكية فلسطين ... الذى يرجع تاريخه إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة عام » ، وقوله : « لا معنى لإسرائيل بدون القدس ، ولا معني للقدس بدون الهيكل » ، وقوله : « كل يهودى يستطيع الهجرة إلى فلسطين و من لا يهاجر يعد مارقاً عن الدين » .

وفى مطلع عام ١٩٦٨م بعث بن جوريون – أخزاه الله – رسالة إلى الرئيس الفرنسى « ديجول » قال فيها : « إنّ سرّ بقائنا وتدمير البابلى والرومانى ، وحقد المسيحيين الذين أحاطوا بنا ألفى عام يكمن فى صلاتنا الروحية بالكتاب المقدس .. وعندما جاءت اللجنة الملكية البريطانية إلى القدس فى آخر سنة ١٩٣٦م ، لتدرس مستقبل الانتداب قلت لها : الانتداب الخاص بنا هو التوراة ، لقد استخرجنا منه قوتنا لنقاوم عالماً مادياً ولنستمر فى الإيمان بعودتنا إلى بلادنا » .

وفى موطن آخر قال بن جوريون الهالك : « لا تتعبوا أنفسكم فى البحث عن حل ، ليس هناك حل ، فالأرض واحدة ، وطالب الأرض اثنان ، ولابد أن تكون لواحد منهما فقط ، ولابد أن يكون الشعب الإسرائيلى هو ذلك الواحد الذى يحصل على الأرض ويملكها، والحل الوحيد لنا هو أن نسعى بكل الوسائل بما فيها القوة والسياسة والخديعة، لكى نجعل الطرف الآخر يرضى بالتنازل عن حقه ، فالقدس عاصمة إلى الأبد ولا مجال للبحث فى شأنها لأنّها إرادة الرب ، والضفة الغربية حقٌ للشعب اليهودى ، وهى الأرض التاريخية ، أرض الميعاد » [٣] .

---

(١) المصدر السابق – ص ٦ . (٢) ملف إسرائيل – ص ١٠٦ .

(٣) مجلة الأمة ، العدد ١٦ ، ربيع الآخر ١٤٠٢هـ – ص ٦ .

وإثر عدوان ١٩٦٧م كان هناك تأثير هائل لما ناله اليهود من أرض مغتصبة ، حيث انبعثت جملة من القيم الدينية التى كانت القومية الصهيونية قد غيبتها ، وكَوْن حدود الأراضى التى صارت تحت سيطرة اليهود باتت تتطابق تقريباً مع حدود أرض الميعاد التوراتية ، وظهور صور المظليين الإسرائيليين ببزاتهم العسكرية يبكون أمام حائط المبكى، وصورة بن جوريون فى المكان عينه وهو يضع القلنسوة على رأسه ، وتصريحات موشى ديان الذى كان وزيراً للدفاع حينها التى يقول فيها : « كل مَنْ لم يكن متديناً أصبح اليوم كذلك »[(١)] .

وكل ذلك دفع الزخم الدينى إلى مسرح السياسة الأصولية ، حتى قال بيجن فيما يخص الجولان ، معبراً عن رؤياه التوراتية فى الكنيست :

« لا يمكن لأحد عاقل فى بلادنا أو خارج حدودها إلا أنَّ يعترف بعدما يقرأ تاريخ إسرائيل أنَّ الجولان كانت جزءاً من الأراضى الإسرائيلية »

وقال بيجن للسفير الأمريكى صمويل لويس فى أثناء ردّه على موقف أمريكا من الموضوع :

« إنَّ اليهود يعرفون ماذا يُريدون ، وهم سيحققون بقوتهم كل شعاراتهم الدينية ... إنَّ الجولان أرض توراتية ، وقد استعادها الشعب اليهودى ، ولا توجد أية قوة فى الأرض تستطيع أن تحملهم على التراجع عن قرارهم »[(٢)] .

وكان القائد الأصولى الصهيونى المكلف باحتلال القدس عام ١٩٦٧م ، ويُدعى « مردخاى جور » يقول معبراً عن قناعاته :

« لقد صلّى شعبنا لهذه اللحظة ألفى عام » .

وعلى الرغم من أنَّ « ستانلى جولد فوت » كان لا يؤمن بالله ولا بالمقدسات المذكورة فى العهد القديم ، إلا أنّه كان الأشد تصميماً على بناء الهيكل ، وقد برر خطته العسكرية للسيطرة على الحرم الشريف باستعمال النصوص التوراتية ، فهو كبنى ملّته يقول : إنَّ الله فتح الأرض لإبراهيم وابنه إسحاق ، وليس إسماعيل : الابن الآخر لإبراهيم، بل إنَّهم يسدِلون ستاراً كثيفاً على وجود إسماعيل نفسه .

---

(١) جيل كيبل ، مصدر سابق – ص ١٦٩ .   (٢) مجلة الأمة ، العدد ١٦ – ص ٦ .

وهذا الإيمان لجولد فوت إذا تطلب العنف فلن يتردد فى استعماله - كما تقول جريس هالسل ، وهو يتوجه إلى الأمريكيين عبر أجهزة الراديو والتلفزة الدينية ، وفى الكنائس البروتستانتية داعياً المسيحيين لتقديم العطاءات والتبرعات لبناء الهيكل دون أن يذكر أنّ ذلك يتطلب تدمير مسجدين فى نفس المكان (١) .

وحين عُقدَ مؤتمر مدريد « للسلام » برعاية الدول الكبرى ١٩٩٢م أخذ رابين يتحدث من التوراة وكأنّه حاخام يتنزل عليه - لا زعيم « علمانى » - وحين اقترب ليل السبت غادر مسرعاً مع رجاله إلى « إسرائيل » لقضاء السبت هناك ، ولتتوقف المفاوضات أو لتنتهى ؛ لأن السبت اليهودى قد حلّ ، وفى الاحتفال بتوقيع وثائق بيع فلسطين المسماة « اتفاق غزة وأريحا أولاً وأخيراً » ، بالقاهرة ٢٣ ذو القعدة ١٤١٤هـ ، ضمّن رابين كلمته آيات من التوراة ، وشنف أسماعنا بقراءة آيات أخرى ، وكان حريصاً على الحديث بلغة التوراة العبرية ، على الرغم من أنّ أحداً من الحاضرين لا يعرفها !

وليس من العجيب أن يسعى رابين مباشرة عقب مذبحة الحرم الإبراهيمى ، وقبل أن تجف دماء الشهداء إلى ضم مزيد من الأحزاب اليمينية المتطرفة - على ما قالوا - كحزب « تسوميت » ، وهذا إعلان منه عن دعم أشد الاتجاهات تطرفاً فى « إسرائيل » ، ومن الواجب أنْ نلاحظ أنّه إذا كان قد قَتَل الأصولى جولد شتين فى المذبحة المذكورة خمسين فلسطينياً ، فقد قَتَل الجيش الأصولى والشرطة الأصولية مثلهم فى قمع احتجاج الفلسطينيين على المذبحة ، فلا يكفى أن يكون العدد خمسين بل من المستحسن أن يكون مائة أو أكثر ، لأنّ المطلوب هو قتل ثلث الفلسطينيين، وتهجير ثلثهم، واستئناس الباقى ، وهاك ما يقوله الأصولى الوقح «رافاييل ايتان» زعيم حزب تسوميت عن ذلك : « إن الاستيطان فى الأرض المحتلة سيؤدى إلى خروج الفلسطينيين كالصراصير » .

ولهذه السياسة التى يتبعها زعيم حزب العمل « الاشتراكى اليسارى » ! لم يعد الناخبون فى فلسطين يرون فارقاً بين التحالفين الصهيونيين : العمل والليكود ، وغالباً ما يُقال هناك : إنه يوجد « ليكودان » اثنان فى « إسرائيل » لا ليكود واحد: « ليكود ا » ، و « ليكود ب » ، وأنه لا فارق بين شامير ورابين ، فكلاهما سحق عظام الفلسطينيين ، وأن الاختلاف بينهما فى الدرجة لا فى النوع ، حيث تتوحد الآراء وتختلف الوسائل .

---

(١) جريس هالسل ، مصدر سابق - ص ١٠٥ .

ومثل هذا جعل جارودى يقول :

« وهكذا تتردد على ألسنة الزعماء الصهيونيين الإسرائيليين العبارات نفسها - سواء كانوا من اليمين أم من اليسار ، أعضاء فى حزب العمال أو فى كتلة ليكود ، ناطقين باسم الجيش أو باسم الحاخامية ، وتتردد على ألسنتهم جميعاً أدلة أو ذرائع من التوراة يقيمون على أساسها أية مطالبة بالأرض ، أى يستندون إلى « حق إلهى » فى ملكيتهم لفلسطين ، ويجرى كل شيء ، كما لو كان الأمر استعراضاً لعقد هبة وقّعها الربُّ ، تبيح لهم حقَّ تجريد كل مَنْ يعيش فى فلسطين من أرضه ليضعوا هم يدهم عليها »[(١)] .

وعلى الرغم من الاختلاف الظاهرى بين المؤسسة الحاخامية وأتباعها « المتدينين » ، والسلطة « العلمانية » ورجالها الملحدين ، هذا الاختلاف الذى صحب انتقاداً متزايداً من كل منهما للآخر ، إلا أنهما يتعاونان فى التبرير الكتابى للجرائم المقدسة ، فالصهاينة السياسيون يستندون إلى روايات توراتية انتقائية لإظهار حروبهم ضد العرب بأنّها مقدسة يباركها الله ويؤيدها رجاله : الجنرالات الحاخاميون .

والأصوليون اليهود المتدينون يرون هذه الحروب مقدسة أيضاً ؛ لأنّها تهدف إلى إقامة مملكة الله وتحقيق وعده لشعبه ، وعن هذا التزاوج الدينى السياسى يقول الحاخام الصهيونى ليفنثال :

« تُمثل الصهيونية الرداء الحديث للأمل المسيحانى القديم (أى ظهور المسيح اليهودى المنتظر) الذى حفظ اليهود أحياء خلال العصور الماضية ، إنّه الأمل الذى يهدف إلى تحقيق شقين - كما يقول الأنبياء - فهو يهدف إلى إعادة اليهودى لحياته القومية فى أرضه الوطنية فى فلسطين ، كما أنه يهدف أيضاً إلى إعادة إنشاء «إسرائيل» ، وهذا ما سيساعد على إعادة خلق البشر جميعاً (عقيدة افتداء إسرائيل) »[(٢)] .

وكان الحاخام الشهير « زفى يهوداكوك » (ت ١٩٨٢) يعتقد أن الصهاينة (العلمانيين) بالغاً ما بلغ عدم تدينهم ، هم حملة مهدوية افتداء من حيث لا يدرون ولا يحتسبون ، فدولة « إسرائيل » كانت عنده الأداة اللاواعية للمشيئة الإلهية ، وعلى

---

(١) ملف إسرائيل - ص ٨٢ .

(٢) منى كاظم : المسيح اليهودى ومفهوم السيادة الإسرائيلية - الاتحاد للصحافة والنشر - دولة الإمارات ، ١٤٠٦هـ - ص ٢٥٢ .

رغم انتقاده « علمانية » الدولة إلا أنه كان يرى مع تلامذته أنَّ جيش الدولة العلمانية قد كان المنفذ لخطة إلهية ، فى حين كان يعتقد أنَّه يواصل أهدافاً عسكرية محضة ، قوامها المطابقة بين حدود الدولة وحدود أرض الميعاد ، وجعل أتباع كول من عام ١٩٦٧م السنة الأولى من الافتداء ، أى خلاص « إسرائيل » الذى هو خلاص العالم !

وهذا التداخل بين الأسطورة والدين يُظهر ما يمكن أن تفعله الأكاذيب الدعائية الملفقة فى تعبئة الجماهير التى لا عقل لها ، ويهتم الحاخامات بإعطاء السند « الدينى » لأفعال إجرامية لأناس لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ومن ذلك ما كتبه الحاخام « العازر والدمان » فى جريدة « نكوده » فى مقال عنوانه : « قوة الإنجاز » فيأتى باستشهادات من التوراة مؤيداً لسياسات شارون الوحشية ، وبيجن الدموية ، ومبدياً ما يؤيد أشد المشروعات الإمبريالية جنوناً ، ومفسراً ذلك بأن « إسرائيل » قد أثبتت باحتلالها لبنان أنَّها قادرة على إحلال « عهد جديد » فى الشرق الأوسط ، بل تجاوز ذلك إلى القول بأنَّ هذا « بدء الخلاص للعالم » . ولم يكتف بالإشادة بالحرب الدفاعية بل ذهب إلى جعل الحرب واحدة من القيم المعنوية المطلقة ، وقائلاً : « فى سبيل الخلاص بلغنا فى لبنان مرحلة « أسمى » من حرب الأيام الستة ، وأوضحنا بهذه الحرب مدى قوتنا العسكرية .. فنحن مسئولون عن النظام فى الشرق الأوسط ، وفى العالم كله على حد سواء »(١) .

وعلى الرغم من هذا التزاوج والتبرير بين مَنْ يدَّعون أنَّهم متدينون ، ومَنْ يدَّعون أنهم علمانيون فى فلسطين إلا أنَّ بين الفريقين من الصراعات الدموية والانقسامات ما يوضحه قوله تعالى : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُم قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحشر : ١٤) ، ومن ذلك ما نقلته صحيفة واشنطن بوست فى نبأ من فلسطين أنَّ موجة من العنف المسلح تدور الآن بين المتدينين اليهود من جهة ، واليهود غير المتدينين من جهة أخرى ، وأشارت الصحيفة إلى أنَّ هجمات وقعت بين اليهود المتدينين الذين يشكّلون أقلية واليهود العاديين الذين يشكّلون أكثرية ، وأضافت أنَّ هذه الحوادث الأخيرة التى وقعت تعرض « إسرائيل » لمخاطر جسيمة وتقوض الاستقرار الداخلى ، لأنَّ الجماعات اليهودية المتطرفة أخذت تزيد فى الآونة الأخيرة من هجومها على التنظيمات اليهودية الأخرى غير المتدينة(٢) .

---

(١) ملف إسرائيل – ص ٢٢ . (٢) مجلة العالم – العدد ١١٩ – رمضان ١٤٠٦هـ .

ويبين هذا الانشقاق الخطير بين التيارين الفضيحة التي وقعت في الكنيست وأثارها « نشيد الإنشاد » التوراتي ، فقد جرى نقاش طويل حول مشروع قانون يحظر المنشورات « غير المحتشمة » في الأماكن العامة ، وقام النائب من حزب العمل « اريبه إلياف » المناهض لهذا النص الذى قدمته الحكومة بمبادرة من حركة « اجودات إسرائيل » الأصولية – بالصعود إلى المنصة والتوراة في يده ، ولكى يظهر أنّ هذا القانون غير متلائم مع « روح الديانة » اليهودية أورد مقاطع من نشيد الإنشاد المنسوب إلى سيدنا سليمان .. « نهداك شادنان يرعيان بين الزنبق .. أنت كلك جمال ياحبيبتى ، وبدون نقيصة .. تخلبيننى يا أختى وخطيبتى .. شفتاكِ تقطرانَ العسل الصافى »[1] .

وحاول النائب الأصولى « إفراهام رافيتز » مقاطعته بالصراخ ، واتّهم إلياف بمعاداة السامية وتدنيس التوراة ، وبعد أن دعا رئيس الكنيست « دوف شيلانسكى » ثلاث مرات إلى الهدوء أخرج الحراس رافيتز بالقوة .

وكانت النائبة الشيوعية « تامارغوزانسكى » قد هددت بحضور الجلسة بثياب البحر ، ولكن نواباً منعوها من ذلك[2] ، كل هذا يجعلنا نؤكد أنّه لا متطرفون فى « إسرائيل » لأنه لابد أن يكون هناك أولاً معتدلون ، ولا معتدلون فى « إسرائيل » ، فمعظم الإسرائيليين لا يؤمنون بالله ، فهم متطرفون فى كفرهم وإلحادهم ، وطائفة منهم متطرفون فى أصوليتهم الدينية التوراتية ، وبعضهم أشد تطرفاً من بعض ، ومع ذلك فجميعهم يستند إلى الوعد الإلهى والحق التاريخى المقدس بامتلاك الأرض المقدسة أبداً ، والاختلاف بينهم هو فى الحد الذى يجب أنْ يقف التطرف عنده .

وما دامت عقائدهم وكُتبهم تُحدد الأرض التى وعدهم الربُّ إياها ، فهم يجتمعون على ألاّ حقّ لغيرهم فيها ، والفلسطينيون ما هم إلا ضيوف مؤقتون أو غرباء ، فإما أن يقيموا بهذه الصفة أو يرحلوا ، وليس من المقبول عند الإسرائيليين الذين يزعم اعتدالهم إلا الحكم الإدارى للسكان لا للأرض فى غزة وبعض الضفة الغربية ، أما القدس فمن

(١) يقصد النائب المعارض لقانون حظر المنشورات غير المحتشمة أنّ التوراة التى بيده تحتوى على نصوص غير محتشمة مثل نشيد الإنشاد ، وبالتالى لا داعى لقانون الحظر ؛ لأنّ روح الديانة اليهودية ليس ضد الفجور بل معه !

(٢) مجلة العالم – العدد ٣٥٨ – جمادى الآخرة ١٤١١ هـ .

غير المسموح الحديث بشأنها لأنها عاصمة داود – عليه السلام – وبالتالى هى عاصمة الدولة الحديثة ، لأنَّ هذه هى إرادة الربّ الإسرائيلى !

ولهذه الأوضاع تَجْمَعُ حياة الإسرائيليين بين متناقضات وأحوال شاذة بعيدة فى غرابتها ، فمن ذلك أنهم يدّعون أنَّ دولتهم هى الدولة الديمقراطية العلمانية الوحيدة فى الشرق المتخلف ، والدولة الإيمانية الوحيدة فى العالم الكافر ! ، وهم يُحرِّمون ظهور غير اليهود على شاشة التلفزيون الإسرائيلى ، ولا يسمحون حتى لقس مسيحى أصولى من أنصارهم بالظهور ، كما أنهم يضعون قانوناً يحظر على المسيحى أنْ يتحدث مع اليهودى ، كما يحظر أى تجمع لليهود حول المسيح ابن مريم عليه السلام .

وهم يُريدون السلام ولكنهم يخافون منه ويعدونه خطراً عليهم ، ويشتاقون إلى الأمان ، ولكنهم يشتاقون كذلك إلى مزيد من الدماء والأرض والأموال العربية ، بل هم يفهمون الحرب والسلام فهماً خاصاً ، ففى عام ١٩٦٨م اعترف هيليل فى كتابه : « إسرائيل تجابه خطر السلام » ، وبصراحة كتب يقول : « حتى الآن ، الدم وحده هو الذى صعّد شعبية إسرائيل ... فى المجتمعات اليهودية المتكونة من حاملى الهدايا الجبارين ... ولولا الضربة المدوية التي استخدمناها فى حرب وانتصار عام ١٩٦٧م لتوجب علينا اليوم التأمل طويلاً بما كان يُمكن أن يَحلّ بإسرائيل »(١) .

والحرب عندهم خداع ومجازر ونهب ونقض للعهود ، أما السّلام فهو استعباد للمستضعفين ، على ما يروون فى سفر التثنية : « وحين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها للصلح ، فإن أجابتكِ لصلح وفتحت لكَ ، فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويُستعبد لكَ ، وإن لم تُسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الربُّ إلهك إلى يدك ، فاضرب جميع ذُكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها ، فتضحّها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاها الرب إلهك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التى ليست من دون هذه الأمم هنا ، وأما مدن هذه الشعوب التى يعطيك الربُّ إلهك نصيباً فلا تستبقِ منها نسمة ما »!!

ومن نتائج هذا الاستخدام للنص التوراتى أنْ تجرى التربية للأحداث على العقائد الأصولية ، والصقل على التعصب الدينى والتحجر الفكرى ، فالتوجيه والتربية للأطفال

(١) دادياني : مصدر سابق – ص ٢١ .

والشباب فى المدارس والجامعات والجيش ووسائل الإعلام يتولاها حاخامات متعصبون ، ورجال دين منغلقون على نسق فكرى دوجماطيقى ، ومدرسون يريدون إحياء تراث التوراة من الأسماء وحتى الحروب ، ولا يفلت من هذه التربية المنظمة على التعصب والإرهاب أحد من السكان كبيراً أو صغيراً ، ذكراً أو أنثى .

ومنذ زمن الحكومات التى يرأسها زعماء حزب العمال تضمن المقرر الدراسى فى المدارس اليهودية فى حوالى ثلث الوقت الدراسى : العهد القديم والتلمود ، والأساطير الدينية ، كما دخل تدريس ما يُسمّى بالوعى القومى أو « التربية اليهودية » ، وكانت حكومة بيجن أكثر تشدداً من الصقل الدينى الشوفينى للجيل الإسرائيلى الجديد .

وعلى خطى الأصولية يتم تدريس اللغة العبرية والأدب والتاريخ العبرى المزيف ، ويتعلم « الصابرا » (١) الحقد على العالم ، وتتولد لديه الرغبة فى تحطيمه لأنّه أذلّ اليهود ، حتى صار التعليم مدارس رسمية لتخريج الإرهابيين والأصوليين لا لتنشئة المواطن الصالح ، كما فى كل العالم ، ويوضح ذلك عماد شكور المستشار بمنظمة التحرير الفلسطينية بقوله :

« يخرج التلميذ من حصة اللغة العبرية أو الأدب العبرى وهو يُريد أن يُحطِّم العالم لما فعله بأجداده ، وتتكون لديه أفكار لا تقل خطورة عن تلك الأفكار التى جاءت فى بروتوكولات حكماء صهيون ، ولكن الأبشع من ذلك كُله هو مدارس الدين ، فهذه المدارِس مواقع لتخريج « الإرهاب العقائدى » ، حيث يبيح الحاخامات دماء غير اليهودى ، ويَدعون إلى طرد كل العرب من فلسطين بالعنف والإرهاب » .

« ويهدف برنامج التعليم الإسرائيلى فى المدارس إلى تنشيط الذاكرة اليهودية بما حدث لآبائهم وأجدادهم فى الشتات ، لتظل الروح اليهودية فى حالة استنفار دائم ضد الغير ، وحماية « الدولة » بكل الوسائل بما فى ذلك الوسائل الإرهابية ، خوفاً من العودة إلى الشتات ومذابح الأغيار ؛ لذلك فإنّ دماء الغير مستباحة أمام الصابرا للحفاظ على أكبر وآخر جيتو يهودى فى التاريخ ، وهو إسرائيل » (٢) .

وفى منهج الدين ومدارسه يتعلم الأطفال منذ نعومة الأظفار القتل باسم الله ، وعلى

(١) الصابرا : الجيل الجديد من اليهود المولود فى فلسطين .

(٢) وجيه أبو ذكرى : مصدر سابق – ص ٢٧ .

منهج التوراة ، وهم يدرسون النصوص الخاصة بذلك ، فلا يوجد طفل فى « إسرائيل » لا يحفظ عن ظهر قلب ما جاء فى سفر التثنية : « لأنك شعب مقدس للرب إلهك ، ولقد إختارك الربُّ لتكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الأخرى على وجه الأرض » كما يُرتل التلاميذ من سفر يشوع : « حرِّموا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة ، ومن طفل وشيخ ، وحتى البقر والغنم والحمير بحد السيف ، وأحرقوا المدينة بالنار » .

ولذلك يُعَد طلاب المدارس الدينية بخاصة ، الطليعة فى حوادث القتل والإرهاب والمجازر ضد كل مَنْ لم يكن يهودياً ، ويقودهم فى ذلك الحاخامات بلحاهم الطويلة وقبعاتهم السوداء ، وقلوبهم الأشد سواداً ، وملابسهم التى تنتمى إلى القرن الماضى .

وفى عام ١٩٦٦م وجّه « تامارين » وهو بروفيسور فى جامعة تل أبيب سؤالاً إلى أكثر من ألف تلميذ من تلاميذ الصفوف الرابع إلى الثامن ، يقول : « لنفترض أنَّ الجيش الإسرائيلى احتل قرية عربية فى فترة الحرب ، فهل عليه أن يقرر مصيرها كما فعل عيسى نافين بسكان أريحا ؟ » أى القضاء عليهم كلية ، فتراوح عدد الإجابات بنعم بين ٦٦ ، ٩٥٪ ما بين مدرسة ومستعمرة زراعية يهودية أو مدنية » ، وحتى جريدة هآرتس اعترفت قبل وقت بأنَّ : الموقف السياسى من العرب فى إسرائيل يمكن مقارنته بالسياسة التى اتّبعتها الولايات المتحدة فى القرن الماضى ضد الهنود الحمر »[(١)] .

ويحمل الأطفال الإسرائيليون السلاح فى فلسطين ، وتكون هدية الأب والأم للطفل فى عيد ميلاده أو ختانه مدفعاً رشاشاً أو بندقية آلية ، ويلقنونه أن هذه البندقية لا توجه إلا إلى العرب ، ومع التربية على الحقد والكراهية والرفض للعرب ، فمن السهل الضغط على الزناد فى كل لحظة تسنح الفرصة فيها .

وهكذا تتشكل الدولة الأصولية من الجنون القومى ، والغرور الدينى، والزيف التاريخى، والرؤية المحرفة للذات وللعالم ، وتتدخلِ المنفعة السياسية مع الرؤية الدينية لتصنع من الأسطورة واقعاً ، ومن اليهودى صنماً يُعبَد من دون الله .

---

(١) دادياني : مصدر سابق – ص ٤٣ .

- ١٢ - الأصولية اليهودية وأحداث يوم النهاية

اليهود ليسوا شعباً ينتمى إلى قومية واحدة ، ولا هم من بلد واحد ، ولا لهم لغة واحدة ، ولا ينتمون إلى حضارة واحدة ، فهم مختلفون ، قلوبهم شتى من كل جنس ولون ولسان وبلد ، منهم الشرقى والغربى والأحمر والأبيض والأسود .. دخلوا اليهودية : الدين الذى يجمعهم – فى أوقات مختلفة من الدهر ، وهذا الدين هو الرابطة الوحيدة بينهم ، فلم يكونوا امتداداً لسلالة بنى إسرائيل التى كانت مع موسى عليه السلام ، والتاريخ يشهد مرورهم بكل التجارب الإنسانية من قوة وضعف ، وحروب وهزائم وانتصارات ، وإيمان وكفر وإلحاد .

ولليهود كتابهم المقدس مع التوراة وهو التلمود ، ويُعد كتاب أساطير وخرافات ودجل وشرك وكفر وفجور ، وهو يحتوى على أفكار عنصرية مبغضة ، ومع ذلك يشكل مصدر الفكر والعقيدة والإيمان اليهودى .

ويُبين التلمود عقيدة اليهود الساذجة والعنصرية عن الله وعلاقتهم به وبالعالم ، وهم يعتقدون أنّ لكل شعب ديناً قومياً ، وربّاً قومياً خاصّاً ، وربُّهم اسمه « يهوه » الذى ارتبط بهم وارتبطوا به رباطاً أبدياً لا يمكن لأحد طرفيه الاستغناء عن الآخر ، بل إنّ الربَّ الخاص باليهود خاضع لهم ، وهو عندهم لا يتنزه عن الكذب والندم والبكاء والرقص وحنث اليمين !

ويعتقد اليهود كذلك أنّ الصراع بينهم وبين أعدائهم هو صراع بين إله اليهود الخاص وآلهة الشعوب الأخرى ، وأنّ إلههم يهوه يغضب إذا خرج بعض شعبه عن العهد واتّبعوا آلهة شعوب أخرى ، ومع ذلك فهو يتدخل لإنقاذ شعبه المختار والمفضل على رغم شركه وكفره ، وهذه الأفكار الساذجة كانت منتشرة قديماً بين الشعوب الوثنية .

وطبقاً لأقوال التلمود (١) : اليهود أبناء الله ، أما غيرهم فحيوانات نجسة .

وقد جاء في ذلك :

تتميز أرواحِ اليهود عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله ، كما أنّ الابن جزء من والده ، ومن ثمّ كانت أرواح اليهود عزيزة عند الله بالنسبة لباقي الأرواح ؛ لأنّ الأرواح غير اليهودية هي أرواح شيطانية وشبيهة بأرواح الحيوانات .

إذا لم يُخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض ، ولما خُلقت الأمطار والشمس ، ولما أمكن باقي المخلوقات أن تعيش ، والفرق بين درجة الإنسانَ والحيوان هو بقدر الفرق الموجود بين اليهود وباقي الشعوب .

الخارج من دين اليهود حيوان على العموم ، فسمه : كلباً أو حماراً أو خنزيراً ، والنطفة التي هو منها هي نطفة حيوان !

وقال الحاخام (أباربانيل) : المرأة غير اليهودية هي مِن الحيوانات ، وخلق الله الأجنبي علي هيئة الإنسان ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذين خلقَت الدنيا لأجلهم ، لأنّ هذا لا يناسب الأمير أنْ يخدمه ليلاً ونهاراً حيوان وهو على صورته الحيوانية ، كلا ثم كلا ، فإنّ ذلَك منابذ للذوق والإنسانية كل المنابذة ، فإن مات خادم يهودى أو خادمته ، وكانا من المسيحيين ، فلا يلزمك أن تُقدم له التعازى لا بصفة كونه فقد إنساناً ، ولكن بصفة كونه فقد حيواناً من الحيوانات المسخّرة له ...

وليس من العدل أن يُشفق الإنسان على أعدائه ويرحمهم .

وجاء في التلمود أيضاً : الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة ، فإذا ضرب أمّي إسرائيلياً فكأنه ضرب العزة الإلهية ، وهو يستحق لذلك الموت ، وجائز لبني إسرائيل أن يغشّوا الكفار (غير اليهود) لأنه يقول : يلزم أن تكون طاهراً مع الطاهرين ، ودنساً مع الدنسين .

ومحظور على اليهود - حسب التلمود - أن يُحيوا الكفار بالسلام ، ما لم يخشوا

---

(١) ننقل مما ورد في التلمود عن :

- « من التلمود » : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، دار التحرير ، القاهرة ، د . ت .
- « الكنز المرصود في فضائح التلمود » : أوجست روهلنج - دراسة د. محمد عبد الله الشرقاوى- مكتبة الوعي الإسلامي - ١٤١٠هـ - ص ١٩٠ - ٢٥٤ .

ضررهم أو عداوتهم ، واستنتج الحاخام بشاى من ذلك أنَّ النفاق جائز ، وأن الإنسان (أى اليهودى) يمكن أن يكون مؤدباً مع الكافر ، ويدَّعى محبته كذباً إذا خاف أن يؤذيه .

وقال الرابى كروز : إنَّ التلمود يُصرح للإنسان (يعنى اليهودى) أن يُسلم نفسه للشهوات إذا لم يمكن أن يُقاومها ، ولكنه يلزم أن يفعل ذلك سراً لعدم الضرر بالديانة !

ولليهود الحق فى اغتصاب النساء غير المؤمنات ، أى غير اليهوديات ، وأنَّ زواج غير اليهود باطل لأنه من قبيل وطء الحيوانات ، وفى التلمود كذلك : « أنَّ مَنْ رأى أنه يجامع والدته فسيؤتى الحكمة ، بدليل ما جاء فى كتاب الأمثال (٢١٣) : أنَّ الحكمة تُدعَى والدة ، ومَنْ يرى أنَّه جامع خطيبتـه فهو محافظ على الشريعة ، ومَنْ يرى أنَّه جامع أخته فمن نصيبه نور العقل، ومَنْ يرى أنه جامع امرأة قريبته فله الحياة الأبدية!

ويجب على كل يهودى أن يلعن كل يوم النصارى ثلاث مرات ، ويطلب من الله أن يُبيدهم ، ويفنى ملوكهم وحكامهم ، وأنَّ الله أمر اليهود بنهب أموال المسيحيين وأخذها بأى طريقة كانت سواء استعملوا الحيلة أو السرقة أو الربا .

ومن المفروض عندهم قتل كل مَنْ خرج عن دينهم وخصوصاً الناصريين (المسيحيين) لأنَّ قتلهم من الأفعال التى يُكافئ الله عليها ، وإذا لم يتمكن اليهودى من قتلهم فمفروض عليه أن يتسبب فى هلاكهم فى أى وقت ، وعلى أى وجه ، ويعدون ذلك من العدالة ، لأن التسلط على بنى إسرائيل سيدوم ما دام واحد من هؤلاء الكفار ، فلذلك جاء أنَّ مَنْ يقتل مسيحياً أو أجنبياً أو وثنياً يُكافأ بالخلود فى الفردوس ، والجلوس هناك فى السراى الرابعة ! أما مَنْ قتل يهودياً فكأنَّه قتل العالم أجمع .

ومن شعائر اليهود الخطرة « فطير الفصح » ، وهى شعيرة أثارت جدَلاً كبيراً فى العالم وتناولتها عدة كتب بالعرض والتحقيق وسوق وقائع تاريخية تثبتها [١] ، وتصنع هذه الفطيرة من خبز غير مختمر لمناسبة عيد الفصح ، وهو ذكرى عبورهم وخروجهم من مصر بقيادة موسى عليه السلام ، وأوامر الحاخامات تقضى بأن هذه الفطيرة لابد أن تعجن بدم بشرى ، وقد جرت كثير من الذبائح السرية لغير اليهود للحصول على هذه الدماء .

ولليهود موقف مشين من الأنبياء ، فهم قتلة الأنبياء والمسيئون إليهم ، ويروى كتاب

---

(١) يمكن الرجوع إلى هذه المراجع فى كتاب « الكنز المرصود فى فضائح التلمود » – مرجع سابق– هامش ص ١٨٥ .

« زوهار » أن يسوع (عليه السلام) مات كبهيمة ودفن فى كومة قذرة .. حيث تُطْرَح الكلاب والحمير النافقة، وحيث أبناء إيسو (المسيحيون) وأبناء إسماعيل (المسلمون)، بالإضافة إلى المسيح ومحمد غير المختونين (!!) والنجسين كالكلاب النافقة .. وهؤلاء جميعاً مدفونون معاً .

وفى التلمود وكتبهم الأخرى يسبُّون المسيح عليه السلام بأنه مجنون وساحر ومتفق مع الشيطان وكافر ومرتد لا يعرف الله ومخبول ومشعوذ ومضلّل وابن زنا ووثن وكاذب وشرير ومجدف ووثنى ومدفون فى جهنم وصاحب هرطقة ، وعلى كهنة اليهود أن يصلُّوا ثلاث مرات فى كنيسهم بغضاً له ، وعندهم كذلك أن كنائس المسيحيين كبيوت الضالين ، ومعابد الأصنام ، فيجب على اليهود تخريبها .

ويعتبر اليهود أنفسهم مساوين للعزة الإلهية ، ولذلك تكون الدنيا بما فيها ملكاً لهم ، ولهم عليها حقُّ التسلط ، ولهم مطلق التصرف فى كل شيء فيها ، وإذا سرق أولاد نوح (أى غير اليهود) شيئاً ، ولو كانت قيمته تافهة جداً ، فإنّهم يستحقون الموت ؛ لأنهم قد خالفوا الوصايا التى أوصاهم الله بها ، وأما اليهود فمصرح لهم بأنْ يضروا الأمى (غير اليهود) لأنه جاء فى الوصايا « لا تسرق مال القريب » ، وفسَّر علماء التلمود هذه الوصية بقولهم : إنَّ الأمى ليس بقريب ، وأنَّ موسى لم يكتب فى الوصية : « لا تسرق مال الأمى » ، فسلْبُ ماله لا يكون مخالفاً للوصايا !

ويعتقد اليهود أنَّ إلههم الخاص سينتقم لهم من جميع البشر ، ويُملّكهم الكون فيصيرون له أسياداً ؛ لأنهم عرق خاص ، أما سائر البشر فيطلقون عليهم لفظ : جنتل أو العامة .

والوعد الإلهى لبنى إسرائيل بزعمهم لا يقتصر على تمليكهم الأرض التى بين نهرى النيل والفرات ، كما هو متداول ، بل يعتقدون أنَّ الرّب سيملّكهم العالم كله ، ونصوصهم المزورة تؤكد ذلك ، ففى سفر التثنية – الإصحاح السابع : « متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها ، وطرد شعوباً كثيرة من أمامك .. فإنّك تحرمهم ولا تقطع لهم عهداً ، ولا تشفق عليهم ، ولا تصاهرهم ، لأنك أنت شعب مقدس للربِّ إلهك » ، « إياك قد اختار الربُّ إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض ، لا ترهب وجوههم ، لأنَّ الرب إلهك فى وسطك ، إله عظيم مخوف .. ولكن الرب إلهك يطرد الشعوب من أمامك قليلاً قليلاً ، ويدفعهم

الرب إلهك أمامك ، يوقع بهم اضطراباً عظيماً حتى يفنوا ، ويدفع ملوكهم إلى يدك فتمحو اسمهم من تحت السماء ، ولا يقف إنسان فى وجهك حتى تفنيهم » .

وفى التلمود عن نهاية الزمان : تطرح الأرض فطيراً وملابس من الصوف وقمحاً حبة بقدر كلاوى الثيران الكبيرة ، وفى ذلك الزمن ترجع السلطة لليهود ، وكل الأمم تخدم ذلك المسيح (اليهودى) وتخضع له ، وفى ذلك الوقت يكون لكل يهودى ألفان وثمانمائة عبد يخدمونه ، وثلاثمائة وعشرة أكوان تحت سلطته ، ولكن المسيح لا يأتى إلا بعد القضاء على حكم الأشرار (الخارجين على دين بنى إسرائيل) .

ولذلك يجب على كل يهودى أنْ يبذل جهده لمنع امتلاك سائر الأمم فى الأرض تظل السلطة لليهود وحدهم ، لأنّه من الضرورى أن تكون لهم السلطة أينما حلوا ، فإن لم يتيسر لهم ذلك اعتُبروا منفيين وأسارى ، وإذا تسلط غير اليهودى على وطن اليهود حقٌ لهؤلاء أنْ يندبوا عليه ، ويقولوا : يا للعار ، ويا للخراب .

وسيستمر ضرب الذل والمسكنة على بنى إسرائيل حتى ينتهى حكم الأجانب ، وقبل أن يحكم اليهود نهائياً سائر الأمم يجب أن تقوم الحرب على قدم وساق ، ويهلك ثلثا العالم ، ويبقى اليهود سبع سنوات متواليات يحرقون الأسلحة التى كسبوها بعد النصر ، وحينئذ تنبت أسنان أعداء بنى إسرائيل خارج أفواههم ، ويكون طولها اثنين وعشرين ذراعاً !

ويعتقد اليهود أنه يجب عليهم أن يعيشوا فى حروب طاحنة مع سائر الشعوب فى انتظار ذلك اليوم وإتيان المسيح الحقيقى (الخاص بهم) ، فيحقق النصر المنتظر ، ويقبل مسيحهم إذ ذاك هدايا جميع الشعوب ، ولكنه يرفض هدايا المسيحيين ، وتكون الأمة اليهودية يومئذ فى غاية الثراء ؛ لأنّها تكون قد ملكت كل أموال العالم .

وقد ذُكر فى التلمود أنّ هذه الكنوز ستملأ بيوتاً كبيرة لا يُمكن حمل مفاتيحها وأقفالها إلاّ على ثلاثمائة حمار (!!) وترى الناس كلهم حينئذ يدخلون فى دين اليهود أفواجاً ، ويقبلون جميعاً عدا المسيحيين فإنّهم يهلكون لأنهم من نسل الشيطان ، ويتحقق أمل الأمة اليهودية بمجىء إسرائيل وتكون هى الأمة المتسلطة على باقى الأمم عند مجىء المسيح .

ويعتقد اليهود أنه قبل النهاية سيسود انحطاط أدبى ودينى ، وتَفسد الأخلاق ، وتنتشر

المفاسد ، وتعم الموبقات والأمراض ، وتفشو الأوبئة والثورات ، وتكثر المجاعات والكوارث البيئية كالزلازل ، والبراكين ، والفيضانات ، وطوافانات من نار، ويتبدل حال الكون عامة: الشمس والقمر والأرض والجبال ، إنَّه صورة القيامة التى يعتقدها المسلمون ، ولكن ليس بنفس التفصيلات ، فالبشر لا يموتون جميعاً ليُعاد قيامتهم وحشرهم، وحسابهم وجزاؤهم، فإما إلى الجنة ، وإما إلى النار .

فاليهود لا يؤمنون حقيقة باليوم الآخر على ما يُؤمن به المسلمون ، ولكنهم يعتقدون أنَّ مجىء المسيح سيكون بداية لعالم الخلاص ، وهو عالم أبدى يذهب الأشرار فيه إلى الجحيم ، ويعيش الصالحون فى سعادة أبدية ، وهو عالم يختلف فى كل جوانبه عن عالمنا الذى نعيشه اليوم ، إنَّه عالم متسام فى خصائصه لديهم : عالم الحياة السعيدة الأبدية ، والنور والسلام حيث لا يحتاج الإنسان إلى طعام ولا شراب ، وينتهى فيه الألم والموت إلى الأبد ، فلا حقد ولا منازعات ، بل يجلس فيه الأتقياء يتمتعون بالحضور الإلهى الساطع، ولكنه فى حقيقته عالم أرضى حيث لا إفناء ثم إعادة بعث لعالم أخروى ، بل الذين ينجون من اليهود وأتباعهم هم أصحاب هذا الفردوس المنتظر .

ولا بد - فيما يرون - أن تتجمع فى هذا اليوم جميع الشعوب « الوثنية » لمحاربتهم يتقدمها شعب يأجوج ومأجوج ، فتشن حرباً مدمرة على « إسرائيل » ، وتدخل أورشليم فتحيلها إلى خرابٍ ، ويتدخل الربُّ لإنقاذ شعبه ، فيدخل الحرب ، وينقضُّ على أعداء شعبه الوثنيين ، ويرسل ناراً تحصدهم ، وينتهى الأمر بانتصاره ، وإنقاذ اليهود ، والقضاء على يأجوج ومأجوج ، ويسمَّى هذا اليوم يوم الرب أو يوم النهاية .

ويقول الرابّى يوسى عن عصر الخلاص المسيحانى اليهودى : « سيجلس الرب المبارك ، ويسحق الأغيار (غير اليهود) شيئاً فشيئاً ، ولا يقدرون على البقاء أمامه لأنَّ التوراة تكون عليهم نيراً عظيماً يحاولون التخلص منها » .

ويقول الرابّى اليعازر بن هيركانوس ، والرابّى يوسى مسكيت :

« ستُصبح « إسرائيل » أعظم وأوسع من الأمم المجاورة لها كشجرة التين جذورها قصيرة ولكنها مرتفعة إلى أعلى ، أما أبواب أورشليم ، فستصل إلى دمشق كما قال أشعيا النبى ، وتذهب شعوب كثيرة قائلة لنذهب ونعدْ إلى جبل الربِّ « يهوه » وإلى بيت آل يعقوب فيعلِّمنا من طرقه ، ونسلك فى سبله ، لأنَّه من صهيون تخرج الشريعة ، ومن أورشليم كلمة الرب » .

وفى قول رابًى آخر : « يقول الربُّ لقد كنتُ معكم أيام العبودية ، وسأكون معكم عند استعبادكم للشعوب والأمم »[(١)] .

إنه يوم خلاص « إسرائيل » وإتيان مملكة الله ، أى المملكة المؤمنة به المنقادة بأوامره ، التى هى خلاص للعالم كله من مركزية « إسرائيل » العنصرية ، حيث استرداد المملكة المسيحانية اليهودية المنتظرة هى استرداد للعالم أجمع ، وحيث الظفر « لإسرائيل » شعب الله ، والانتقام والثأر على يد الرب من جميع الأعداء الأميين ، والإطاحة بجميع الملوك، وخلع البابا عن كرسيه فى روما .

والذى يقود هذا الخلاص النهائى فيما يرون هو مسيحهم المنتظر الذى سيكون يهودياً من نسل داود – عليه السلام – وحاكم مملكة عصر الخلاص ، وأداة الإله يهوه لتدمير الأعداء وتحقيق الخلاص وتأسيس المملكة ، والمسيح سيكون الحاكم إلى الأبد باسم الرب. وباعتباره أباً لليهود ، فتسود مرحلة جديدة من الانتصار اليهودى والسيادة على سائر الأمم التى تخضع لنبيهم (ملك السلام) وإلههم ، وتأتيهم خاضعة مقدمة الهدايا والقرابين لشعب الرب .

وهكذا نرى الأسطورة والخرافة والتأويلات العنصرية تختلط بالدين ، فبدلاً من أنْ يُفكر بنو إسرائيل كيف يمكن أن يصبحوا هُداة ، إذا بهم يحلمون بكيف يصيرون سادة للعالم ، وليس بالإيمان والعمل الصالح يسيرون بين الأمم ، ويخضعون لأوامر الرب ، ولكن بالمكر والخداع والدم والنار والاحتلال والاغتصاب والنهب ، بدلاً من التمسك بدعوة الأنبياء إلى الطريق القويم بعبادة الرب ونبذ عبادة الأوثان ، واجتناب الموبقات والفساد الاجتماعى والانحلال الخلقى ، نجد أحبار التلمود ومعاصريهم من الكهنة وأتباعهم ينحون بمفهوم الخلاص منحًى عنصرياً كارثياً حيث أصبح يشير إلى الإيمان بمجىء ملك يهودى ترسله السماء يتميز بقدرات قتالية خاصة ، ويقود بنى إسرائيل ويضعهم طبقاً لهذا المفهوم المتطور على قمة السُّلم البشرى .

« وتحت تأثير قبول عقائد وثنية أخرى تبعد عن شريعة موسى – عليه السلام – وتحت تأثير العنصرية والدونية التى يتحدث عنها أولئك الأحبار نتيجة للهزائم العسكرية المتكررة ، وضع أحبار التلمود شروطاً أخرى لمجىء هذا الملك المسيح عُرِفَتْ باسم مخاض ولادة

(١) منى كاظم : مصدر سابق – ص ١٠٠ .

المسيح ، هى فى مجملها حالة الكوارث المدمرة الشاملة للعالم أجمع ، تتبعها حالة سلام وهدوء أبدى يتميزون فيه كما يعتقدون بوضع السيادة على كافة الأمم ، وتأتيهم الشعوب من كافة أنحاء المعمورة متعبدة طائعة مقدمة القرابين لتتخذ من صورة الإله التى يرسمها بنو إسرائيل فى هذا التراث محطاً للعبادة ، وتصبح عبادة الشعوب لصورة هذا الرب ، خضوعاً لبنى إسرائيل فى الوقت نفسه »(١) .

ويرى مونكل - أحد دارسى العهد القديم - أنَّه يتضمن أفكاراً أسطورية ، مؤكداً أنَّ فكرة الملك والمملكة فى منطقة الشرق القديم هى فكرة أسطورية أو قريبة من الأسطورة بمقدار ما ، وبالطبع فإننا نتوقع أن تظهر العناصر الأسطورية عند الحديث عن الملك المسيح اليهودى ، وذلك عند التعبير عن قوته ومقدرته الإلهية .. فالمملكة الأسطورية لابد أنْ يحكمها ملك أسطورى »(٢) .

واليهود مع هذا اللهف فى انتظار يوم النهاية يشغفون بتحديد التواريخ التى سيظهر فيها المسيح ، ويعدون الأسلحة المطورة والقنابل النووية والنيترونية ، ويكدسون الذخائر والعتاد التى سيستخدمها مسيحهم لإخضاع العالم وتدميره ، وقد وضعوا عدة تحديدات لتواريخ عودة المسيح اعتماداً على الحدس والتخمين إلا أنها فشلت جميعاً بطبيعة الحال ، ولم تجد إلا فى تشجيع ظهور عدد من المسحاء الكَذَبة من بنى إسرائيل استغلوا هذه العقيدة لأغراضهم الدُّنيا .

ومن العجيب أنَّ الأسفار التى بأيدى اليهود على رغم تحريفها لا تحتوى على تلك العقيدة كما يروونها ، ولكنها تتحدد فى العناصر الآتية ليوم الرب - كما توردها دكتورة منى كاظم فى كتابها عن المسيح اليهودى (٣) :

١ - عقاب يحل على بنى إسرائيل بسبب خطيئتهم فى حق إلههم « يهوه » ، وعبادتهم لآلهة غيره ، وهو عقاب يشمل الآثمين والقضاة والظالمين الذين لم ينصفوا الأرامل واليتامى ، حتى الملوك والكهنة يحل عليهم عقاب الرب أيضاً لأنَّهم لم يراعوا حقوق الرب .

---

(١) منى كاظم : مصدر سابق - ص ٩٨ .
(٢) منى كاظم : المصدر نفسه - ص ٦٦ .
(٣) منى كاظم : المصدر نفسه - ص ٤٧ .

٢ - عقاب ينزله الرب على الشعوب الأخرى من عابدى الأوثان ممن اضطهدوا « إسرائيل » وتسببوا فى سبيهم وشتاتهم .

٣ - خلاص « إسرائيل » من أعدائها ومضطهديها ، والعودة من السبى ، واستعادة مملكة داود ، واعتراف كل الأمم بمجد أورشليم .

٤ - انتشار نوع من السعادة والرخاء على الأرض كلها التى يسودها السلام ، وتزداد ثمارها وينعم الجميع بالسعادة .

وهكذا يعتنق اليهود رؤية انتقائية ومحرفة لما ورد فى الأسفار ، فهم يغمضون أعينهم عما جاء فى سفر حزقيال عن فساد أورشليم وسقوطها مثل : « أيتها المدينة السافكة الدم فى وسطها ، ليأتى وقتها ، الصانعة أصناماً لنفسها لتتنجس بها ، وقد قربت أيامكِ ، وبلغت سنيكِ ، ولذلك جعلتك عاراً للأمم ومسخّرةً لجميع الأراضى» .

وعن رؤساء « إسرائيل » يقول حزقيال : « كانوا فيك لأجل سفك الدم ، فيك أهانوا أباً أو أماً ، فى وسطك عاملوا الغريب بالظلم ، فيك اضطهدوا اليتيم والأرملة ، ثم فى وسطك عملوا رذيلة ، فيك كشف الإنسان عورة أبيه » .

وفى سفر أشعيا عن اليهود : « خيوطهم لا تصير ثوباً ، ولا يكتسون بأعمالهم ، أعمالهم أعمال إثم ، وفعل الظلم فى أيديهم ، أرجلُهم إلى الشر تجرى وتسرع إلى سفك الدم الزكى ، أفكارهم أفكار إثم ، فى طرقهم اغتصاب وسحق ، طريق السلام لم يعرفوه ، وليس فى مسالكهم عدل ، جعلوا لأنفسهم سبلاً معوجة ، كل مَنْ يسير فيها لا يعرف سلاماً » .

وفى مراثى أرميا : « أتمّ الربُّ غيظه ، سَكَبَ حَمْوَ غضبه ، وأشعل ناراً فى صهيون ، فأكلت أسسها ، لم تصدق ملوك الأرض ، وكل سكان المسكونة أنّ العدو المبغض يدخلون أبواب أورشليم » .

وفى سفرِ دانيال : « وكلُّ إسرائيل قد تعدت على شريعتك ، وجاءوا لئلا يسمعوا صوتك ، فكتب علينا اللعنة ، والحلف المكتوب فى شريعة موسى عبد الله ، لأننا أخطأنا إليه ، وقد أقام كلماته التى تكلم بها علينا وعلى قضاتنا الذين قضوا لنا ، ليجلب علينا شراً عظيماً ، ما لم يجر تحت السموات كلها ، كما أجرى على أورشليم » .

وفى سفر أشعياء : « يا إلهة الشرور ، يا أورشليم ، وقاتلة الأنبياء ، سوف يسلط الله

عليك : منتظرى الرب فيجدون قوة ، يرفعون أجنحة كالنسور ، يسرعون لا يتعبون ، يمشون ولا يعيون » .

وفى سفر حزقيال : « وأنت أيُّها النجس الشرير ، رئيس إسرائيل الذى قد جاء يومه فى زمان إثم النهاية » .

ومن المؤسف أنّ اليهود يعيدون إحياء ديانتهم على هذه الأسس العقدية الأصولية الخطرة على العالم وعلى أنفسهم ، ويستوى فى هذا كل اليهود ، حيث الدين صار هوية عنصرية ثقافية وسياسية متطرفة يقودها جماعات تخلط الدين بالسياسة ، وبعضها أكثر غلواً من بعض للتأثير على المجتمع وإعادة صياغته وفقاً لرؤيتها الخاصة للدين ، وبعضها يعمل داخل الإطار الحزبى السياسى ، وبعضها الآخر يضع الطائفة متمايزة أمام الدولة والقانون ، ومن يكن منهم فى أوربا وأمريكا يرفض مبدأ المساواة بين كافة المواطنين ، وهو يهدف إلى الانعزال عن حركة المجتمع غير اليهودى ، مما يمكن معه أنْ تعود المسألة اليهودية إلى الغرب يوماً ما بوجه ما .

وقد شهدت الدولة الأصولية منذ إعلانها أحزاباً دينية تعمل فى الكنيست ، إلا أنَّ الثمانينات كانت هى السنوات التى جرى فيها تأسيس عدد كبير من الأحزاب السياسية الدينية المغالية فى تدينها ، وتدعو فى برامجها إلى تطبيق أوامر ووصايا التوراة ، ويعد الحزب الدينى القومى « مفدال » هو الأول حيث عدَّ شريكاً أساسياً فى كافة التحالفات الانتخابية منذ بداية الدولة ، وهو يطالب بتأكيد صريح للهوية الصهيونية الدينية ، وبزيادة الدين فى الحياة السياسية والاجتماعية ، وكان محضناً لحركات أشد أصولية مثل جوش إيمونيم التى تربى دعاتها فى المدارس الدينية التلمودية الخاضعة لهذا الحزب .

وهناك عدد من الأحزاب الأصولية المغالية تعمل داخل البرلمان الإسرائيلى مثل :

- حركة شاس .
- حركة موليديت .
- حزب ديجيل هاتوراة .
- حركة أجودات إسرائيل .
- حزب تيخيا .
- حزب حيروت ، ومنظمته الشبابية بيتار .
- الحركة لخلق إسرائيل الكبرى : أُنشِئَتْ من اتفاق بين الأحزاب والمجموعات والتنظيمات الأصولية .

وفى جانب آخر توجد حركات ومنظمات وطوائف أصولية ، بعضها يعمل فى السر ،

والآخر جهراً ، مثل : منظمة كاخ ، ومنظمة بناى بريث ، وحلف الغيورين برئاسة الحاخام مردخاى إلياهو ، ومنظمة حارس الحرم بزعامة الحاخام جرشون سلمون ، ومنظمة مخلص الحرم ، وحركة مخلصى جبل البيت ، وحركة أمناء الهيكل ، وقد ظهرت معظم هذه المنظمات الأصولية فى الفترة السابقة لحرب ١٩٦٧م ، ومهدت لظهور حركات ومنظمات أخرى فعلت فعلها بعد هذا التاريخ منها :

حركة لجنة الأمن ، وحركة متسياد ، ومجموعة لفتا ، والمنتقمون ، ومجموعة عين كارم ، وحركة أرض إسرائيل ، وحركة هاراب مدرسة الحاخام كوك ، ثم حركة جوش إيمونيم ، وحركة إرهاب ضد إرهاب (ت. ن. ت.) ، وحركة تسوميت ، ومنظمة كاهاناحى .

ومن المنظمات الأصولية أيضاً : ماعتس التى تقوم بسرقة الشركات والمزارع والمصانع والبنوك والسيارات لتمويل عملياتها الإرهابية ضد العرب ، وكانت مهمتها مساندة الإرهابى الخطير كاهانا وحركته ، وتهدف أيضاً ضرب الذين ينادون بالسلام فى « إسرائيل » ، أو الذين يطالبون بإعطاء الحقوق الإنسانية للعرب .

ومنها منظمة « المشمونيون » : الشباب الإسرائيلى المتطرف ، وتستخدم العنف والقوة والسلاح والقنابل ضد الشباب العربى ، كما تهدف إلى نسف قبة الصخرة ، وكذلك منظمة رابطة الدفاع اليهودى ، ويقودها شلومو جورين ، وهو يردد أنَّ حركة ورابطة الدفاع اليهودى ستخوض صراعاً حاداً من أجل استعادة الهيكل وإزالة المساجد بما فيها المسجد الأقصى ، أخزاهم الله جميعاً من أصوليين .

وتُعَدُّ حركة جوش إيمونيم – وتعنى كتلة الإيمان – من أبرز المنظمات السرية الأصولية التى كان لها دور كبير فى تحريك المجتمع اليهودى ، نحو مزيد من الأصولية والتطرف ، فقد وضعوا رؤية للمستقبل ترفض الصهيونية العلمانية الدنيوية ، وتتجاوزها إلى فكرة أرض « إسرائيل » التوراتية ، وانطلاقاً من هذه الرؤية عارضت كَل رغبة فى مقايضة الأرض بالسلام ، لأنَّها فى رأيها يهودية إلى الأبد بسبب العهد المعقود بين الله والشعب المختار ، ولكى تتوصل إلى غاياتها هذه التزمت سياسة إنشاء مستوطنات سكنية فى الأراضى المحتلة بعد ١٩٦٧م ، لكى تخلق بها أوضاع أمر واقع ، وتهدف الحركة بذلك إلى الضغط مباشرة على السلطة السياسية لدفعها إلى خوض سياسة « معاودة تهويد من فوق » ، تكون ترجمتها المباشرة الملموسة ضم الأراضى المحتلة ، ومنتهاها هو تحويل

« إسرائيل » إلى دولة تحكمها « الهالاخاة » (الشريعة اليهودية) التي تفضي بالتدريج إلى « الافتداء » [١] .

ومما يُحسب لهذه الحركة من « نجاح » هو أنّها أثرت على القيادة السياسية في مسألة الاستيطان ، فقد كانت الحكومة العمالية ضد استيطان الأراضي المحتلة بعد ١٩٦٧م ، إلى أن مارست « كتلة الإيمان » ضغوطها عليها ، فبدأ الاستيطان هناك وتسارع ، وحضر مناحيم بيجن بنفسه ليضفي مشروعية الدولة على سياسة جوش إيمونيم الاستيطانية لأنّها أيدته في الانتخابات ، وبدأت الحركة تتلقى الأموال المتدفقة من كافة الوزارات ، مثل : الزراعة والإسكان والاستيعاب والدفاع ، ومن الوكالة اليهودية ، ورجال الأعمال ، وبنوك ومصانع في داخل فلسطين وخارجها ، وحصلت على تأييد وتعاطف بل تواطؤ رسمي داخل مختلف شرائح جهاز الدولة السياسي والإدارة العليا .

وكانت حركة جوش إيمونيم تستخدم كل الآليات ابتداءً من المظاهرات والمسيرات في الأراضي المحتلة بعد ١٩٦٧م لتأكيد الاستيطان ومروراً بالقتل والمجازر والتفخيخ ، ونهاية بمحاولات لهدم مسجدي الأقصى وقبة الصخرة لإثارة حرب كونية تعجل « بافتداء إسرائيل » حسب زعمهم ، قاتلهم الله .

وتتهم الحركة « الإيمانية » القادة السياسيين بالتساهل مع الفلسطينيين ؛ لذا بدأوا في ممارسة العنف والإرهاب ضد رخاوة الدولة ، فقاموا بعمليات قتل بشعة منها مجزرة جامعة الخليل الإسلامية عام ١٤٠٣هـ ، وأخذوا يُخططون لنسف المسجد الأقصى ، وفي الوقت نفسه يخططون لاغتيال ثلاثة من رؤساء البلديات الفلسطينية ، وذلك بزرع قنابل في سياراتهم أدت إلى إصابتهم بتعويقات خطيرة ، وارتفعت « البهجة » لتشمل الدولة الأصولية والمجتمع الأصولي بعد هذه العملية الإجرامية ، وكانت امرأة إسرائيلية من عامة الشعب تصرخ بعد سماعها خبر تفخيخ السيارات الثلاث : « أُريدُ تقبيل أياديهم » ، وهي تقصد واضعي القنابل ، أما حاكم الأراضي المحتلة العسكري فإنّه أسف لأن القنابل اقتصرت على جرح الضحايا !

وتتهم «كتلة الإيمان» الساسة الإسرائيليين بالتساهل أيضاً في السيطرة على الأراضي ، وكانت معاهدة السلام سبباً لعملهم المتسارع لهدم المسجدين الأقصى وقبة الصخرة حتى

---

(١) جيل كيبل : مصدر سابق – ص ١٧٢ .

تقوم حرب عربية إسرائيلية تتوسع تدريجياً إلى حرب إسلامية – غربية كونية تؤدى إلى طرد العرب من فلسطين ، وتمهد لظهور المسيح كمحفز لديناميكية «الافتداء للإنسانية» بانتهاء « إسرائيل » العلمانية ، وبداية « مملكة إسرائيل المسيحانية » .

ويقول جدعون آران ، وهو جامعى « إسرائيلى » يعرف عالم جوش إيمونيم من الداخل : « فرؤساء هذه الحركة السرية اعتبروا أنّ تفجير ذلك الرجس (مسجد الصخرة والمسجد الأقصى !) سيقود مئات ملايين المسلمين إلى الجهاد ، وهو أمر سيشعل الإنسانية كلها فى مواجهة أخيرة ، كانوا يرون فى هذه المواجهة حرب يأجوج ومأجوج مع كل متضمناتها الكونية ، وانتصار إسرائيل فى نهاية امتحان النار الذى طال انتظاره ، هذا يمكن أن يمهد الطريق أمام ظهور المسيح »(١) .

وإذا كان عالم المعاهد التلمودية الأرثوذكسية بكامله، والحاخام الأكبر فى « إسرائيل » يرون أنّ الشريعة اليهودية تحظر على اليهود دخول باحة الهيكل طالما لم يظهر المسيح المنتظر ، على حين لم تتقيد جوش إيمونيم الأصولية (ولا كاهانا) بهذا التقييد ، واستحلوا دخول المسجد للتفجير وقتل المسلمين وهم فى صلاتهم ، ولا يعد هذا شاذاً فى مجتمع لا يعرف إلا الشذوذ ، فبعد يونيو ١٩٦٧م طلب رئيس حاخامات الجيش الإسرائيلى « تنظيف » الأمكنة (يعنى هدم المساجد)، إلا أنّ موشى ديان يومها عارض ذلك، ويضغط الأصوليون اليهود – وكلهم أصولى – على الحكومات لبسط السيطرة على الحرم الشريف، إلاّ أنّ البرلمان الإسرائيلى يتراجع خوفاً من أنْ يؤدى تدمير الأماكن الإسلامية المقدسة إلى حرب عالمية ثالثة فى وقت غير مناسب، وهم مع ذلك أعدوا خطة رسمية سرية كاملة لهدم المسجد وبناء الهيكل فى أقل من ٤٨ ساعة ، وأُعدتْ لذلك الأساس والحوائط سابقة التجهيز والمتعلقات « المقدسة » والكهنة بملابسهم وشاراتهم بعد أنْ تدربوا على الطقوس الكهنوتية، ولا ينقص إلا اللحظة المناسبة للعملية، حمى الله بيته.

وتقوم الطائفة الأرثوذكسية الأصولية اليهودية على مقاربات عقدية مع جوش إيمونيم، فهى تعتقد أنّ « الدولة الإسرائيلية » علمانية كافرة ، لا شرعية لها ، وتعمل على تكثير النسل بين أتباعها ، وتكوين متحدات جمعية تمارس طقوس الديانة فى معزل عن المجتمع العلمانى غير المؤمن ، ومع ذلك تنشئ شبكات مدارس دينية ومؤسسات تعليمية

---

(١) جيل كيبل : مصدر سابق – ص ١٧٩ .

لتربية الأجيال الجديدة على عقائدها الأصولية ، وللانتشار على وجه المجتمع ، وتضم معاهدها التلمودية مئات آلاف الطلاب لدراسة التوراة والشريعة والعقائد الإيمونية والأرثوذكسية ، وتستخدم كلتاهما الانتخابات لإيصال رجالها أو مَنْ يتعاون معها إلى السلطة للتأثير من القمة، وإذا كانت كتلة الإيمان تعمل فى الأراضى المحتلة بعد ١٩٦٧م أكثر ، فإن الأرثوذكس يعملون فى الأراضى المحتلة قبل ذلك .

وللأرثوذكس وجود واسع داخل المجتمع الإسرائيلى ، وقد استطاعوا تأسيس ثلاثة أحزاب أصولية تمثل شريكاً لا غنى عنه فى كل ائتلاف حكومى ، وهى :

١ - شاس : وهو حزب غلاة الأرثوذكس الشرقيين (السفاراديم) .

٢ - اجودات إسرائيل ، وهو حزب اليهود الغربيين (الاشكنازيم) .

٣ - ديجيل هاتوراة .

وتحصل هذه الحركة على مقاعد برلمانية ووزارات تؤهلها لسماع صوتها السياسى ، إلا أنها تعانى الانقسام حيث يجرى تمييز داخلها بين المتدينين الاشكناز المنتمين لحزب « اجودات إسرائيل » وهم غربيون ؛ واليهود الشرقيين المنتمين لحزب شاس فى الزواج والوضع الاجتماعى ، لذا كان إنشاء شاس رداً على أجودات ، وكان تأسيس « مجلس حكماء التوراة » (سيفاراد) ، رداً على « مجلس كبار التوراة » (اشكناز) ، أى أن هناك صراعاً عرقياً داخل طائفة دينية واحدة أصولية يهودية .

وهناك طائفة أصولية أخرى هى الطائفة الحسيدية ومعناها الأتقياء ، وهم فرقة من المتصوفة اليهود ينتسبون إلى الدروشة والتعلق بالبدع والخرافات ، وإتيان المعجزات ، وادعاء علم الغيب والتدجيل ، وهم صورة مثلى لظلام الفكر الدينى المنحرف وانحطاطه ، ويتبعها الفقراء والبسطاء وقليلو الإدراك والمهوسون دينياً ، ولهم طقوس وعبادات خاصة ومظاهر حياتية مصبوغة بصبغة دينية معينة ، وهم يلبسون أردية سوداء طويلة تعود إلى القرن التاسع عشر والقبعات السوداء ، ويطلقون لحاهم الطويلة جداً ، ويعتقد هؤلاء أنه لا يمكن لليهودى أنْ يلمس أى شخص غير يهودى على الإطلاق .

ولكل طائفة من الحسيديين زعيم يُمثل السلطة العليا بين أبناء الطائفة ، ويُعدُّ بأعماله المثيرة وجاذبيته الخارقة القائمة على أعمال السحر والشعوذة وشفاء الأمراض مسيطراً على مريديه جميعاً ، وهم يُعجبون به جداً ، ويطيعونه طاعة عمياء ؛ لأنه فى نظرهم وصل

لاتحاد صوفى مع الرب ، فهو ينطلق بإلهام إلهى ، وينير أرواح أتباعه بإشعاعه الروحى الخاص ويباركهم فى زعمهم ، ويفسر لهم التوراة بطريقتهم الخاصة ، ويعيش على هباتهم وهداياهم له ، وهم يعتقدون أنه زعيم مقدس مدفوع بسرٍّ خفى يؤهله لينوب عن جميع أبناء الطائفة فى الصلاة والتقرب للرب لتحقيق الخلاص لهم ، وفى صلواتهم الجماعية يغنون وينشدون بصوت عال ، ويرقصون ويتمايلون ويمرحون ويتهجون !

وليس كل الحسيديين على هذا الانغلاق والجمود والانعزال ، ولكن منهم طائفة اللوبافيتش ، وتعدُّ من أهم الحركات النشطة دينياً فى الطائفة الحسيدية فى العالم من روسيا إلى أوربا وأمريكا وفلسطين المحتلة ، وهم يعملون لإحياء العادات اليهودية الميتة ، ولديهم شبكة كبيرة من المدارس الدينية والمعاهد التلمودية لتربية الأطفال والكبار على مبادئهم ، ويحرصون على تلقينهم النشيد الأساسى لديهم : « نريد المسيح المنتظر الآن » .

ويقدس اللوبافيتش الأدمور (سيدهم – معلمهم – حاخامهم)، وهو ولى الله، أو واسطة بينهم وبين الله تعالى ، ولا جدال فى آرائه التى يستلهمها مباشرة من الملأ الأعلى! وهو الحاكم الفعلى لمريديه ، ويتوارث خلفه منصبه الروحى .

ويميل اللوبافيتش إلى التميز عن المجتمع المحيط بهم ، فهم يعتزلون غير المتدينين من اليهود بالإضافة إلى الكفار ، ولهم طعامهم الخاص (حلال) فيه تحوُّط شديد مبالغ فيه ، لأنهم لا يقبلون حلال غيرهم من عامة اليهود ، ويعدُّون أنفسهم صفوة الصفوة ، والعضو الجديد يعزل من تناول الطعام مع عائلته من غير اللوبافيتش ، ولا يتزوج إلا داخل اللوبافيتش فقط ، والتفسير الأصولى لذلك ما جاء بمجلة الشبيبة اللوبافيتش فى فرنسا على النحو التالى : « إذا كان الله قد خلق الكون كله وفق قسمة أساسية إلى أربعة مستويات ملكوتية : المعدنى والنباتى والحيوانى والإنسانى !! إلا أنه كتب أنَّ ثمة فى الواقع نوعاً خامساً : شعب إسرائيل ، والمسافة أو البعد الذى يفصل بين الإنسانى والحيوانى »[(١)] .

ولا يعترف حاخام اللوبافيتش بمشروعية الدولة فى « إسرائيل » لأنها بنظره ليست أصولية بما يكفى ، إلا أنه يعتبر أنَّ السيطرة اليهودية على كامل « أرض إسرائيل » هى شرط مسبق لا غنى عنه ولا بديل لظهور المسيح المنتظر ، وأنَّه ينبغى تشجيع كل ما من

(١) جيل كيبل : مصدر سابق – ص ٢٠٠ .

شأنه غسل « إسرائيل » ، وتنظيفها من رجزها أو شوائبها الصهيونية ، وجعلها تتطور باتجاه « التوراتكراسية » (حكم التوراة) ، وبهذه الروحية فإنّه ساهم مساهمة فعّالة فى حملة « اجودات إسرائيل » عام ١٩٨٨م ، وأتاح لها تحقيق نجاح انتخابى .

ومن أجل ذلك يُقاوم اللوبافيتش سياسة الدولة بشأن السلام وإرجاع الأرض المحتلة ، وبشأن القانون الداخلى ، فقد قاوموا – على سبيل المثال – قانون الجنسية قائلين إنّ هذا القانون يُتيح لغير اليهودى ممّنْ يكون قد قام بمهزلة اعتناق إيمان أنْ يُصبح يهودياً كامل اليهودية فى « إسرائيل » ! ولا ندرى لماذا كلُّ هذا الحرص على الدولة على الرغم من الإعلان عن عدم مشروعيتها دينياً ؟!

وتُعدُّ طريق الكفاح الثورى الأصولى ضد قوانين الدولة المخالفة للتوراة راجعة إلى « شبتاى بن دوف » الذى يعدُّ أب الأصولية اليهودية ، وهو من قراء الحاخام الأصولى كوك ، لكنه انفصل عن مذهب هذا الأخير لاعتقاده بضرورة تجاوز الدولة الصهيونية بالمواجهة معها : « فليست قوانين الدولة هى ما ينص لنا على ما ينبغى لنا أنْ نفعله أو ألا نفعله فى كفاحنا الثورى ، بل توراة إسرائيل ووعينا للمسئولية القومية التى تقع على عاتقنا ، وهذا وحده ما يحدد إلى أى حد نعترف بقوانين الدولة ... »(١) .

ومع مفاوضات السلام المصرية الإسرائيلية ، اعتبر بن دوف أنه بات واجباً أكثر من أى وقت مضى إيجاد محفز لديناميكية الافتداء حتى لو اقتضى الأمر الاصطدام بالدولة الصهيونية مواجهةً .

---

(١) جيل كيبل : مصدر سابق – ص ١٨٠ .

١٣ – الخطر الأصولى والسلام العالمى

من المفترض مبدئياً أن الدين يُمثل العدل والرحمة والتسامح والخير والمحبة والإكرام والإحسان والهداية والسلام ... إلخ ، إلا أن الدين مع الأصولية لا يُنتظر منه إلا عكس ذلك ، فهو لدى رجال الدين الأصوليين وأتباعهم ينزلق إلى تحليل المحرمات وتزيين المنكرات وانتهاك للإنسانية باسم الله وبركته ، وينساق الأصوليون إلى وضع مصطلحات تحمل تناقضاً داخلياً عجيباً مثل قولهم إنّ هناك خطة إلهية لتدمير العالم ، وأنّ قيام محرقة نووية كونية هو إرادة الله ، وأن مَنْ يقف مع هذا التدمير ويسعى فيه يُعدُّ متقرباً إلى الله ، ومن يقف ضده فهو ضد إرادة الله !

وفى رأينا أن هذا يمثل الطبعة الجديدة من تشويه الغرب للدين ، فقد جعل منه كهنوتاً متسلطاً ثم فرّ منه إلى العلمانية الدنيوية ، ثم هو يعود إليه مرة أخرى ، ولكنه يعلمنه فيخضع مفاهيمه وطقوسه لأغراض دنيوية وعنصرية تتصل باغتنام الدنيا ، والتفوق على الآخرين ، والتعصب حيث يتحول الدين إلى تمجيد للذات بدلاً من تمجيد الله تعالى ، ونسبة الله للخلق بدلاً من ذاته المطلقة ، ويأتى فى سياق ذلك تعبيرات غريبة مثل: « إله إسرائيل المدافع عن شعبه القديم » و « شعب الله المختار » و « أبناء الله وأحباؤه » ، ويتم إحياء تعبيرات توراتية عنصرية وساذجة لم يعد يقبلها العقل ، ويجرى طرحها بمفاهيم جديدة لا يستسيغها العصر .

وبدلاً من تحقيق وظيفة الدين فى تهذيب النفس وإصلاحها بطاعة الله والأعمال الصالحة ، فإنّ الخالق سبحانه يصبح تابعاً للإنسان لتبرير أفعاله ، والرضا عنها لمجرد أنّها تحقق نزوات ورغبات أصحابها ومصالحهم ، وتصير القضية هى : كيف نحقق النفع المادى والرفاهية والتفوق على أتباع الديانات الأخرى ونخضعهم لسلطاننا ، بل كيف نخضع أيضاً آلهتهم المتخلفة (مثلهم) لإلهنا المتفوق مثلنا، ذلك الذى لا يمكن أن يكون إلا الأهواء الذاتية ، والخصوصية الثقافية ، لا الإله الواحد خالق السموات والأرض !

ففى الأصولية الغربية يتعانق الدين مع الأهواء السياسية ويصير مطيتها فى صورة غربية جعلت الهجرة والاستيطان والاحتلال والعدوان والقتل والمذابح والطرد لسكان فلسطين ، وإقامة دولة أصولية يهودية تجسيداً حياً لإيمان الأصوليين ومطامح السياسيين معاً ، ففى إنشاء الكيان الإرهابى المغتصب يتجسد الإيمان الصوفى للأصولية الغربية فى « إحياء إسرائيل » تعجيلاً بالعصر الألفى السعيد ، وفى الوقت نفسه التخلص من « قرف » اليهود وتهجيرهم إلى فلسطين لاستخدامهم كرأس حربة لإخضاع الشرق للمصالح السياسية للغرب .

ومع الأصولية اليهودية يصير الدين جنسية عرقية وصلة دم عنصرية ، ويغفل الاختلافات والتمايز العرقى بين اليهود بادعاء أنهم عنصر واحد أو عرق نقى لم يختلط بغيره من الأمم ، وهى مفخرة أو أسطورة أدت إلى السعى لإقامة دولة يهودية « نقية » ليس فيها إلا اليهود ، ومن هنا عمل اليهود على إبادة وطرد العرب المسلمين والمسيحيين الفلسطينيين ، كما احتكروا المناصب الحكومية والإدارية لليهود ، وحرّموا الحصول على الجنسية إلا لمَنْ ولد من أم يهودية ، وجدته كذلك وأمها يهوديتان ، أو مَن اعتنق اليهودية بإقرار حاخام يهودى ، والمواطنة الكاملة لا تمنح لهؤلاء الآخرين لأنهم عرق أدنى ودرجة ثانية . ويستوى مع هذه الأصولية العنصرية البروتستانت البيوريتان والتدبيريون البيض المسيحيون الذين رفضوا غيرهم من الشعوب وأبادوها فى الأمريكتين لأنهم عرق أدنى فى نظرهم .

أما الإسلام فهو الذى ابتدع مصطلح الأمة ، ويدخل فيه كل الأعراق والألوان والألسن والقوميات ممن يرتضى الإسلام على قدم المساواة فى نسق اجتماعى مؤتلف يشمل الكتابيين فى حقوق المواطنة والاعتقاد وغيرها .

ومن هنا تلتقى الأصوليتان المسيحية واليهودية ، وكلٌّ منهما ترى فى الأخرى مطيتها لتحقيق أغراضها ، وكلتاهما تضعانِ نفسيهما فى مركز مخطط الربّ لنهاية العالم ، على حين أن الآخرين مجرد هوامش ، وحواشٍ ، ويجمع الأصوليتين نظرة تشاؤمية للواقع المحكوم عليه بالفناء ، حيث العالم المعاصر يجب أن يزول حتى يأتى يوم الربّ ، ويمكن أنْ نجمل عدداً من نقاط الالتقاء بين الأصوليين الإنجيليين والأصوليين اليهود فى الآتى:

- الوعد الإلهى بالأرض المقدسة لليهود .
- فلسطين أرض بلا شعب ، لشعب بلا أرض .

ـ إقامة الدولة العبرية ضرورة لظهور المسيح .

ـ اليهود شعب الله المختار ، مَنْ أحبّهم أحبّه الله ، ومَنْ يلعنهم يلعنه الله .

ـ الحرفية فى تفسير النصوص التوراتية .

ـ « إسرائيل » لا تخضع للقانون الدولى ، ولكن لقانون الله .

ـ التخفى وراء النصوص الدينية لتحقيق أغراض سياسية .

ـ الإيمان بالقوة والعنف لتحقيق أهداف الإيمان .

ـ تزاوج المصالح بالتعاون على الإثم والعدوان كالسعى لهدم المسجد الأقصى وإقامة الهيكل مكانه .

ـ القدس الموحدة عاصمة « إسرائيل » الأبدية .

ـ لا يُؤمنون باليوم الآخر والبعث على ما يؤمن به المسلمون بل يؤمنون بمجىء مملكة الله المَسيحية .

ـ فلسطين هى مسرح أحداث النهاية ، ومحل المجىء الثانى للمسيح المنتظر .

ويستغل الأصوليون فى كلا الجانبين النظام الديمقراطى فى بلادهم ، ويخوضون الانتخابات ويعقدون التحالفات والصفقات للوصول إلى سلطة القرار أو التأثير عليها لكى يزيدوا نفوذهم ومكاسبهم ويعيدوا صياغة المجتمع من القاعدة الجماهيرية وفق رؤاهم الخطرة ، ويستخدمون فى ذلك التقنيات المتطورة من تلفزة وإذاعات وجامعات ، ولا يلقى هؤلاء مطاردة أو ملاحقة أو قتلاً وتعذيباً مثل التى يلقاها الإسلاميون فى بلادهم ، إلا ما كان من حظر حركة كاخ اليهودية بعد مذابحها المتكررة للفلسطينيين ذراً للرماد فى العيون ، فالأصولية هناك رسمية كما قلنا فى الإطار الحكومى والمدنى والعسكرى ، ويمثل هؤلاء جزءاً من النسيج الاجتماعى المتطرف المتحكم فى مؤسسات وفعاليات الدولة والمجتمع .

ومن المثير أنْ يجتمع أهل الأصوليتين الإنجيلية واليهودية على إغفال حقوق المسيحيين فِى فلسطين بل إنكار وجودهم نفسه لأنهم عرب ، مع أن المسيحية نبعت من هناك حيث ولدَ ونشأ المسيح عليه السلام وبدأ دعوته ، ومع أنَّ الغرب تشدق كثيراً بأنه أشبين الأقليات المَسيحية فى الشرق .

تقول جريس هالسل رواية عن مسيحى فلسطينى : « إن المسيحيين (الفلسطينيين)

الذين يُهاجرون أو الذين يموتون تحت هذا القمع (الإسرائيلى) هم أنفسهم المسيحيون الذين حافظوا باستمرار على شعلة الكنيسة الأم طوال التاريخ المسيحى ، إنَّهم الآن يُواجهون أعتى عمليات الإبادة منذ أيام المسيح ، ولوكان المسيح هو « فولويل » (الداعية الأصولى الإنجيلى) لوافق على كل ما هو خطأ ، ولما مات على الصليب[1] ، إنَّ فولويل يأتى إلى القدس حيث يوجد مسيحيون من حوله فى كل مكان ، ولكنه يرفض رؤيتهم ، إنَّه يغمض عينيه وقلبه فى وجه المسيحيين الذين عاشوا هنا منذ أيام المسيح ، إنَّه يستخدم المعاناة لإرضاء الصهاينة » .

ويضيف هذا المسيحى الفلسطينى قائلاً : « إنَّ الهدف الأساسى للعسكرية الصهيونية هو السيطرة على قلوب وعقول المسيحيين الأمريكان ، فإذا استطاعوا إقناع المسيحِيين الأمريكان بأن الشعب الفلسطينى غير موجود ، أو أنه غير مهم ، عند ذلك سيوافِق المسيحيون على كل ما يفعله الإسرائيليون ... »[2] .

وعلى رغم هذا التوافق الظاهرى بين الأصوليتين الإنجيلية واليهودية ، إلاّ أنَّ بذور الشقاق موجودة وحاضرة ، وستأتى ساعة الاحتراب بينهما ، فاليهود يبغضون المسيح عليه السلام ولا يعترفون برسالته ، وهم فى خارج فلسطين لا ينتمون للدول التى ولِدوا فيها ويحملون جنسيتها بقدر انتمائهم « لإسرائيل » ، فهى وطنهم الحقيقى فى باطنهم ، وهذه الخيانة الوطنية تجعلهم سبب شقاق محتمل داخل هذه الدول يمكن تفجيره فى أية لحظة ، وخصوصاً أنهم يكرهون كل ما ليس بيهودى .

أما المسيحيون الأصوليون فينتمون لبلادهم ، وهم ينظرون إلى « إسرائيل » فلسطين كأرض مقدسة سيظهر عليها المسيح لينتصر ويرفع المؤمنين به إلى السماء قبل أن ينزلوا ليعيشوا معه ألف عام فى سعادة متصلة عقب هلاك غير المؤمنين .

ونقطة الاختلاف الرئيسية التى تكمن فى الأعماق ، وتمور تحت السطح البركانى الهادئ إلى حين هى أنَّ الأصولية الإنجيلية تنتظر من اليهود الاهتداء بالمسيحية ، على حين اليهود تقوم دولتهم على مقومات يستحيل معها ذلك ، والإنجيليون يعطون امتيازاً للإسرائيليين الحاليين ، لأنَّه سيؤمن بعضهم بالمسيح حال عوده الثانى ، ولأن قيام دولتهم هو تحقيق لنبوءة كتابية فى نظرهم ، وضرورة لإتيان المسيح ، وهم يعتقدون بتفضيلهم واختيارهم من الله ، لأنَّهم شعبه على رغم فسادهم وكفرهم بالمسيح !

(١) فى : عقيدة الصلب التى لا نؤمن بها . (٢) جريس هالسل : مصدر سابق – ص ٨٢ .

ولذلك يُعَدُّ الحلف غير المقدس بين اليهود والأصولية الأمريكية غير قادر على الاستغناء عن التوافق السياسى والاستراتيجى بين « إسرائيل » وأمريكا فى منظومة الأهداف الإمبريالية ، وهم أى الإنجيليون يستخدمون كلا الطريقين الدينى والسياسى لدعم الكيان الأصولى المغتصب ، وماداموا يفعلون ذلك . فأمريكا الأصولية يوجد بها كثيرون مستعدون لدفع الفاتورة .

وعودة المسيح الثانية وإن اتفق عليها الفريقان الأصوليان ، إلا أنها ستكون الفُرقان بينهما ، فاليهود لهم مسيحهم الذى يرون أنه لا يقبل غيرهم - مسيحياً أو مسلماً أو مشركاً ، فكلهم أمم وثنية عندهم ، وإذا قبل غيرهم فليكونوا خدماً وعبيداً لهم ، والمسيحيون يعتقدون كذلك أنَّ المسلمين أمة وثنية ، وأنَّ المسيح لن يقبلهم ، وأنَّهم لن يؤمنوا بالمسيح بل سيقاتلون اليهود (مملكة الله) ، وسيحاربون المسيح فيدمرهم ويهلكهم ويخرب مدنهم ونسلهم !!

وقد دعا البروتستانت إلى التوفيق بين المسيحيين واليهود على أساس من انتظار الفريقين معاً لعودة المسيح باعتبار أنَّ هذه العودة ستجمع الفريقين معاً تحت قيادة « مُخلِّصهم » ، وهذا ليس أكثر من أمنية ، فنحن نعرف - وهم يعرفون أكثر - تاريخ اليهود مع المسيح عليه السلام ، وإذا كانوا لم يؤمنوا به أول مرة ، فكيف سيؤمنون به آخراً ، إنهم فى الحقيقة لا ينتظرون المسيح ابن مريم ، ولكنهم ينتظرون مسيحاً آخر .

وينسى اليهود ، وينسى المسيحيون ، أو يتجاهلون أنَّ المسلمين هم أمة تُؤمِنُ بالله الواحد وبنبوة المسيح عليه السلام ، وينتظرون هم أيضاً عودته الثانية آخر الزمان ، والمؤكد أنَّه تدبير الله سبحانه أنْ يجعل كلاً من أمة الجمعة وأمة السبت وأمة الأحد على انتظار لعودة المسيح (وكُلُّنا يُحبُّ القمر ، ولكن مَنْ يُحبُّهُ القمر ؟) ، فعند عودته يفصل بين هؤلاء جميعاً أيُّهم على الحقِّ ، وأيُّهم على الباطل ، ﴿ وإنَّا أَوْ إيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (سبأ : ٢٤)

بل إننا نحن المسلمين لا نؤمِنُ بمسيح واحد ، ولكن بمسيحين اثنين : مسيح الهدى عيسى ابن مريم ، ومسيح الضلالة المسيح الدّجال، وهذا الأخير سيظهر أولاً ونرى أنه سيكون مسيح اليهود ، فهو سيتوافق تماماً مع أهوائهم المريضة ، وأغراضهم الضَّالة ، وأفعالهم السقيمة ، وسيقود اليهود بذلك فى صراع ضد المسيح ابن مريم ومَنْ آمن معه .

وإيماننا بعودة المسيح يختلف عن عقيدة هؤلاء جميعاً ، فهذه العودة لها عندنا بُعْدُها

الإنسانى والروحانى ، فلن يكون « إله حرب » يَقْدُمُ على قرابين من دماء البشر ودمار الأرض وخراب الكون ، ولكن عبدَ الله ، مسلماً مع المسلمين ، موحداً مع الموحدين ، ناصراً لدين الله ، يقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويدعو إلى الله تعالى كنبى كريم ﷺ فهل سيقبله هؤلاء على ذلك ؟

إنَّ المسلمين أكثر احتراماً وتوقيراً للمسيح عليه السلام من غيرهم ، وكم من أفلام وتمثيليات صنعها الغرب الذى يدّعى المسيحية ، فيها عدم احترام للمسيح الكريم ، والمسلمون يمنعهم دينهم من مثل ذلك ، فهم يوقِّرونَ الأنبياء الكرام جميعاً عن التمثيل عليهم ويحتجون عمّا يصدره الغرب من ذلك .

وقد احتج المسلمون فى بريطانيا مؤخراً على ظهور السيد المسيح فى برنامج عرائس تلفزيونى فى صورة هزيلة جعلته أشبه بالهيبز ، وأعلن المسلمون غضبهم بشدة على الصور الكاريكاتورية التى يرون أنها تُقلل من شأن أحد الرسل الذين يؤمنون بهم كما جاء فى القرآن ، وقد اضطر منتجو البرنامج لإلغاء هذه الشخصية الهزلية للمسيح عليه السلام من البرنامج ، وتقول صحيفة صنداى تليجراف البريطانية : إنَّ مسلمى بريطانيا كانوا أكثر غضباً وأكثر عزماً على وقف هذه المهزلة من المسيحيين أنفسهم [(١)] .

ومن المؤسف أنَّ العقائد الأصولية السابقة يُحاول أهلها تسريبها إلى الكنائس الشرقية ، وهم بذلك يُحاولون اختراق الكنائس التى أثبتت وطنيتها فى كل وقت ، ووقفت فى وجه الاستعمار الغربى المتستر بالصليب ، لأنها كانت تدرك الأهداف الحقيقية للحملات الصليبية قديماً وحديثاً ، وقد جاء فى بيان مجلس كنائس الشرق الأوسط عن أهداف الإرساليات التبشيرية المحدَثة تلك : « حركة المرسلين فى القرن التاسع عشر كانت تحفزها رغبة قوية في « تصدير » الثقافة والقيم الغربية إلى الشرق الأوسط ، وفى بعض الحالات بلغ الأمر أنْ جعلت المسيحية والتبشير بالإنجيل والحضارة ، مرادفة للحضارة الأوربية - الأمريكية ، وبعضهم كان يُؤمن أنه لم توجد فى الشرق الأوسط كنيسة « حقيقية » حتى كادوا ينكرون أن المسيحية والتوراة جاءتهم من الشرق الأوسط ، ويؤمنون بأن الإرساليات الغربية هى التى أتت إلى الشرق الأوسط بهما ، واعترف بعضهم أن فى الشرق الأوسط كنائس ، لكنهم آمنوا أنها ليست [مسيحية] بدرجة كافية » .

---

(١) الأخبار القاهرية ، ٢٨ ربيع الآخر ١٤١٣هـ .

ومع تسلل هذه الأصولية الغربية إلى بعض مسيحيي الشرق ، اهتم رجال الكنيسة والمثقفون المسيحيون الوطنيون ببيان زيفها ، وأعلنت الكنيسة الإنجيلية المصرية براءتها من هذه العقيدة الأصولية ، ووضع بعض الأقباط كُتباً فى ذلك منها كتاب دكتور رفيق حبيب : « المسيحية والحرب : قصة الأصولية الصهيونية الأمريكية والصراع على الشرق الإسلامى »[1] ، وكتب القس إكرام لمعى : « هل من علاقة بين عودة اليهود ومجىء المسيح الثانى ؟ »[2] ، ويبين هذا الأخير كيف يمكن أن تُوقِعَ هذه العقيدة أصحابها فى مآزق وتمزق وخيانة لأوطانهم يقول :

« والحقيقة أنَّ هذه العقيدة أثرت فى وجدان مَنْ يُؤمِنُون بها تأثيراً أوقعهم فى مآزق فكرية وأخلاقية عدة ، ففى إحدى جلساتى مع طيار مسيحى يُؤمِن بهذه العقيدة ، صرح لي بأنّه ممزق داخلياً ؛ لأنّه إذا صدر له أمر بضرب « إسرائيل » فسوف ينفذ الأمر ويحارب لأجل بلاده ، فهو وطنى يحب بلده ، فى الوقت نفسه الذى يعتقد أن « إسرائيل » لا بد أن تنتصر فى نهاية الأمر ، فكيف يكون أميناً فى أحاسيسه ومشاعره نحو بلده العزيز فى الوقت نفسه الذى يكون فيه أميناً نحو عقيدته ، وأى تمزق يعيشه ؟! هل يتمنى انتصار « إسرائيل » التى قتلت أخاه وصديقه ، وكانت سبباً مباشراً فى أزمته الاقتصادية والاجتماعية ، وسبباً فى انهيار الكثير من القيم الإنسانية والأخلاقية داخل مجتمعه ، وتدهور المرافق العامة والخدمات تدهوراً لم يسبق له مثيل ، أو يكره « إسرائيل » كإنسان وطنى محب لوطنه ، ويكون بهذا الموقف ضد خطة الله من نحو العالم حسب تصوره ... » .

ولعل كنيستنا الشرقية تكون قد تنبهت بما يكفى لقطع الطريق على هذه الدعوات الأصولية الصهيونية التى تقود اختراقاً من القاعدة الجماهيرية التى لا تملك المعرفة الصحيحة والكاملة بزيف هذه الأفكار ، وتكون قد أخذت من الوسائل ما يُوقِف عملها الخطير فى نسيج الوطن لصهينة عقله ، وتزييف وجدانه الروحى ، وتحويل إيمانه الدينى لخدمة الأعداء من خلال نصوص يُساء فهمها والتعامل معها .

لقد أصدر مجلس كنائس الشرق الأوسط بياناً يرد فيه على البيان الذى صدر عن القيادة المسيحية الصهيونية الدولية فى مؤتمر بال بسويسرا عام ١٩٨٥م ، وقال بيان

---

(١) الناشر : يافا للدراسات – القاهرة ، ١٤١١هـ .

(٢) الناشر : دار الثقافة – القاهرة ، ١٤١٠هـ – ص ٤ ، ٥ .

مجلس كنائس الشرق الأوسط : « لما كنا نعى المسئوليات الملقاة على عواتقنا حيال الطوائف المسيحية والرأى العام العالمى ، فإننا نؤكد أنّ لهذا الاجتماع صفة سياسية مفضوحة على الرغم من الإشارات الدينية الكثيرة ، إننا ندين استغلال التوراة واستثمار المشاعر الدينية فى محاولة لإضفاء صبغة قدسية على إنشاء دولة ، ولدمغ سياسة إحدى الحكومات بدمغة شرعية » .

كما أن الكنيسة الكاثوليكية ظلت تُخالف عقيدة الأصوليين الإنجيليين البروتستانت التى يرونها تُهدد العقيدة النصرانية ، وظلت تتمسك باعتقادها بأنّ ما يُسمّى الأمة اليهودية قد انتهى ، وأنّ الله طرد اليهود من فلسطين إلى بابل عقاباً لهم على صلب المسيح - فى عقيدتهم ، وأنّ النبوءات الدينية عن العودة إلى فلسطين ، تشير إلى العودة من بابل ، وأنّ هذه العودة قد تمت بالفعل على يد الامبراطور الفارسى قورش ، وما زالت الكنيسة الكاثوليكية والكنائس الشرقية ترفض التفسيرات والاجتهادات التهويدية التى قدمتها الحركة الأصولية البروتستانتية .

وقد رفض الفاتيكان مراراً إقامة الدولة اليهودية المغتصبة فى فلسطين ، ولكن التحول الذى جرى مؤخراً يُشير بوضوح إلى تبدل أساسى فى المواقف ، فالكنيسة الكاثوليكية برأت اليهود من دم المسيح ، وتصالح الفاتيكان دبلوماسياً مع الدولة التى رفضها دائماً ، وهو بذلك يسير على خطى السياسة المتغيرة ، مع أنّه يفترض أن تكون هناك مبادئ ومواقف ثابتة ، ولكن للأسف قدّم الفاتيكان « اعتذاره وأسفه للعداوات والأفكار السابقة بحق اليهود التى أطلقتها الكنيسة » ، وحُذِفَتْ جميع الصلوات التى كانت تدين اليهود !

وهذا ما يجعلنا نُحذرُ من الاختراق الصهيونى الأصولى لكنائس الشرق تحت تأويلات تتواءم مع التغيرات السياسية فى مرحلة السلام أو الاستسلام للأمر الواقع الذى يكرسه الاحتلال والاغتصاب والقوة المسلحة والمصالح الاستعمارية وتخاذل « يهود العرب » .

والخطورة لا تأتى من تمكن الفكر الأصولى اليهودى من صهينة العقل الغربى ، واختراق النصرانية ، والاستحواذ على الطائفة البروتستانتية فقط ، ولكن مع صهينة العقل الغربى عمل الصهيونيون أيضاً على إقناع الغرب أنّ الإسلام هو الآخر ليس إلا صورة مشوهة من اليهودية ، وفوق ذلك حاول اليهود التسلل إلى العقيدة الإسلامية ، وكما نجحوا فى اختراق النصرانية عن طريق بعض أبناء الكنيسة أنفسهم ، فإنهم حاولوا استخدام بعض أبناء المسلمين للهدف نفسه ، فسقط هذا الفريق ضحية ضلال الاستشراق اليهودى

والمؤسسات الصهيونية الغربية ، ولكن تأثير هؤلاء كان بعيداً عن العقيدة الإسلامية التى احتفظت بنقائها تماماً من المؤثرات اليهودية على الرغم من ظهور حركات - بتأييد اليهود وبريطانيا - تمثّل ردّة عن العقيدة الإسلامية مثل القاديانية والبهائية ، إلا أنّ هذه الحركات ليس لها أثر كبير فى نهر الحياة الإسلامية ، ولكن الذى لا يُمكن إغفاله لليهود هو دورهم فى إسقاط نظام الخلافة الإسلامية على يد كمال أتاتورك . عليه من الله ما يستحق .

ومع محاولات الاختراق السرية تُمثل حقيقة امتلاك الأصولية اليهودية لعدد هائل متصاعد من القنابل النووية كابوساً مرعباً ليس للعرب وحدهم ، ولكن للمسلمين جميعاً والمستضعفين فى العالم ، بل إنّا ندّعى أنه خطر على العالم جميعه ، فهى ستكون أسلحة المسيح الدجال رجل اليهود المنتظر ، للتسلط على العالم بأسره ، وعلى رغم عطاء أمريكا بلا حدود وتسخيرها إمكانيات جبّارة دون شروط لاستمرار التفوق الإسرائيلى على العرب إلا أنها لا تخرج من دائرة الخطر ، « فإسرائيل » هى ربيبة أمريكا ولذلك تتحمل مسئولية عملها حتى لو كان متوحشاً وخارجاً عن يد الولايات المتحدة نفسها ، ولذلك يقول نعوم كومسكى (اليهودى الأمريكى الناقد لإسرائيل) فى كتابه : « المثلث القدرى : الولايات المتحدة وإسرائيل والفلسطينيون » :

« التهديد - باستخدام الأسلحة النووية فى حرب ١٩٧٣م - كان موجهاً إلى الولايات المتحدة ... ويمكن الظن أنّ الصواريخ الإسرائيلية ذات الرؤوس النووية التى يُمكن أن تصل إلى جنوب روسيا ليس الهدف منها ردع الاتحاد السوفيتى ، و إنما تنبيه المُخططين الأمريكيين مرة أخرى إلى أنّ الضغوط على إسرائيل للخضوع أو لتسوية سياسية يمكن أن تؤدِى إلى رد فعل عنيف ... مع إمكانية حرب نووية عالمية » .

ويكتب كومسكى أيضاً : « إن سلاح إسرائيل السرى ضد الولايات المتحدة خاصة ، وضد الغرب عامة هو أنها - أى إسرائيل - يُمكن أنْ تَتصرف « كدولة متوحشة » خطيرة على جيرانها غير طبيعية أو قادرة على إحراق حقول النفط أو حتى البدء بحرب نووية » .

وتنقل جريس هالسل الأقوال السابقة وتُضيف إليها تهديد وزير الدفاع الإسرائيلى السابق « بنحاس لافون » : « سوف نصاب بالجنون » كما قال مسئول فى حزب العمل: « ليس لدينا شيء نخسره ولذلك فإن من الأفضل أنْ نتصرف بجنون ، فإن العالم سيعرف

إلى أى حد وصلنا ، إن العالم كله ضدنا بسبب لا سامية لا تزول » ، إنّها نظرة جنون الارتياب والشّك ، التى تدين فى قسم غير كبير منها إلى نظام الإيمان عند المسيحيين الصهيونيين [١] .

والأصولية الانجيلية تحمل قسطها من الإثم ، إذ إنها بفهمها الحرفى للنصوص ، وتفسيرها الاجتهادى الباطل لنصوص رمزية من التوراة والإنجيل تعرض العالم - لا العرب والمسلمين وحدهم - للخطر ، لأن منهجها التزويرى فى العقيدة ، والادعاء المحرف للدين لن يقف بها عند حد ، ولأنّها تملك وسائل الدعاية والإعلام والنشر والتأثير على الجماهير بحيث تقود العالم إلى ويلات لا يعلم مداها إلاّ الله .

إنّ الأصوليين الإنجيليين يؤكدون أنّ تأييد العدو الصهيوني ليس اختياراً ، بل قضاء إلهى ، وأنّ الوقوف ضد الكيان الأصولى هو وقوف ضد الربّ يستدعى غضبه ونقمته ، وأنّ الله يبارك مَنْ يبارك « إسرائيل » ، ويلعن لاعنيها ، وأنه يجب التعجيل بحرب نووية للتعجيل بعودة المسيح ، وهم بذلك يقفون مع الأعداء التقليديين للمسيح أى اليهود ، ضد من يوقرون ويبجلون المسيح أى المسلمين .

وقد عبّرت جريس هالسل عن مخاوفها من هذا التخطيط الأصولى بقولها [٢] :

« على الرغم من أنّ المسيح دعا إلى إقامة المعابد فى النفوس ، فإنّ الأصوليين المسيحيين يصرون على أنّ الله يريد أكثر من بناء معبد روحى ، إنه يريد معبداً حقيقياً من الإسمنت والحجارة يقام فى الموقع الذى توجد فيه الصروح الإسلامية تماماً » .

« بعد زيارة الحرم الشريف تملكنى الخوف من أنه إذا شَنّ اليهود المتعصبون بمؤازرة المسيحيين المتعصبين حرباً مقدسة ، أو جهاداً ضد المسلمين ، وإذا أقدموا على تدمير أكثر الأماكن الإسلامية المقدسة فى القدس ، فإنّهم قد يتسببون فى حرب عالمية ثالثة ، ومجزرة نووية » .

« وطالما ساءلتُ نفسى : هل تجاهل مشاعر المسلمين يُمثل الأصولية المسيحية ؟ وهل قادة الأصولية المسيحية الإنجيلية لا يدركون ، ولا يكترثون وحتى يحتقرون مشاعر حوالى مليار مسلم ، فى ستين دولة حول العالم ؟ » .

---

(١) جريس هالسل : مصدر سابق - ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٢) مصدر سابق - ص ١٠٠

المراجـــع

١ – **د. أحمد إبراهيم خضر** : الإسلام والكونجرس الأمريكى ، ط ١ ، بيت الحكمة ، القاهرة ١٤١٣هـ .

٢ – **القس إكرام لمعى** : هل من علاقة بين عودة اليهـود ومجىء المسيح الثانى ؟ ط ١ ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٤١٠هـ .

٣ – **د. أوجـست روهلنج** : الكنز المرصود فى فضائح التلمود ، دراسة د. محمد عبد الله الشرقاوى ، مكتبة الوعى الإسلامى ، القاهرة ، ١٤١٠هـ .

٤ – **توماس ليبـمان** : جماعات الإسلام السياسى (رؤية أمريكية وثائقية) ، ط ١ ، يافا للدراسات ، القاهرة ، ١٤٠٩هـ .

٥ – **جـاك بولين** : مع القومية العربية ، ط ١ ، تعريب : نجدة هاجر ، وسعيد الغز ، المكتب التجارى ، بيروت ، ١٩٥٩م .

٦ – **جريس هالسل** : النبوءة والسياسة : الإنجيليون العسكريون فى الطريق إلى الحرب النووية ، ط ٢ ، ترجمة : محمد السّماك ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ليبيا ، ١٤١٠هـ .

٧ – **جيل كيپل** : يوم الله ، الحركات الأصولية المعاصرة فى الديانات الثلاث ، ط ١ ، ترجمة: نصير مروة ، دار قرطبة ، قبرص ، ١٤١٢هـ .

٨ – **ديفيد براندداو** : الأصولية اليهودية ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٤١٤هـ .

٩ – **رجاء جارودى** :

ـ الإسلام دين المستقبل ، دار الإيمان ، بيروت ، ١٤٠٣هـ .

ـ ملف إسرائيل : دراسة للصهيونية السياسية ، طـ ١ ، دار الشروق، القاهرة، ١٤٠٣هـ.

١٠ – **د. رفيق حبيب** : المسيحية والحرب : قصة الأصولية الصهيونية الأمريكية والصراع على الشرق الإسلامى ، يافا للدراسات ، القاهرة ، ١٤١١هـ .

١١ – **ريتشارد نيكسون** : انتهزوا الفرصة : التحدى الأمريكى فى عالم الدولة العظمى الواحدة ط ١ ، ترجمة : حاتم غانم ، قايتباى للنشر ، الإسكندرية ، ١٤١٢هـ .

١٢ – **ريجينا الشريف** : الصهيونية غير اليهودية – جذورها فى التاريخ الغربى ، سلسلة عالم المعرفة ٩٦ ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ربيع الأول ١٤٠٦هـ.

١٣ – **سيرج لاتوش** : تغريب العالم : بحث حول دلالة ومغزى وحدود تنميط العالم ، ط ١ ، ترجمة : خليل كلفت ، دار العالم الثالث ، القاهرة ، ١٤١٢هـ .

١٤ – **عاطف النمر** : نهاية العالم يوليو ١٩٩٩ ، المكتب العربى للمعارف، القاهرة، ١٤١٠هـ.

١٥ – **د. عبد الناصر مدبولي الخضرى** : الحرب العالمية الثالثة بين الإسلام والغرب ، د. ن ، القاهرة ، ١٤١٠هـ .

١٦ – **د. عبد الودود شلبى** : الزحف إلى مكة ط ١ ، الزهـراء للإعلام العربى ، القـاهرة ، ١٤٠٩هـ .

١٧ – **كارل ماركس** : المسألة اليهودية ط ٢ ، ترجمة : محمد عيتانى ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٥٦م .

١٨ – **ليونيل دادياني** : الصهيونية على لسان قادتها ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة، ١٤٠٨هـ.

١٩ – **المجلس الأعلى للشئون الإسلامية** : من التلمود ، دار التحرير ، القاهرة ، د. ت .

٢٠ – **محمد السّماك** : الأصولية الإنجيلية أو الصهيونية المسيحية والموقف الأمريكى ، مركز دراسات العالم الإسلامى ، مالطا ، ١٤١١هـ .

٢١ – **د. مراد هوفمان** : الإسلام كبديل ط ١ ، ترجمة : د. غريب محمد غريب ، مؤسسة بافاريا ، ألمانيا الاتحادية ، ١٤١٣هـ .

٢٢ – **مصطفى أمين** : أمريكا الضاحكة زمان ، كتاب اليوم ٢٩٧ ، مؤسسة أخبار اليوم ، القاهرة ، أغسطس ١٤٠٩هـ .

٢٣ – **د. منى كاظم** : المسيح اليهودى ومفهوم السيادة الإسرائيلية ، الاتحاد للصحافة والنشر ، أبو ظبى ، ١٤٠٦هـ .

٢٤ – **موريس بوكاى** : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٢هـ.

٢٥ – **د. هانى ماهر** : دراسات تفسيرية فى سفر الرؤيا، دار الطباعة القومية، القاهرة، ١٤١٢هـ.

٢٦ – **وجيه أبو ذكرى** : الإرهابيون الأوائل جيراننا الجدد ، المكتب المصرى الحديث ، القاهرة، ١٤٠٧هـ .

٢٧ – **مجلات** : الأمة – قطر – مستقبل العالم الإسلامى – مالطا ، مجلة العالم – لندن – الوسط – لندن – لواء الإسلام – القاهرة – منبر الشرق – القاهرة – الشعب .

الفهرس

* مقدمة : المسألة الأصولية والمسألة الشرقية ٥
١ – على خطى الأصولية : صور حية ٨
– بالدم والنار تنهض « إسرائيل » ٨
– الأصولية الأمريكية فى الهيئة الدولية ١٠
– بين أصوليتين ١١
– الأصولية الصربية وحرب الإبادة ١٢
– الأصولية الهندوسية تهدم المساجد ١٣
– التمرد الأصولى المسيحى ١٤
– النبوءة الأصولية لتدمير العالم ! ١٥
٢ – لماذا الأصولية ؟ ١٧
٣ – الأصولية فى مرآة الغرب ١٩
٤ – الإسلام فى معترك الأفكار الأصولية – بحث عن الجذور ٢٩
٥ – الأصولية : كيف يجب أن تُفْهَم ؟ ٣٨
– الأصولية العلموية ٤٢
– الأصولية الستالينية – الأصرلية الفاتيكانية ٤٣
٦ – الأصولية الإسلامية : المصطلح الزائف ! ٤٧
٧ – المتعلمانيون والمتقديميون والحرب على الأصولية ٦٦
٨ – ثورة إسلامية أم خطر أصولى ؟ ٧٧
٩ – إعادة أسلمة وتنصير وتهويد العالم : سباق حركات الإحياء الدينى مع العلمانية ٨٦
١٠ – وصف أمريكا الأصولية : الأصولية المسيحية الإنجيلية والدعوة إلى الحرب النووية ٩٩
١١ – « إسرائيل » الأصولية – الإدارة والشعب والجيش ١٢٤
١٢ – الأصولية اليهودية وأحداث يوم النهاية ١٤٧
١٣ – الخطر الأصولى والسلام العالمى ١٦٣

رقم الإيداع : ١٤٠٥٣ / ٩٨
الترقيم الدولى I. S. B. N. 977 - 262 - 099 - 4

دار البشير – القاهرة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤٥ طريق المعادى الزراعى ص. ب ١٦٩ المعادى ت : ٥٢٤٣٦٨٧ . ٥٢٥٢٣٩٠